من منبر الجمعة

جمع وإعداد

عبدالرحمن بن محمد بن صالح الحمد

المجلد الأول

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

ⓗ عبدالرحمن بن محمد بن صالح الحمد؛ ١٤٤٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، عبدالرحمن بن محمد بن صالح

من منبر الجمعة./ عبدالرحمن بن محمد بن صالح الحمد- ط١.-

الرياض، ١٤٤٤هـ.

٤٨٤ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ١ - ٥٢٣٦ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الخطب الدينية أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ٩٢٨٥/ ١٤٤٤

رقم الإيداع: ٩٢٨٥/ ١٤٤٤

ردمك: ١ - ٥٢٣٦ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعد:

فهذه خُطب ألقيتها في أوقات متفرقة، رأيت جمعها وإخراجها لأستفيد منها ومن يطلع عليها من إخواني الخطباء وغيرهم، وقد سميتها: **(من منبر الجمعة)**، ومن المعلوم أن الخطيب هو من يختار الموضوع المناسب لخطبته، وما يصلح لجماعة مسجده، وقد راعيت فيها الإيجاز غير المخل، والإطناب غير الممل في بعض الخطب، رجاء النفع والفائدة.

ولا تخفى أهمية خطبة الجمعة، ومكانتها في الإسلام، فهي توجيه، ووعظ، وإرشاد حتى يخرج المصلي وقد استفاد مما سمع، ويُرجى منه التطبيق.

وقد أذنتُ لمن أراد الاستفادة من هذه الخطب أو الاقتباس منها، فالمقصود واحد، والهدف المنشود واحد، ولي رجاء ممن اطلع أن يسدي إليَّ نُصحه، أو ملحوظاته، فالخطأ وارد، والسهو حاصل، وأن يحملني على أحسن المحامل، ويحسن الظن بالعبد الضعيف.

والله أسأل أن يجعلها علماً يُنتفع به، يكون أجره لي، ولوالديَّ، ولمن اطلع عليها، ولكل من أعان على إخراجها، وسهل أمورها، والله

لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

كتبه

عبدالرحمن بن محمد بن صالح الحمد

جامع بلال بن رباح ﵁

الزلفي ١٤٤٣/١١/٥هـ

التوحيد

فضل كلمة التوحيد وما ينقضها أو ينقصها

أيها المسلمون:

أخرج الإمامان البخاري ومسلم -رحمهما الله- من حديث عتبان ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله).

هذه الكلمةُ أعني كلمة التوحيد، شأنها عظيم، ونفعها عميم، ولكنّها لا تنفع قائلها بمجرد نطقه بها، بل لابد أن يكون عاملًا بمقتضاها؛ إن هذه الكلمة لها فضائل كثيرةً جدًا، فهذه الكلمة هي العروة الوثقى، كما قال الله -تعالى-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قال العلماء: هي لا إله إلا الله.

وهي: الحسنى التي ذكرها الله -تعالى- في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

وهي: القول الثابت قال الله -تعالى-: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وهي: سببٌ قوي مانع للخلود في النار، لمن استحق دخولها كما قال رسول الله ﷺ: (أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان) رواه البخاري.

إن أهل (لا إله إلا الله) وإن دخلوا النار بتقصيرهم في حقوقها فإنهم

لابد أن يخرجوا منها كما ورد في صحيحي البخاري ومسلم أن رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- قال: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرةٍ من خير).

وهذه الكلمة العظيمة هي: أول واجب على المكلف وآخر واجب قال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله) رواه البخاري ومسلم؛ وقال: (من كان آخر كلامه لا إله إلا وجبت له الجنة) رواه الإمام أحمد، وهي: أحسن الحسنات وأفضلها، قال أبو ذر رضي الله عنه: قلت يا رسول الله علّمني عملًا يقربني من الجنة ويباعدني من النار قال: (إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنها عشر أمثالها قال: قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال: هي أفضل الحسنات) رواه الإمام أحمد. وهي: أثقل شيء في الميزان ففي مسند الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: قال نوح عليه السلام لابنه عند موته: (آمرك بلا إله إلا الله فإن السمواتِ السبعَ والأرضين السبعَ لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله).

وهي: أفضل شعب الإيمان وأعلاها كما ورد في الحديث الصحيح: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله) رواه مسلم، وفي رواية للبخاري ومسلم: (أعلاها قول لا إله إلا الله)، وهذه الكلمة العظيمة هي: الرابطة بين المسلمين، فبالإيمان بها

ينتسب الإنسان إلى أشرف نسب، فيصبح إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أباه وزوجاتُ النبي ﷺ أمهاتهِ وباقي المؤمنين إخوةً له قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] ، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وهذه الكلمة هي: كلمة العدل التي قال الله -تعالى- فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، والإحسان: هو الإخلاص فيها، وهي: أفضل الدعاء يقول ﷺ: (أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير). وهي: أمان من وحشة القبر وهول القيامة يقول نبينا ﷺ: (ليس على أهل لا إله إلا الله، وحشةٌ في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله، قد قاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) رواه البيهقي، وهذه الكلمة:هي السبب الأعظم لتفريج الكربات ودفع العقوبة، ولهذا لما كان نبي الله يونس عليه السلام في بطن الحوت كان يقول هذه الكلمة قال الله -تعالى-: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ولقد استجاب الله -تعالى- له وفرج كربته.

أيها المؤمنون:

إن فضائل هذه الكلمةِ كثيرةٌ وعظيمة، يصعب حصرُها ويعسِر سردُها، وكم نحن بحاجة إلى فهم معنى هذه الكلمة، ومتى تكون نافعة ومفيدة؟ إن مجردَ التلفظ بها لو كان كافيًا لتلفظ بها مشركو مكة واستراحوا من حرب استمرت إحدى وعشرين سنة، ولكنهم يعلمون أن القصدَ العمل بها، وعدمُ الإتيان بما يضادها.

أيها المسلمون: إن مما ينافي كلمةَ التوحيد ويناقضها ويضادها: الشرك بالله -تعالى- فهو أعظم ذنبٍ عُصي به الله، فقد سُئل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك) رواه البخاري ومسلم.

نسألك اللهم الهداية والثبات عليها.

***

لا إله إلا اللّه فضلها، معناها، شروطها

أيها المسلمون:

عـن أبـي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال قلـت: يـا رسـول الله مـن أسـعدُ النـاسِ بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث: أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه) رواه البخاري.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحْل قال: يا معاذ بن جبل قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا. قال: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار قال: يا رسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذًا يتكلوا، وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا: أي خوفًا من الوقوع في الإثم بسبب كتمان العلم) رواه البخاري ومسلم، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: قال موسى ﷺ: (يارِبِّ علّمني شيئًا أذكرك به وأدعوك به؟ قال: قل لا إله إلا الله قال: إنما أريد شيئًا تخصني به؟ قال يا موسى لو أن السمواتِ السبعَ والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله) رواه النسائي.

أيها الناس: إن هذه الكلمة أعني كلمة الإخلاص " لا إله إلا الله " عنوان الإسلام وأساسه. ومعناها: لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى. وهي لا تعني مجرد النطق بها فحسب ! لأنها لا تنفع قائلها عند ربه إلا إذا قام بمقتضاها، ولقد أشار سلفنا الصالح إلى هذه المقتضيات: من ذلك ما قاله الحسن للفرزدق الشاعر وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العدة إن لـ: لا إله إلا الله شروطًا فإياك وقذف المحصنات. وقيل للحسن: إن ناسًا يقولون من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة. فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها، وفرضها دخل الجنة. وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك. ذكر هذه الأقوال الحافظ ابن رجب في كتابه تحقيق: (كلمة الإخلاص)، وقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ توضح أن الأعمال داخلةٌ في هذه الكلمة العظيمة ففي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن بشير بن الخصاصية قال أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترط علي شهادةَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتيَ الزكاة، وأحجَ حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله أما اثنين فوالله ما أطيقها: الجهاد والصدقة فقبض

رسول الله ﷺ يده ثم حركها، وقال: (فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذًا؟ قلت: أبايعك فبايعته عليهن كلِّهن)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة قال: (تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. فقال الرجل: والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا شيئًا، ولا أنقص منه. فقال النبي ﷺ: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)، ولقد قاتل أبوبكر الصديق رضي الله عنه الذين امتنعوا عن أداء الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ مع أنهم يقولون لا إله إلا الله ويصلون، فقد اعتبر دفع الزكاة من حق لا إله إلا الله مستدلاً على ذلك بقول النبي ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإذا فعلوا ذلك منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)، فقال أبو بكر رضي الله عنه: (الزكاة حق المال)، وقد تابعه الصحابة على ذلك الفهم واعتبروه صوابًا.

وقد وردت الأحاديث بألفاظ تدل على أن نفعها مبني على الإخلاص واليقين والصدق ففي الحديث: (من قال لا إله إلا الله صدقًا من قلبه دخل الجنة) أخرجه أبو يعلى، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة) رواه البخاري.

وإيضاح كلمة التوحيد: أن قول العبد لا إله إلا الله يقتضي: أن لا إله غيرُ الله والإله هو الذي يطاع فلا يعصى هيبةً له وإجلالًا، ومحبة وخوفًا ورجاءً وتوكلًا عليه وسؤالًا منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كلُّه لغير الله ﷻ ، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور كان ذلك قدحًا في إخلاصه، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الشرك والكفر على كثير من المعاصي التي تنشأ من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه أو العمل لأجله.

أيها المسلمون: ولقد جاءت النصوص في الترغيب في هذه الكلمة العظيمة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (جددوا إيمانكم قيل: يا رسول الله: وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا الله) رواه أحمد.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشةٌ في قبورهم، ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى أهل لا إله الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) رواه ابن أبي الدنيا، وفي رواية: (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشةٌ عند الموت ولا عند القبر) رواه الطبراني والبيهقي.

***

من أركان الإيمان: الإيمان بالرسل

أيها المسلمون: من أركان الإيمان وأصولِ الاعتقاد:

الإيمان بالرسل والأنبياء بلا تفريق، ولا تبعيض، إيمانًا يتضمن تصديقهم، وإجلالهم، وتعظيمهم، كما شرع الله - تعالى - في حقهم، ولقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يرسل في كلِّ أمة نذيرًا؛ ولم يرسل رسولاً للبشرية كلِّها إلا محمدًا ﷺ فقد أرسله الله للإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، قال الله - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، واقتضى عدل الله -سبحانه- ألا يعذب أحدًا من الخلق إلا بعد أن تقوم عليه الحجة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولذا كثر وجود الأنبياء، والرسل في تاريخ البشرية.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله، كم وفاءُ عُدّة الأنبياء؟ قال: مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيرًا).

إن هذا العدد الكبير من الرسل والأنبياء يدلنا على أن الذين نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليلون، ومن لم نعرف أسماءهم كثيرون قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

لقد هدى الله الخلائق بالأنبياء والمرسلين، فسعدت البشرية بهم، فهم سرج وشموس وشموع وكواكب، تنير الطريق، وتوضحه، إذ لا سبيل إلى السعادة والفلاح إلا على أيديهم، ولا ينال رضا الله إلا باتباعهم.

الأنبياء والرسل ركب متواصل بالهدى والنور، يبشر المتقدم منهم بالمتأخر، ويصدق المتأخر المتقدم، خلقهم الله على غاية من الكمال والجمال، واتصفوا بكمال شفقتهم على أممهم ولطفهم ورحمتهم.

اختارهم الله، واصطفاهم: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، كسبهم حلال، وهم بعيدون عن الحرام والشبهات، فكان داود لا يأكل إلا من عمل يده، وكان زكريا نجارًا، وما من نبي إلا ورعى الغنم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون: ٥١]، هم أبرُّ الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا وأقلّهم تكلفًا، وأوسعهم حلمًا، الطيّبُ من الأقوال والأعمال والاخلاق، هديهم برٌ بالوالدين قال - تعالى - عن يحيى: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [مريم: ١٤].

وصدقٌ في الوعد: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤]، وحلمٌ وأناة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥]، سخاءٌ وكرم، ولقد جاء إلى رسول الله ﷺ رجل، فأعطاه غنمًا بين جبلين... إلخ الحديث. رواه مسلم.

هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

عفةٌ ونزاهة، قال تعالى عن يوسف عليه السلام وامرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، حفظٌ للجميل، ووفاءٌ لمعروف الآخرين: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال نبينا - عليه الصلاة والسلام - في أسارى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم، كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له) رواه البخاري، صفحٌ عن المعتدين، وعفوٌ عن المسيئين: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ذكر ذلك ابن جرير رحمه الله في تاريخه. تواضعٌ جم، فقد كان أفضلهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يحلب شاته، ويخدم نفسه، ويخصف نعله، ووجد تمرة ملقاة على الأرض، فقال: (لولا أني أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها) رواه البخاري ومسلم، والصدقة: الزكاة فهي محرمة عليه صلى الله عليه وسلم.

سمى الله منهم في كتابه خمسة وعشرين، وأول نبي هو أبونا آدم عليه السلام، وأول نبي رسول هو نوح عليه السلام، وآخر نبي رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، والأسباط المذكورون في القرآن قيل: إنهم أولاد يعقوب عليه السلام، ولم يذكر منهم سوى يوسف وهم اثنا عشر ابنا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحًا وشعيبًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدًا صلى الله وسلم عليهم أجمعين. وإسرائيل: اسم يعقوب عليه السلام.

وقد يبعث الله نبيًا واحدًا أو رسولًا واحدًا في زمن، وقد يجمع الله

بعثة نبيين اثنين، أو نبي ورسول، أو أكثر من ذلك في زمن واحد.

فقد بعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام وبعث في زمنه ابن أخيه لوطًا عليه السلام وبعث الله يعقوب، وابنه يوسف في زمن واحد، وبعث الله موسى وأخاه هارون في زمن واحد.

وبعث الله داود وابنه سليمان في زمن واحد، وزكريا ويحي في زمن واحد. وأما شعيب الذي زوّج موسى عليه السلام ابنته فليس هو شعيبًا النبي عليه السلام

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣-١٤].

والرسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرسل أولو العزم الخمسة وهم:

محمد إبراهيم موسى كليمه   وعيسى فنوح هم أول العزم فاعلم

وأفضل الخمسة على الإطلاق، بل أفضل جميع الخلائق هو خاتم المرسلين نبينا ورسولنا وسيدنا محمد ﷺ، يقول - صلوات الله وسلامه عليه -: (أنا سيد ولد آدم) رواه مسلم.

أيها المسلمون:

الجنة لا تُنال إلا بالصبر: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: ٣٥]، وعند اشتداد المحن وتلاطم البلاء يتضح الإيمان، ويتميز الرجال، وقد لقي الأنبياء عليهم السلام من مخالفيهم الأهوال والتعذيب إلى درجة القتل، قال تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢].

الأنبياء عليهم السلام هم أشد الناس بلاء، وأعظمهم صبرًا، يقول رسول الله ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) رواه الترمذي، فلهم

القدِح المعلّى في الصبر على الأذى، واحتساب الأجر والثواب.

لقد شجَّ المشركون رأس النبي ﷺ في أحد، وكسروا أسنانه وألجأوه إلى حفرة من الحفر، وكان يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يقول: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) رواه البخاري.

وتوفي للنبي ﷺ في حياته ستة من أولاده وحزن قلبه، ورق فؤاده، ودمعت عينه فكان يقول: (إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب) رواه البخاري، ولم يبق من ذريته قبل وفاته سوى ابنته فاطمة رضي الله عنها، ووضع الخليل إبراهيم عليه السلام في كفَّة المنجنيق مقيدًا مكتوفًا، ثم أُلْقي في النار، فلم يزد على قوله: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، فجعل الله النار بردًا وسلامًا، ونزع عنها خاصية الحرق، وخُوّف رسول الله ﷺ بكثرة الأعداء واجتماعهم، فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، ففرق الله جَمْعَ الأعداء، وأبطل مكرهم، وخافوا، يقول ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) رواه البخاري، وابتلى الله نبيه أيوب بأنواع من البلاء وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وهو النبي الكريم فازداد حمدًا وصبرًا واحتسابًا، وتضرع إلى ربه وخالقه، فناداه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فكشف الله ضره، وأتاه أهله ومثلهم معهم، بعد مرض دام ثمانية عشر عامًا، وزكريا بعد ما وهن عظمه ورقّ جسمه وشاب شعره نادى ربّه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فاستجاب له ربه، ووهب له يحي وأصلح له زوجه.

أيها المسلمون:

كم يسعد الآباء بصلاح أبنائهم، بل إن ذلك هو قمة السعادة، فالأبناء النسب الباقي، وهم العمر الثاني للإنسان.

ومع ما لاقاه النبيون من أقوامهم من الشدائد والمشاق، فإن ذلك لم يشغلهم عن الاهتمام بأولادهم، قال الله - تعالى - عن نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥]، الصبر على العبادة وكثرتها دليل على صدق التوجه إلى الله تعالى، فقد كان رسول الله محمدٌ ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه). رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

وكان داوود عليه السلام يصوم يومًا ويفطر يومًا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أنبياء الله ورسله بشر مصطفون، لا يرفعون فوق منازلهم، يصيبهم مايصيب البشر، ويعتريهم ما يعتريهم، فقد نسي رسول الله ﷺ وهو في صلاته وقال: (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)، ولقد خاف إبراهيم من أضيافه حين امتنعوا عن أكل الطعام: (ونزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة) رواه البخاري.

والأنبياء بشر، يأكلون، ويشربون، ويجوعون، ويحزنون، ويبكون ويمرضون: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨١].

ولقد تفرد الأنبياء بأمور لا يشاركهم فيها غيرهم فمن ذلك: أولًا: الوحي. ثانيًا: العصمة. ثالثًا: أنهم تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا) رواه البخاري.

رابعًا: أنهم يخيرون عند موتهم بين الدنيا والآخرة.

يقول النبي ﷺ: (ما من نبي يمرض إلا خُيّر بين الدنيا والآخرة) رواه البخاري ومسلم.

خامسًا: لا يقبر نبيٌ إلا حيث يموت؛ ولهذا فإن الصحابة رضي الله عنهم: (دفنوا رسول الله ﷺ في حجرة عائشة رضي الله عنها حيث قبض).

سادسًا: لا تأكل الأرض أجسادهم، مهما طال الزمن وتقادم العهد، يقول النبي ﷺ: (إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء) رواه أبو داوود وغيره.

سابعًا: أنهم أحياء في قبورهم، يقول ﷺ: (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون) رواه البيهقي والبزار، وقال ﷺ: (مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره) رواه مسلم.

أيها المسلمون:

الأنبياء متفقون على وحدة الملة والدين، متفقون في الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وشرع الله لهم جميعًا العبادات من صلاة، وصيام، وزكاة، وصدقة، ولكن شرائعهم

تختلف في صورها ومقاديرها وأوقاتها وأنواعها.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، والشرعة: الشريعة. والمنهاج: الطريق الواضح الصحيح. ويقول ﷺ: (إنا معاشر الأنبياء إخوةٌ لعلاّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد) رواه البخاري ومسلم.

وقال تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١].

أيها المسلمون:

المسلمون بحمد الله تعالى، يؤمنون بجميع الأنبياء والمرسلين، وينزلونهم المكانة السامية، البعيدة عن الإفراط والتفريط، بل إن من عقيدة المسلمين أن من كذب نبيًا من الأنبياء، فقد كذبهم جميعًا، قال الله – تعالى –: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣]، مع أن الله لم يبعث إليهم سوى نبيه هود عليه السلام، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أن الله – سبحانه – لم يبعث إليهم سوى نبيه نوح عليه السلام وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، مع أن الله لم يبعث إليهم سوى نبيه لوط عليه السلام اللهم صل وسلم على جميع رسلك وأنبيائك صلاة وسلامًا دائمين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

***

من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر

أيها المسلمون

اتقوا الله، واعلموا أن الإيمان بالقضاء والقدر دعامة من دعامات دين الإسلام، فهو الركن السادس من أركان الإيمان، ضلّ فيه من ضل، ممن حرم الهداية ولم يوفق للتوحيد والإيمان قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنة) رواه مسلم، وقال الوليد بن الصحابيِّ الجليل عبادةَ بن الصامت - رضي عنه - دخلت على عبادةَ وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني فلما أجلسوه، قال: يا بنيَّ إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خيرُ القدر وما شرُّه؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال: (اكتب فجرى بتلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني: إن مت ولست على ذلك دخلت النار) رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: (إن الله خلق خلقًا فخلقهم بقدر، والبلاء والعافية بقدر).

أيها المسلمون:

إن من العقل والحكمة أن يأخذ المسلم بالأسباب التي تكون فيها سلامته وسعادته، فإن من تمام الإيمان بالقدر مباشرة الأسباب المشروعة. قال الله -تعالى-: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال -سبحانه-: ﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥]، وأمر الله -تعالى- بالدعاء والاستعانة بالصبر والصلاة فقال -تعالى-: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال -تعالى-: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال ﷺ: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عملَ الشيطان) رواه مسلم.

إنه لا يجوز للإنسان أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة أنه متوكل على الله، فإن ذلك جهل وتقصير.

أيها المسلمون:

كتب الله -جلَّ وعلا- عنده في اللوح المحفوظ مقاديرَ الآجال، والأرزاق، والأعمال، قال تعالى عن محاجة موسى عليه السلام مع فرعون: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥١ _٥٢]، وروى الإمام مسلم رحمه الله عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق، قبل أن

يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وكان عرشه على الماء).

وقد يستشكل البعض من المسلمين بعض النصوص التي يفهم منها أن هنالك محوًا وإثباتًا كقول الله -تعالى-: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]، وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: (من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره، فليصل رحمه) رواه البخاري ومسلم.

وإذا كانت الأرزاق والآجال والأعمار مكتوبة لا تزيد ولا تنقص فما التوجيه لمثل هذه النصوص؟ والجواب: أن القدر قدران: قدرٌ مثبت لا يتغير وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وهذا ثابت لا يتغير، وقدرٌ متغير وهو ما في كتب الملائكة، فالآجال والأرزاق وغيرها مثبتةٌ في اللوح المحفوظ لا تتغير، وأما في صحف الملائكة فيقع فيها المحو والإثبات والزيادة والنقص فإن الله ﷻ يأمر الملَك أن يكتب للإنسان أجلًا ويقول الله: إن وصل رحمه زدته كذا وكذا، والملَك لا يعلم أيزداد أم لا؟ لكنّ الله ﷻ يعلم ما يستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، بل يكون على ما كتبه الله عنده في اللوح المحفوظ. وهناك سؤال يتبادر لبعض الناس حيث يقول: هل الإنسان مسير أو مخير؟ والأصل أن لا يطلق هذا السؤال ولا يُوجه، فإن الإنسان مسير من جهة، ومخير من جهة أخرى، فهو مسير باعتبار أن جميع أفعاله داخلة في القدر، فلا تخرج عن قدرة الله ومشيئته، والإنسان مخير باعتبار أن له مشيئةً يختار بها وقدرةً

يفعل بها قال الله -تعالى-: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩-٢٨].

ومن المعلوم لدى كلِّ إنسان أنه مسيرٌ في بعض الأمور، لا خيار له فيها كالدورة الدموية مثلًا، وكهضم الطعام فلا شأن له في ذلك ولا خيار، وهو مخير في أفعاله كالأكل، والشرب، والطاعة، والمعصية، والسفر فلا إجبار ولا إلزام في هذه الأشياء. ولكن الإنسان نفسه يختار ما يشاء وقد منحه الله عقلًا يميز به بين النافع من الضار، وأوضح له الطريقين، ووعده الجنة إن سلك طريق الخير، وتوعده بالنار إن سلك طريق الشر.

أيها المسلمون:

هل يحتج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الواجبات؟ والجواب: لا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي أو ترك الواجبات؛ لأنه لو جاز ذلك لفعل كلُّ إنسان ما يخطر بباله من الجرائم واحتج بالقدر، وكان عدوُّ الله إبليس يحتج بالقدر على معصيته فلم يقبل منه الاحتجاج ولم ينفعه قال الله -تعالى- حكايةً عنه: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦]، فقد نسب الغواية -قاتله الله- إلى الله، والواجب أن ينسبها لنفسه، لأنه اختار بطوعه طريقها. إنه لا يجوز لأحد أن يترك طاعة الله ويقترف معصيته ويحتج بالقدر، فإذا قيل له لِمَ لا

تصل؟ قال: ما أراد الله لي ذلك، ومتى ما أراد الله فسوف أصلي. فهذا خطأ وضلال وانحراف، فلماذا لا يترك الطعام ويقول: متى ما أراد الله أن آكل أكلت.

نعم يجوز الاحتجاج بالقدر في المصائب، فإذا أصيب الإنسان بمصيبة كالفقر، أو المرض، أوفقد القريب، أوتلف المال، أوقتل الخطأ، ونحو ذلك، فهذا من تمام الرضا بالله ربًا فيعتقد أن الله هو الذي قدّر عليه ذلك وقضاه، فالاحتجاج بالقدر إنما يكون على المصائب لا على المعائب، فالمؤمن يستغفر من المصائب ويصبر على المصائب قال الله -تعالى-: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

ومن الأخطاء في القدر:

الإقدام على قتل النفس وهو الانتحار وذلك عند حدوث مشكلة بلانسان أو كارثة أو عدم توفيق قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء: ٢٩].

ومن الأخطاء: التسخط وعدم الرضا عندما يرزق الإنسان بالبنات، فبعض الناس يضيق ذرعًا إذا رزق ببنت، وهذا من موروث الجاهلية ويلزم منه: أنه اعتراض على قدر الله، وردٌ لهبته، وفيه إهانة للمرأة، وهذا دليل على السفاهة، وفيه تشبه بأخلاق أهل الجاهلية.

أيها المسلمون:

إن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل المؤمنين مطمئنين غير خائفين ولا

وجلين، إلا من الله ﷻ ، وأما القلق والتوتر والخوف من المجهول، فإن ذلك يكون لدى غير المؤمنين بالقدر.

والإيمان بالقدر يحرر عقل الإنسان، من الأوهام، والخرافات، وتصديق أهل الشعوذة والدجل والكهانة، يقول الشاعر:

فوالله ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهن إن كذبتموني متى الفتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع

أيها المسلمون:

إن الله ﷻ لا يقدر شيئًا إلا لحكمة، والحكمة قد يعرفها الإنسان ويعلمها وقد تخفى، وفق إرادة العزيز الحكيم، وإليكم هذه الأمثلة الموضحة: الاعتداء على السفينة بخرقها يعدُّ ظلمًا واعتداء حسب الظاهر، ولقد كان طريقًا للنجاة كما اتضح وهذا ما وقع للخضر مع نبي الله موسى -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف: ٧٩]، وهذا نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام - يتهم بالفاحشة ويسجن، ليكون ذلك السجنُ فيما بعد سبيلًا إلى جعله على خزائن الأرض، ويعيش نبي الله محمد ﷺ يتيم الأبوين توصد الأبواب دونه، ويرمى بالحجارة ويهان وهو بعد ذلك سيدُ ولد آدم.

أيها المسلمون:

إن المؤمن بالقدر آمن على رزقه من الفوت، فإن الأرزاق في ضمان الله، الذي لا يخلف وعده ولا يضيع عبده: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

والله قسّم بين الخلق رزقهم   لم يخلق الله مخلوقًا يضيّعه

يعيش المؤمن حياته آمنًا على رزقه، مطمئنًا إلى أن الله لن يهلكه جوعًا وهو الذي يطعم الطيرَ في عشها، والسباعَ في البراري، والأسماكَ في البحار، والديدانَ تحت الصخور.

إن المؤمن لا يجزع إذا افتقر، لأن الفقر قد يسمو بصاحبه، كما سما الفقر بالمصطفى ﷺ كما إن المؤمن لا يغتر بالثراء، فلقد أهلك قارون الثراء، يقول رسول الهدى ﷺ: (إن روح القدسِ نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنّ أحدكم استبطاءُ رزقه أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته) رواه أبو نعيم وابن حبان.

والمؤمن بالقدر -يا عباد الله- آمن على أجله، فإن الله قدر ميثاقًا مسمى أيامًا معدودة، وأنفاسًا محدودة، لا تملك قوةٌ أن تنقصَ من هذا الميقات، أو تزيدَ فيه قال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]. إن المؤمن متيقنٌ أن الله قد فرغ من

الآجال، والأعمار، وكتب على كل نفس متى تموت؟ وأين تموت؟ وبهذا ألقى عن نفسه همَّ التفكير في الموت، والخوف على الحياة. المؤمن على يقين أن الموت زائرٌ لابد من لقائه، وقادم لا ريب فيه، والخوفُ لا يرده، والجزع لا يثنيه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

المؤمن بالقدر يعلم أن الموت خطب قد عظم حتى هان، وخشن حتى لان، إنه بلية عمت وشملت خير الناس وأفضلهم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]. إن الذي يعتقد أن الأجل محدود، والرزق مكفول، وجميع الأشياء بيد الله سبحانه يصرّفها كيف يشاء، إنه لا يرهب الموت ولا يخشى الفاقة والفقر بسبب ما ينفقه من أمواله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣_١٧٤].

***

من وسائل تقوية الإيمان

أيها المسلمون: لقد ربى رسول الله ﷺ صحابته رضي الله عنهم تربية إيمانية صادقة وكان لهم مثلًا أعلى وقدوة حسنة: (فمن رآه هابه، ومن خالطه معرفة أحبه) انجذبت إليه النفوس، وانقادت إليه القلوب فهو القدوة في عبادته ومعاملته ودعوته وجميع شؤونه، يقول عروة بن مسعود يصف حال الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ بعد ما رجع من الحديبية وقد بعثته قريش مفاوضًا عنها فقال: (أي قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا والله ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له) أ. هـ.

لقد كان هؤلاء العظماء الجنود المخلصين الذين جادوا بكل ما يملكون من وقت وجهد ومال ونفس،كانوا رضي الله عنهم يهتمون بأعمال قلوبهم أعظم من اهتمامهم بأعمال أجسادهم وذلك كالتضرع والإنابة والخوف والرجاء والمحبة والاستغاثة والتوكل ومراقبة الله عز وجل وكانوا حريصين على زيادة إيمانهم. فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: (يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون

فيبكـون) وكـان الـرجلان مـن أصـحاب رسـول الله ﷺ إذا التقيـا قـرأ أحدهما سورة العصر على أخيه ثم يسلِّم أحدهما على الآخر، وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر ما أحببت البقاء في الدنيا). إن هناك وسائل كثيرة للتربيـة الإيمانيـة، وقـد ورد فـي الحـديث الـذي رواه الطبرانـي والحـاكم وصححه الألباني؛ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله -تعالى- أن يجدد الإيمـان فـي قلـوبكم). إن الوسـائل المعينـة علـى تثبيـت الإيمـان وزيادته كثيرة فمن ذلك.

أولًا: أن توظف الأقوال والكتابات والتوجيهات لتكون كلها مذكرة بالله تدعو لحياة القلوب، وتعين في السير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومن الملاحظ في كثير من الأحيـان أن الـدروس والمقـالات تكـون علميـة فحسب لا تؤثر في السلوك ولا تحيي القلوب ولا تحرك الإيمان فقد يؤخذ درس في الغيبة والسخرية مثلًا تسرد فيه النصوص الشرعية مع ذكر الأسباب والعلاج ثم يترك العمل بالموضوع ويقع السامع والقائل في المحظور الذي عالجه الدرس فلابد إذن من التطبيق العملي والتأثير السلوكي وربط القلوب بالله عَزَّ وَجَلَّ ومراقبته عند العمل وعند القول ومن الخطأ مثلًا أن يؤخذ درس فـي غـزوة بـدر ويوضـح فيـه مكانتهـا وعـدد المسلمين والمشركين

والنتيجة؛ دون معرفة وتعرض لأسرار انتصار المسلمين وهزيمة الكفار ودون ربط نتائج الغزوة في الوقت الحاضر لتحصل الفائدة.

ثانياً: الاهتمام والقيام بأمور الطاعة واغتنام ثوابها ومواسمها فإن بعض الناس يغفلون عنها ولا تلتفت قلوبهم إلى اغتنام الخيرات بمزاولتها بينما يوجد الاهتمام والحرص في السعي لأجل الدنيا أو من أجل إرضاء الخلق فلابد إذن أن نتذكر أننا بحاجة إلى حسنة واحدة وكذلك ينبغي أن نتذكر نعمة الحياة ونعمة الصحة حيث يتمنى المريض والمقعد والعاجز أشياء لا يقدرون على القيام بها بينما يقدر عليها المعافى ومع ذلك يتوانى وينسى ويغفل ويضيع على نفسه فرصًا كثيرة، كما ينبغي أن نتذكر اهتمام المبطلين وتضحيتهم بأوقاتهم للعمل على ترويج باطلهم فينبغي على العاقل أن يحرص على وقته وأن يقدم فيه أعمالًا صالحة يجدها أمامه أحوج ما يكون إليها: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤].

وإليكم بعضًا من العبادات التي لا تأخذ منا جهدًا ولا وقتًا ومع ذلك يقع الإهمال منا تجاهها إلا من رحم الله يقول النبي ﷺ: (لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) رواه مسلم، ويقول النبي ﷺ: (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة) راوه الترمذي. هذه عبادة تتعلق بالذكر، ويقول ﷺ: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في

سبيل الله). قال الراوي وأحسبه قال: (وكالقائم لا يفتر والصائم لا يفطر) رواه البخاري ومسلم، وهذه عبادة تدور حول الإحسان إلى المحتاجين وتذكرهم وتقديم النفع لهم. وفي عبادة زيارة المريض يقول - عليه الصلاة والسلام -: (من عاد مريضًا لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع) رواه مسلم، والمقصود بخرفة الجنة: جناها. ومن العبادة الذود عن عرض المسلم وتبرئته مما ينسب إليه كذبًا وزورًا وبهتانًا روى الإمام أحمد والطبراني أن رسول الله ﷺ قال: (من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقًا على الله أن يعتقه من النار)، وفي رواية صحيحة: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) رواه الترمذي. وفي رفع ما يؤذي الناس في الطرقات ورد ثواب ذلك في قول النبي ﷺ: (من رفع حجرًا عن الطريق كتب له حسنة ومن كانت له حسنة دخل الجنة) رواه الطبراني بإسناد حسن. ومع جزيل هذا الثواب لتلك العبادة اليسيرة فإن البعض مما يبني له بيتاً قد يضع الأذى بنفسه في الطريق من التراب والحجارة وما شاكلهما حتى ينتهي عمله وبإمكانه أن يخفف عن الناس مايؤذيهم، إنه يضع الأذى بدلًا من إزالته. وفي ثواب الصلاة مع الجماعة يقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله) رواه الإمام أحمد ومسلم. فليحذر المسلم أن يهمل الصلاة مع الجماعة وبخاصة صلاة الفجر وقد يأتيه الموت وهو نائم

ولم ينو القيام للصلاة مع الجماعة فالله المستعان.

ثالثاً: الابتعاد والحذر مما يقسي القلوب: إن الجادين في سيرهم إلى الله مشغولون بما يقربهم إليه -سبحانه- يحملون همّ الآخرة وهمّ الإسلام وهمّ إخوانهم هدفهم إرضاء ربهم ونفع إخوانهم لا مجال لديهم لكثرة النقد واللقاءات الفارغة والرحلات التي تقسّي القلوب وتغرس فيها البعد عن هموم المسلمين وجراحهم والبعد عن إخوانهم المحتاجين إلى النصح والإرشاد والتوجيه والتربية على الخير. لقد غاب عن الكثيرين حمل هم الإسلام فضعف الإيمان وثقلت العبادة وتطاولت الألسنة في القيل والقال والغيبة والتجريح وانطفأت شعلة الإيمان في كثير من القلوب أو كادت حيث أصبح الهم الوحيد عند البعض مجرد الاجتماع وأصبحت السلوى التنزهات دون محاسبة للنفس ودون عمل للإسلام، يقول الحسن البصري رحمه الله: (عجبًا لمن هو بين الجنة والنار وهو غافل لاهي) فانظر أيها المسلم الكريم في أيامك ماذا تودع فيها؟ وبأي شيء تقضيها؟ واقترب ممن يعينك على فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين واحذر الجلسات الفارغة التي لا تنفعك في سيرك إلى ربك بل تضرك لما فيها من الغيبة وغيرها مما حرم الله.

رابعاً: عبادة السر بين العبد وربه فإذا أخفاها عن الناس توجه إلى ربه بها محضرًا قلبه، لقد كان السلف الصالح -رحمهم الله-

يستحبون أن يكون للإنسان خبيئة بينه وبين الله لا يعلم بها أحد، وسئل بعضهم ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ فقال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق، وكان عبد الله بن المبارك يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله لكي لا يعرف، وقال عنه الإمام أحمد: ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له: أي: بعمل صالح خفي.

وقال الشافعي: وددت أن الخلق يتعلمون مني ولا ينسب إلي منه شيء؛ وقال أيوب السختياني: والله ما صدق عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه؛ وقال محمد بن واسع: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به.

خامساً: المبادرة إلى فعل الحسنات والحذر من السيئات: إن استثمار العمر وجني الفوائد منه لا يكون بالأماني وما ترتاح إليه النفوس يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

فقدم فدتك النفس نفسك إنها ... هي الثمن المبذول حين تسلم
فبالله ما عذر امرئ هو مؤمن ... بهذا ولا يسعى له ويقدم
ولكنما التوفيق بالله إنه ... يخص به من شاء فضلًا وينعم

وإن السيئة يا عباد الله ولو كانت ذنبًا واحدًا فإنها تنقص الإيمان وتمرض القلب وتجلب الغفلة والذنب؛ والذنب شؤم على العباد والبلاد فكيف بالذنوب إذا تراكمت وسهل اقترافها وتعارف الناس عليها

فأصبحت معروفًا واستحكمت الغفلة في القلوب ونسي وعيد الله وغضبه وأليم عقابه.أ. هـ.

أيها المسلمون:

لقد سمعتم بعضًا من وسائل تقوية الإيمان وأسباب زيادته والملاحظ أن الماديات أشغلت الكثيرين منا اليوم عن واجباتهم وصرفت اهتماماتهم، لقد أصبحت أوقات بعض الناس اليوم تذهب دون فائدة دينية أو دنيوية؛ قد يقول قائل: إن كثرين من الناس لم يشتغلوا بالتجارة ولم يلهثوا وراء الأموال؟ والجواب هذا صحيح ولكن الملاحظ أن الكثير من الناس أصبحوا مشغولين من غير شاغل ذي بال: والكل يشعر بذلك لقد توزع اهتمام الإنسان على مجالات عديدة، فالمنزل له حاجاته ومتطلباته، والمزرعة لها همومها وعمالها ووسائل سقيها وماشيتها وزرعها.. إلخ؛ والمؤسسة لها التفكير الذي يخصها، والأصدقاء والأصحاب لهم جلساتهم الطويلة، والرحلات والبراري والقفار لها أوقاتها، والوظيفة وما تطلبه من وقت وعمل وجهد، والأولاد من ذكور وإناث وعمل ودراستهم وحاجة المدارس ومطالعة الصحف والهاتف وما يحتاجه الإنسان من اتصالات حتى أصبح في البيت والمكتب بل وفي السيارة بل وفي المسجد وهكذا مراجعة الإنسان ومن يعول فيما يتعلق بالصحة والعلاج والسيارة وما تحتاجه؛ كما أن البعض من الناس أصبح مشغولًا بالمظاهر الجوفاء حيث يجعل اهتمامه مقصورًا على طعامه ولباسه ومسكنه ومركبه فهو يريد أن يشتري ما يشتري الناس ويأكل ما يأكله الأغنياء ويريد قصرًا كقصور الأغنياء وإن كان فقيرًا ويريد سيارة فارهة أو جديدة فيستدين لكل ذلك، ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه؛ إن هذه المظهرية

الجوفاء أضرت بمن يسعى وراءها وأشغلتهم وصرفت اهتمامهم إلى غير ذلك من أمور كثيرة أصبحت شاغلة للكثيرين وأصبحت تقتطع وقتاً من حياة الناس وإن كان الكثير منها مطلوبًا ولابد منه ولكن التوسط في الأمور مطلوب فلا يليق أن يطغى جانب على جانب.

والدليل على أن هذه الأشياء أسهمت في ضعف الإيمان إهمال أمور مطلوبة وواجبة فأين في حياة بعض الناس مجالس الإيمان؟ وأين في حياتهم حفظ اللسان والصلاة مع الجماعة؟ وأين في حياتهم بر الوالدين وصلة الأرحام؟ وأين في حياتهم الإحسان إلى الجيران؟ وأين في حياتهم زيارة المقابر وزيارات المسلمين في الله؟ وأين في حياتهم زيارة المرضى والمقعدين؟ وأين في حياتهم صحبة الأخيار؟ وأين في حياتهم الحرص على أكل الحلال؟ وأين في حياة بعض الناس التضحيات بالوقت والجهد والمال والنفس لله - تعالى-؟ فالله المستعان فحري بنا معشر الأحباب أن نحاسب أنفسنا وأن نسعى لزيادة إيماننا وأرصدتنا من الحسنات. أسأل الله أن يتقبل منا جميعًا إنه سميع قريب مجيب.

***

أكبر الكبائر

أيها المسلمون:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالها: ثلاثًا. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقولَ الزور، وشهادةَ الزور: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون:

اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وأطيعوه واحذروا ما نهى عنه فلا تقربوه، واعلموا أن المنهيات درجاتٌ مختلفة منها ما يعم ضررُه، وينتشرُ شرُه فيصيب الفرد والأسرة بل والمجتمع، وقد يزلزل كيانَ الأمة، ويوقع بينها العداوةَ والبغضاء وحينئذٍ يظهر الباطل، وتضيع الحقوق. والجريمة التي تحصل بسببها هذه الأمور تسمى في الشريعة كبيرة، وكلما كان ضررها أكبر كان إثمُها أعظم، وكانت عقوبتها أشد، وفي الحديث الصحيح المتقدم يعرض علينا رسول الهدى - صلوات الله وسلامه عليه - أنواعًا من الجرائم وقد عدّها من أكبر الكبائر التي ينال فاعلَها العقابُ الشديد، في حال موته قبل التوبة.

فمن هذه الجرائم: الإشراك بالله عَزَّ وَجَلَّ : وهو الجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر من غير توبة.

قال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾ [النساء: ٤٨]، وروى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: (من لقي الله لا يشركُ به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار).

أيها الإخوة المؤمنون:

لقد أعلن الإسلام الحرب على الشرك بكل ألوانه وأصنافه كبيره وصغيره ظاهره وخفيه، ورفع من قيمة الإنسان، وأعلن أنه المخلوق المكرّم المصوّر في أحسن صورة: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ﴾ [التين: ٤]، ﴿ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، فكيف يسجد الإنسان ويخضع لهذه المخلوقات؟ وهي مسخرةٌ له، وفي مصلحته وخدمته مذللة، ولكنه التقليد الأعمى للآباء: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ ﴾ [الزخرف:٢٢]، ولقد احتاط الإسلام كاملَ الاحتياط، حيث سدّ كلَّ طريق يوصل إلى الشرك ويؤدي في النهاية إلى الوقوع في أوحاله أو مشابهة أهله وتقليدهم.

فرسول الله ﷺ على جلالة قدره وعلو مكانته يمنع بشدة وصراحة

كلَّ مبالغة في تعظيمه، تظهره في غير مظهر العبودية لله، فيقول لأصحابه: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم وقولوا عبدالله ورسوله) رواه البخاري ومسلم، ومعنى لا تطروني: أي لا ترفعوني فوق منزلتي. وروى النسائي: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: (ما شاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله ندًا؟ قل ما شاء الله وحده)، وروى الطبراني أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق فقال - عليه الصلاة والسلام -: (إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله).

- والكبيرة الثانية: هي عقوق الوالدين ففي حديث رواه الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة حرّم الله تبارك و تعالى عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر الخبث في أهله)، وفي حديث رواه النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنّان عطاءه).

فليحرص كل مسلم على أن يبر والديه وليحذر عقوقهما، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

- الكبيرة الثالثة: قولُ الزور. وقد أكبرَ الرسول ﷺ خطره، وأعظم جرمه، حيث جلس له بعد اتكائه اهتمامًا بشأنه، وتهويلًا لجرمه،

وبدأ جملته بأداة تفيد تنبيه السامع وهي -ألا- وكرر كلمته لتفهمَ عنه، حتى شق على نفسه، وبدا الغضب على وجهه، وتمنى أصحابه لو سكت شفقةً عليه، ورحمةً به. قال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: (اهتمامه ﷺ بشهادة الزور؛ لأنها أسهلُ وقوعًا على الناس، والتهاونُ بها أكثر، ومفسدتها أيسرُ وقوعاً، لأن الشركَ ينبو عنه المسلم، والعقوقَ ينبو عنه الطبع، وأما قولُ الزور فإن الحواملَ عليه كثيرةٌ فحسن الاهتمام بها وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها)انتهى.

ولقد قرن الله عَزَّ وَجَلَّ قولَ الزور بالشرك بالله، حيث يقول الله -تعالى-: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقول الزور يشمل الكذبَ بجميع أنواعه، وشهادةَ الباطل على اختلاف صورها، والحكمَ الجائر، ورميَ الأبرياء بما هم منه براء، والقولَ على الله - جلّ جلاله - بغير علم فكلُّ ذلك داخل في قول الزور.

إن من الدناءة بمكان أن ينزل المسلم إلى تلك الهوة السحيقة من الكذب والافتراء، حينما يكون بينه وبين شخص آخر عداوةٌ فيعمد إلى إشاعة الكذب، وإلصاق التهم واختلاقِ كلِّ ما يشين ليحطمَ سمعتَه، ويشوهَ سيرتَه، ويثلمَ كرامتَه، إن من يهبط إلى ذلك المستوى الرخيص لا شك أنه عديمُ المرؤة، قال الله -تعالى- متوعدًا بالعذاب الشديد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا

وَٱلْأٓخِرَةِۚ ﴾ [النور: ١٩].

الافتراء على الأبرياء يشوّه وجه الحق، ويستحق صاحبه العقوبة، يقول ﷺ: (من ذكر امرأً بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم، حتى يأتي بنفاذ ما قال فيه) رواه الطبراني، أي: حتى يثبت عند الله صحة قوله بأخيه، وما دام أن ما قاله كذبٌ وافتراءٌ فكيف يستطيع أن يثبته.

أيها المسلمون: إن شهادة الزور هي الشهادة الكاذبة، كأن يشهد الإنسان بما ليس له به علم، أو بشيء غيرِ صحيح لكي ينفع المشهودَ له مصلحة خاصة به. والشهادة يجب أن تكون عن علم بالمشهود به قال الله -تعالى-: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، أي: يعلمون بقلوبهم ما تشهد به ألسنتهم. إن شاهد الزور قد ظلم نفسه، وظلم الناس من أجل الناس، وأوقع الحاكم في الخطأ، وأعان المشهودَ له على المعصية، وكم خربت شهادة الزور من بيوت عامرة؟ ! وكم ضيعت من حقوق وفرقت بين المرء وزوجه وجرأت المفسدين على الفساد؟ نسأل الله السلامة والعافية.

***

السحر وشؤمه

الحمد لله على فضله ونعمه، والشكر له على عطائه وكرمه، له الفضل ومنه الفضل، وهو العزيز الحميد، لا ينسى من ذكره، ولا يخيّب من رجاه، ولا يرد من دعاه، خيره إلينا نازل وفقرنا إليه دائم:

يا رب أنت المستعان وإننا   لعظيم جودك دائماً فقراء

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن استن بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

كم هي المسافة طويلة بين الأمس واليوم! إن تغييرات تلاحقت، وفتنًا تكاثرت، وأمورًا تعقدت، لم تكن تخطر ببال، ولا تدور في خيال قال الله - تعالى -: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]، لقد أرخص بعض الناس دينَه فباعه بثمن بخس على السحرة والمشعوذين، فآمن بالخرافة، ورضي بالمهانة، ومما يؤسف له أن أسواق السحر قد راجت في هذا الزمان، ولاقت قبولًا في كثير من البلدان، فَتَنَ السحرةُ قلوبَ البسطاء من الناس، وخدعوا ضعاف الإيمان.

السحر منزلق خطير على مستوى العالم، لم يجن البشر من ورائه سوى الحنظل والعلقم فأي خير يرتجى من الشياطين؟! وأي نفع يرتجى من أعداء النبيين؟!

لقد رضي بعض الناس لنفسه أن يكون الإيذاء هدفه، والإضرار

بخلق الله أمنيته، والتفريق بين الناس شعاره، وذلك بالمكر والخبث والكيد، قلوب هذا الصنف تأكلها النار، و أكبادهم ينخرها الحقد، ونفوسهم تشتغل بالحسد، فلجؤوا إلى السحرة كي يعملوا عملهم من شرك وخرافة، وأطاعوا الشيطان، وعصوا الرحمن، وتوهموا أن معصيتهم سهلة، وعملهم يسير: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥]، لقد أطاع السحرة الشيطان فخبثت نفوسهم، وأظلمت قلوبهم، وتدنست أخلاقهم، يغرسون الشر حيثما حلوا، ويسعون بالفرقة أينما نزلوا، فعاقبهم الله ﷻ عقوبات عظيمة بالرغم من تضحياتهم للشيطان، وما يبذلونه من جهد ومشقة فجعل جزاءهم الحسرة والندامة، وعدمَ الفلاح قال تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وبالرغم من قيامهم بأعمال شريرة إلا أن قدراتهم محدودة، مهما ادّعوا، وتجبروا، وظلموا، وبهرجوا، فالواحد من السحرة لا يستطيع أن يوقف الشمس، ولا أن يسقط نجمًا من النجوم؛ بل إن السحرة يلجئون إلى معبود هزيل ضعيف، لا يستطيع أن يفتح بابًا مغلقًا، ولا أن يكشف إناءً مغطى، ولا أن يحل قربة أوكيت.

إنهم يتكئون على من يهرب من الأذان، ويبتعد عن مجالس الذكر، كيده ضعيف، وجهده ضائع: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، قد يبذل الساحر جهودًا للإضرار بالناس، ولكن سحره وخبثه وكفره، قد لا يؤثر بالمسحور فليس كل سحر مؤثر، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، لايتم السحر للساحر إلا إذا كفر

بالله العظيم، يقول - عليه الصلاة والسلام -: (ومن سحر فقد أشرك) رواه النسائي.

قال العلماء: هذا نص في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك.

والساحر مغرم بالمال متيم به، فالسحرة عبّاد للمال، ومهما جمعوا من الأموال فإنها ممحوقة البركة مشؤومة، فمع حصولهم على الأموال الطائلة إلا أن الله ﷻ أوقع الفشل في أموالهم، ومحق البركة منها فثيابهم متسخة، وبيوتهم خربة، تأوي إليها الشياطين، وبها تفرخ ومنها تنطلق للفساد والإفساد.

سحرة فرعون لما طلبهم الطاغية فرعون أن يواجهوا نبيَّ الله موسى عليه السلام طلبوا من فرعون الأموال، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

الساحر طبيعته المكر والخداع والكيد، فهو يمكر بالآخرين، يدعوهم إلى الشرك، ويأمرهم بالذبح لغير الله، أو بتعليق التمائم التي تحمل الطلاسم، زعمًا أنها تجلب النفع، وتدفع الضر، ويغريهم بالإساءة إلى المصحف، وتدنيسه بفضلات الإنسان وبدم الحيض، وغير ذلك من النجاسات، يوهم الساحر من يأتي إليه، أو يسأله بأنه يعرف ما فيه من مرض وما يعانيه من مشكلة؛ ليتعلق قلبه به، وقد يخادع من يأتيه بإحاطة طلاسمه المشؤومة بآيات من كتاب الله ﷻ خداعًا وتوهيمًا.

قاتل الله السحرة، وأراح الله المسلمين من شرهم، فشرُّهم خطير، وفسادهم مستطير: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

كم من الأضرار الخطيرة، والمتنوعة ألحقها السحرة بالناس؟!

وكم أوقعوا غيرهم بالشرك الأكبر؟!

وكم شتتوا بيوتًا سعيدة، وفرقوا بين زوجين متآلفين؟! فذاق الأبناء مرارة الحرمان، وتعرضوا بسبب فرقة أبويهم إلى الانحراف.

جلب السحرة للناس الهموم والكروب والغموم، فكم من إنسان معافى تسبب الساحر في مرضه؟! وكم من فقير تحمل ديونًا ثقيلة طلبًا للعافية؟!

ونظرًا لخطورتهم على المجتمع، فقد حكم الشرع بقطع رقابهم، فهم جديرون أن يُقضى عليهم ليستريح الناس من شرهم.

كتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عماله: (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

لقد فشا السحر في العصر الحاضر، وكان للفضائيات دور في بثه وتعلق الناس به، فالمجتمعات أمام أخطار محدقة، وفتن مطبقة، فلا بد من غرس الإيمان بالنفوس، ولا بد من أخذ الحيطة والحذر من شياطين الإنس والجن، فكم للسحرة من الضحايا! وكم لهم ممن أصيب بالبلايا والرزايا، والأمراض العضوية والنفسية وتسليط الشياطين؟! وعند الرقاة الخبر اليقين.

أيها المسلمون:

ومما ينبغي التنبه له أن قنوات فضائية تعلّم السحر والشعوذة، ويزعم أصحابها أنهم يستطيعون معالجة الأمراض فيبتزون أموال الناس، ويوقعونهم في الانحراف، والسحر علم يقوم على الكذب والدجل، جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا) رواه مسلم، وفي الحديث الذي رواه أصحاب السنن: (من أتى كاهنًا أو عرافًا فسأله عن شيء فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد) رواه الحاكم وصححه. فليحذر المسلم أن يشاهد هذه القنوات فمشاهدتها ولو لمجرد الفرجة خطيرة.

أيها المسلمون:

الإيمان بالله عز وجل حصن حصين، والذكر عدة قوية، والاستعانة بالله سلاح فتاك، فالمؤمنون الذاكرون الله عز وجل، والمستعيذون به من شياطين الإنس والجن في حماية الله عز وجل وحفظه، فإذا أهمل الإنسان أو فرط، أو تساهل، فإن اللوم يُوجه إليه؛ لأنه إذا غفل صار عرضةً للشياطين فهم لا يستطيعون إلا على الغافلين الساهين اللاهين، وأما الذاكرون الله فهم ناجون من الشر، ومن وسوسة الشياطين - بإذن الله تعالى-.

ومن أهم الأذكار التي ينبغي أن يحافظ عليها المسلم: أذكار الصباح والمساء، وأذكار ما قبل النوم بما في ذلك قراءة سورة الإخلاص، والمعوذتين، وآية الكرسي.

وإن مما يحفظ الإنسان ويحميه من السحر بإذن الله، إخلاص العمل لله عز وجل، وكلما كان الإنسان أكثر إخلاصًا في عمله، كلما كان محفوظًا

من الشياطين أكثر فقد أقر قائدهم إلى النار أن الإخلاص هو طريق الخلاص منهم، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، والمخلص: الذي يبتغي بعمله وجه الله والدار الآخرة، ولا ينتظر من الناس أن يحمدوه، أو يثنوا عليه، أو يمتدحوه.

ومما يحفظ الإنسان - بإذن الله - لزوم الجماعة، - ومن ذلك صلاة الجماعة - فهي من أسباب حفظ الله للإنسان من الشيطان يقول الرسول ﷺ: (من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد) رواه الترمذي. وبحبوحة الجنة: وسطها.

وفي شأن صلاة الجماعة يقول نبينا ﷺ: (ما من ثلاثة في قرية، ولا بدو، لا تقام فيهم الجماعة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) رواه أبو داود بإسناد حسن.

ومن سبل الوقاية من السحر: أكل سبع تمرات في الصباح، يقول الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويرجى أن يعم ذلك جميع أنواع التمر) (يعني ولا يخص العجوة).

ومن أعظم وسائل الحفظ والحماية والتحصين الذي يقي بإذن الله من الشيطان: الصدقة على الفقراء والمحتاجين، فبذل الصدقات يدفع - بتوفيق الله -، الكثير من الشرور أو يخففها، يقول الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-: (باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها) رواه البيهقي،

وكلما خفيت الصدقة كان أجرها أعظم، وكانت أبعد عن الرياء والسمعة.

ومن وسائل الحفظ وأسبابه:

البعد عن الظلم، فالظلم مرتعه وخيم، وقد حرمه الله على العباد، ولا يلزم أن يكون الظلم قتلًا أو نحوه فهو أصناف وأنواع، وإن من الظلم: ظلم العمالة المنزلية كالخادمات وذلك بالضرب أو الإهانة أو بالتكليف بما لا يطاق، أو بتأخير الراتب، أو نقصه إلى غير ذلك. وقد تنتقم هذه الخادمة المظلومة ممن ظلمها بالسحر، فإنه في بعض البيئات الخارجية يعتبر أمرًا عاديًا له مدارسه وأماكن تعلمه، ويراه الناس سهلًا لا يوصف من يتعاطاه بأنه عاصٍ، أو مخالف للشرع.

أيها المسلمون: الظلم محرم بحد ذاته، وهذا كاف في الابتعاد عنه والحذر منه، فكيف إذا كان يُخشى من المظلوم أن ينتقم، وذلك بأن يعمل سحرًا أو نحوه وهذا ظاهر لا يخفى.

أيها المسلمون: المصاب بالسحر غالبًا ما يكون مظلومًا، وقد يكون الابتلاء الذي يصاب به الإنسان رفعة له، وتكفيرًا لخطاياه.

يقول الرسول ﷺ: (**من يرد الله به خيرًا يصب منه**) رواه البخاري.

فعلى من ابتلي بمرض بسبب سحر أو نحوه، أن يصبر ولا يجزع: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وليُكثِر من دعاء ربه، واللجوء إليه فهو الشافي الكافي المعافي، ويردد بكثرة دعوة يونس عليه السلام: ﴿**لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ**

ﭐلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

يقول الرسول ﷺ: (لم يدع بها مسلم قط إلا استجاب الله له) رواه الترمذي .

ويقول ابن القيم: (وقد جُرب أن من قالها سبع مرات كشف الله ضرّه).

إن اللجوء إلى الله، وكثرة استغفاره، ودعائه، سبب لحصول الفرج؛ ففرج الله تعالى قريب، واليأس والقنوط من رحمة الله محرم، وأما العبد الذي تسوّل له نفسه بأن يضر أحدًا من الناس، فليحذر ما يفسد عليه دينه، وليتب إلى ربه، وليعلم أن حياته قصيرة، وقد يفارق الحياة قبل أن يفارقها الشخص الذي يريد هو الإضرار به، وليحرص المسلم على نفع أخيه، فإن لم ينفعه فلا يضره. اللهم تقبل منا، واستجب دعاءنا، واعتق رقابنا من النار.

***

التشاؤم من بقايا الجاهلية

أيها المسلمون:

كان الناس قبل بعثة نبيّنا محمد ﷺ في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وكانت لهم عادات ممقوتة، وسلوكيات خاطئة، ليس التطير سوى واحد من سلوكيات الجاهلية الخاطئة.

والتطير:

التشاؤم واشتقاقه من الطير، فقد كان أهل الجاهلية يتشاءمون من بعض الطيور، كالغراب والبوم.

وقد يرجع أحدهم من سفره بسبب رؤيته للطير الذي يتشاءم منه، إذا طار من جهة شمال المسافر فيتوقع شرًا وسوءاً وذلك جهل وسذاجة، وليس التطير مقصورًا على أهل الجاهلية، فالمنحرفون من قبلهم يقعون فيه، فقد تطير فرعون وقومه بموسى -عليه السلام- ومن معه قال الله -تعالى-: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف:١٣١]، وتطيرت ثمود بنبي الله صالح عليه السلام قال الله -تعالى-: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، ومن الإنصاف أن يعلم أن بعض عقلاء الجاهلية كانوا يرفضون التطير حتى قال قائلهم:

الزجرُ والطيرُ والكهانُ كلهُّم ... مضللون ودون الغيب أقفال

أيها المسلمون:

التطير باب من أبواب الضلال، وطريق موصل إلى الشرك. يقول النبي ﷺ: (الطيرة شرك، الطيرة شرك) رواه أبو داود والترمذي وصححه.

ويقول ﷺ: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) صححه الألباني.

إن المتطير ربما يندم مما تطير منه ويعدل استحياء؛ ذكر ابن القيم في كتابه: مفتاح دار السعادة:

أن أحد الولاة خرج في بعض الأيام، لمهمة من مهامه فاستقبله رجلٌ كرهه، فتطير به وأمر الوالي بسجنه، فلما رجع من مهمته ولم ير شرًا، أمر بإطلاق سراحه، فسأله الرجل عن جرمه وذنبه الذي سجنه من أجله؛ فأجابه: لم يكن لك عندنا جرم ولا ذنب، ولكن تطيرتُ بك، فقال له الرجل: ما أصبتَ في يومك برؤيتي؟ فقال لم ألق إلا خيرًا فقال الرجل: أنا خرجت من منزلي فرأيتك، فلقيت الحبس والبعد عن أهلي والإهانة، وأنت رأيتني فلقيت الخير فمن أشأمنا؟ فاستحيا منه الوالي وأمر له بجائزة.

أيها الناس:

ربما تساءل البعض بماذا يقع التطير قديمًا وحديثًا؟ والجواب التطير يقع: بالطيور كما سبقت الإشارة إليه، وفي الحديث قال النبي ﷺ: (لا

عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر) رواه البخاري ومسلم.

والهامة: البوم، ومعنى الحديث: لا شؤم بالبوم ونحوه.

ويقع التطير: بالشهور: كشهر صفر وكان التشاؤم به عادة جاهلية، وقد استمرت إلى يومنا هذا عند بعض المبتدعة.

ويقع التطير: بالأعداد كمن يكره لفظ العشرة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يبغض العشرة المشهود لهم بالجنة وهم خيار الصحابة)، وكذلك الرقم ثلاثة عشر يتشاءم الغربيون منه بسبب سقوط مركبة فضائية تحمل رقم ١٣ أو بسبب شخص أساء إلى نبي الله عيسى في زعمهم، فقد تحذف بعض شركات الخطوط رقم ١٣ من ترقيم المقاعد، ويحذفه بعضهم من عدد أدوار العمارات.

ويقع التطير بالاستقسام بالأزلام، ومنه ما يسمى بقراءة الفنجان ونحوها.

ويقع في المركب، والمسكن، والمرأة، وربما تعلق بعضهم بحديث: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس) رواه البخاري ومسلم.

ومعناه: ليس إثبات الشؤم، وإنما غايته أن الله قد يخلق أعيانًا مشؤومة على من قاربها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها شرًا، والله - سبحانه - قد خلق الخير والشر، فكل شيء بقضاء الله وقدره.

وهنالك أسباب تدفع التطير ومنها:

التوكل على الله: وهو شرط في الإيمان والإسلام قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، والتوكل على الله: باب واسع ومنه الثقة بما عنده، والرضا بما قسمه، والاعتماد عليه في تفريج الكرب، ومن توكل على الله كفاه.

ومن أسباب دفع التطير: العلم بأن كل شيء يسير بقدر الله قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

ومن التعقل أن لا يشتد فرح الإنسان بما أعطاه الله، فقد يكون فيه هلاكه، ولا يحزن على ما فاته فقد يكون فيه نجاته.

ومن أسباب دفع التطير: الدعاء فهو عبادة مشروعة، ولا يرد القدر إلا الدعاء، والدعاء مع مكانته وأهميته، إلا أننا نغفل عنه كثيرًا، والشيطان حريص جداً على أن يعرض المسلمُ عن دعاء ربه واللجوء إليه، وكلٌ أبصر بنفسه وأعرف؛ وما تسلطت الشياطين على الناس، وآذتهم في أنفسهم، وأولادهم، إلا بسبب إهمال الدعاء والتعوذ بالله والذكر.

فاحرصوا - رحمكم الله - على الدعاء لأنفسكم، وأهليكم، وأولادكم، فقد أمركم الله به، ووعدكم بالاستجابة قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. ومن أسباب دفع التطير: الانتقال من المكان الذي يُظنُّ أنه مشؤوم، وذلك لإبطال الوهم بالشؤم،

فيكون الانتقال سببًا للبعد عن التشاؤم، الذي سوف يلازم الإنسان مادام في ذلك المكان، وكذلك بالنسبة للمركب.

المسلم يبتعد عن التشاؤم لإيمانه بقضاء الله وقدره، واعتقاده بأن المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله، وكذلك يبتعد المسلم عن التشاؤم، لمعرفته أن التشاؤم نوع من الشرك والسحر.يقول الرسول ﷺ: (العيافةُ والطّرق والطيرةُ من الجبت) يعني: السحر، رواه الإمام أحمد وأبو داود.

التشاؤم، مادةٌ مهمة من مقررات مدرسة عدو الله الشيطان، وقد حذرنا الله ﷻ من طاعة الشيطان تحذيرًا بليغًا قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فيا أيها المسلم الكريم:

إذا وسوس الشيطان لك بالسوء، وأوحت إليك نفسك الأمارة بأنك سوف تفتقر غدًا، أو أنك سوف ترسب في دراستك، أو سوف تفشل في مشروعك التجاري، أو سوف تصاب في المستقبل بمصيبة، أو سوف تقع في كارثة، فذلك إرجاف وتخويف من الشيطان.

إن من المشاكل لدى البعض:

أن الإنسان إذا خلا بنفسه حدثته نفسه عن الآلام، والمصائب، والأوجاع، والنكبات، التي قد يشعر بها، ولكنها لا تحدثه عما عنده من

النعم، وما حققه من النجاح، وما أحرزه من التفوق؛ تحدثه نفسه عن جانب مظلم وأمور سلبية.

وأما الجوانب المشرقة والمضيئة والإيجابيات، فلا تطرؤ على باله، ولا تسترعي انتباهه.

إن ذلك غير لائق بالعقلاء، يفكر الكثيرون في الشيء المفقود، ولكنهم لا يفكرون بشكر - الله عز وجل - على الموجود.

***

استشعار عظمة الله عند بعض المخلوقات

أيها المسلمون:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إليكم أمثلة توضح ما عليه بعض مخلوقات الله -تعالى- من استشعار عظمة الله وتوحيده حيث ألهمها الله تعالى ذلك من غير عقل، ولا إدراك، ولا فهم.

فالهدهد أنكر ما كانت عليه مملكة سبأ من عبادة غير الله، ودعا إلى التوحيد، وعبادة الله وحده، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٥-٢٦].

وروى الإمام الترمذي في جامعه أن النبي ﷺ قال: (إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض، حتى النملةَ في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير).

والنملة مع صغر حجمها، واحتقار الناس لها يقول عنها رسول الله ﷺ: (قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبّح الله) رواه البخاري.

ومن مخلوقات الله ﷻ العجيبة الديكة، فهي تعين على الاستيقاظ من النوم، وتدعو إلى الفلاح، وتكون سببًا في حصول المسلم على الأجر، وترى الملائكة؛ ولذا نهى الشرع عن سبها، يقول الرسول ﷺ: (لا تسبوا الديك، فإنه يدعو إلى الفلاح) رواه الإمام أحمد، وأبو داود.

والدواب جميعًا تخاف من يوم القيامة، وتخشى من قيام الساعة لما فيها من الأهوال، يقول رسول الله ﷺ: (ما من دابة إلا وهي مصغية يوم الجمعة خشية أن تقوم الساعة) رواه الإمام أحمد.

وأخبر - صلوات الله وسلامه عليه - أن الفَرَس يدعو ربه، فقد روى الإمام أحمد رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوة، يقول: اللهم إنك خوّلتني من بني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه؛ فيقول ﷺ: إن هذا الفرس قد استجيب له دعوته).

والشجر يسجد لله تعالى، ويلبي مع الحجاج الملبين، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٦].

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه -: (ما من ملبٍّ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا) رواه ابن ماجه.

وبعض الجمادات تغار على دين الله، وتتأذى من معاصي بني آدم، فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ مُرّ عليه بجنازة فقال: (مستريح ومستراح منه) فقالوا: يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: (إن العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا، وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب).

ومن الجمادات من ينطقه الله تعالى، لنصرة دينه وإعانة المسلمين، يقول ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهودَ فيقتلهم المسلمون حتى يختبئَ اليهوديُ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهوديٌ تعال فاقتله) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

إذا عرفنا أنّ الله ﷻ خلق الإنسان لعبادته سبحانه، وأن الحيوانات والطير والحشرات والنباتات والجماد، كل هذه المخلوقات تسبح الله ﷻ، وتود أن الناس يتقون الله ﷻ ويبتعدون عما حرم، لئلا تحل بهم المصائب والعقوبات.

فالعقلاء من البشر هم الذين يعملون ولا يفرطون، يعملون لدينهم ودنياهم، فلا هم يهملون أمور الدنيا، ولا هم يفرطون بأمور الآخرة، يقول النبي ﷺ: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) رواه الترمذي، وروى الترمذي أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: (أعمار أمتي ما

بين ستين إلى سبعين، وأقلهم من يتجاوز ذلك).

فالحياة فرص، ودروب الخير مضمار معد للإنسان، فمن الناس من يسبق، ويتقدم، ويفوز، ومنهم من يفرط، ويهمل، ويكسل.

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: (من قال سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة)، وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (أيعجز أحدكم أن يكسب كلّ يوم ألف حسنة؟) فسأله سائل من جلسائه: (كيف يكسب أحدُنا ألف حسنة؟) قال ﷺ: (يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يُحط عنه ألف خطيئة).

هذا أيها المسلم الكريم، في مجال الذكر، فكيف بمن حَسّن خلقه، ويسّر تعامله، فكفّ أذاه عن إخوانه، وصدق في حديثه وهشَّ، وابتسم في وجوه من يقابله، إن ظُلِم صبر، وإن أخطأ اعتذر، يحلم إذا غضب عليه، ويعذر إذا أُسيء إليه، فهذا وأمثاله له من الأجور ما لا يحصيها إلا الله، يقول رسول الله ﷺ: (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء) رواه الترمذي.

وفي الحديث الآخر: يقول رسول الله ﷺ: (إن المسلم ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) رواه أبو داود.

وإنك لتعجب من بعض البشر ! كيف يفرطون بهذه الأجور العظيمة؟، حيث يقع منهم الحسد لإخوانهم، والغرور بأنفسهم، كما يقع

منهم الظلم، واحتقار الناس، والسعي بالإفساد بينهم.

نسأل الله السلامة واللهم لا شماتة.

أيها المسلمون:

إن من أعظم الاغترار، التمادي في الذنوب، مع رجاء العفو من غير توبة ولا ندم، وتوقع القرب من الله بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، ومن الاغترار الاعتماد على رحمة الله، وعفوه من دون عمل، ومن الاغترار أن يسيء الإنسان، فيرى إحسانًا فيظن أنه قد سومح، وربما رأى من يعصي سلامة بدنه وأهله وماله، فيظن أن لا عقوبة عليه، وما علم أن غفلته عما عوقب به عقوبة، والمعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والعقوبات قد تبغت، وقد يؤخرها الحلم، ومحقّرات الذنوب إذا اجتمعت على الإنسان أهلكته، يقول الرسول ﷺ: (مثل محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما أنضجوا به خبزهم) رواه الإمام أحمد.

لقد لعن إبليس، وطرد من الجنة بسبب امتناعه عن سجدة، وأخرج آدم من الجنة بسبب أكلة، ودخلت امرأة النار بسبب حبسها هرة، وخسف برجل بسبب إسباله لإزاره خيلاء.

أيها المسلمون:

من عرف شرف الوجود، سعى لتحصيل أفضل الموجود، والعمر مواسم، والعاقل لا يطلب إلا الأنفَس والأغلى، ومن أراد دوام السلامة

فليراقب الله تعالى.

ومتى رأيت تكديرًا في حال فاذكر نعمة لم تُشكر، أو زلة لم تكترث بها، ولتكن نيتُك في الخير قائمة، واعلم أن شهوات الدنيا، مصائد هلاك، وأن الدنيا صحراء شاسعة يجب أن يكون السابق فيها الدين.

ومن أصلح سريرته فاحت رائحة فضله، وابتهجت القلوب بنشر طيبه، والدنيا دول، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفعه قوتك. واعلم أن كل يوم تحيا فيه، فهو غنيمة لك، يقول رسول الله ﷺ: (وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا) رواه مسلم. نسأل الله حسن الختام.

***

التفكير في عظيم قدرة الله - تعالى -

أيها المسلمون:

يقــــول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النـور: ٤١]، ويقـول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء: ٤٤].

خلق الله ﷻ جميع مخلوقاته خاضعة له سبحانه فهي تُسبّح الله وتسجد له [يعني: تنزهه عما لا يليق به]، ومن ضمن مخلوقات الله البشر، إلا أن من الناس من عرف فسجد لله ﷻ طوعًا واختيارًا، ومنهم من جهل وعاند فسجد كُرهًا، فهو منقاد بباطنه وإن عصى ظاهره، وهو ساجد بفطرته وإن امتنع عن السجود برأيه قال الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾ [الرعـد: ١٠]، فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختيارًا كالمؤمنين، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، وكذلك سائر المخلوقات، فإنها تسجد لله -تعالى- أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسبه، يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة، لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق،

ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة؛ ألا ينظرون إلى صغير ما خلق، كيف أحكم خلقه؟ وأتقن تركيبه وخلق له السمع والبصر وسوى له العظم والبشر).

أيها المسلمون:

استمعوا إلى التسبيح بحمد الله ﷻ في دورات الأفلاك، وسير الكواكب، وحركات النجوم، وفي هبوب الريح، وتكوين السحاب، وهطول الأمطار، وجريان الأنهار، وأمواج المحيطات، والبحار واهتزاز النبات، وحفيف الشجر، وفي كل صوت وحركة من دابة في الأرض، أو طائر في الفضاء، أو حيوان في الماء، أو ملك في السماء.

لقد أرانا الله ﷻ من عجائب آياته وعظيم مخلوقاته ما يكون آية للمؤمنين، وعبرة للمعتبرين، وموعظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، مما يرسّخ ويقوّي في نفس المسلم الاعتماد على قوة الله تعالى وحده، وأنه تعالى وتقدس شاهد يسمع ويرى، بل هو أقرب إلينا من كل قريب، يقول عز من قائل في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

إن من أعظم ما أنفقت فيه العقول، وصرفت فيه الأنفاس، وقضيت به الأوقات هو التفكر في آيات الله ﷻ ، تفكرٌ في آياته - سبحانه - المقروءة المتلوة المسموعة، وتفكرٌ في آيات الله المنظورة في كونه

الواسع، وخلقه الشاسع الرحيب. إن إعمال الفكر، وإدامة النظر، يثمران الإيمان بالله سبحانه، وينتجان مزيدًا من اليقين ويغرسان التسليم المطلق لله والتعريف به سبحانه وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله. إن التفكر في مخلوقات الله يدل دلالة قاطعة على أن هذا العالَم مخلوقٌ لخالق عظيم قدرُه، قدّره أحسن تقدير، ونظّمه أحسن نظام، وأنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما، واختل نظامهما، وتعطلت مصالحهما. فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩١] لقد لفت ربنا الأنظار إلى أن من ينتفع بآياته إنما هم أرباب العقول والألباب، وأصحاب الأفكار والأبصار. لقد أراد الإسلام للعقل أن ينهض من عقاله، ويفيق من سباته يقول الله -سبحانه-: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان: ١١]، ولقد كان سلف الأمة -رضي الله عنهم ورحمهم- استجابة لهذه التوجيهات العظيمة، يولون هذا الجانب عناية كبيرة ويحثون عليه، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال بعضهم: لو تفكر الناس في

عظمة مخلوقات الله لما عصوه. ويقول قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولُينت مفاصله لعبادة الله. بل قال بعضهم عند قول الله -تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، قال: حق على المسلم أن يخرج لينظر في ثمره كما أمر الله ﷻ . وهكذا النظر في آيات الكون.

أيها المسلمون:

إن تعطيل العقل عن وظيفته في التفكر، يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل من مستوى الحيوان، وهو الذي حال بين الأقدمين وبين النظر إلى الحقائق، في الآفاق وفي الأنفس، يقول الله -سبحانه- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فلنتأمل أيها الإخوة المسلمون الشمسَ والقمر، في طلوعهما وغروبهما، لإقامة الليل والنهار، ولولا طلوع الشمس لبطل أمر العالم، وتعطلت مصالحه. إذ كيف يسعى الناس في معايشهم؟ وكيف يتصرفون في أمورهم والدنيا عليهم مظلمة؟ وأيُّ نبات كان يوجد بدونها؟ وكيف يطمئن الناس بالعيش مع فقد النور؟ ثم لنتأمل الحكمة من غروبها، فلولا الغروب لم يكن للناس هدوء ولا قرار، مع حاجتهم الشديدة إلى

النوم والهدوء لراحة أبدانهم، فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدأوا، ولا قروا، ولا سكنوا، فجعله أحكم الحاكمين سكنًا ولباسًا، كما جعل النهار ضياءًا ومعاشًا، ولولا ذهاب الشمس وغروبها لحميت الأرض بدوام شروق الشمس عليها حتى يحترق كلُّ ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا، يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه، فطلوعه لمصلحتهم، وغروبه لمصلحتهم، فصار ضياءُ النهار مع ظلمة الليل، على تضادهما متعاونين متضافرين، بهما تمام مصالح العالم، وقد أشار الله -تبارك وتعالى- إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله -عز من قائل-: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١]، ولما كانت الشمس مصدرًا للإضاءة بنفسها، سماها الله - تعالى - سراجًا وسمى القمر نورًا لأنه يكتسب الإضاءة من الشمس، فقال -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوع: ١٦]، إن الليل والنهار من بدائع مصنوعاته سبحانه، ولهذا كرر الله -تعالى- ذكرهما كقوله -تعالى-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، فالليل سكن

وراحة ولباس، يخيّم على العالم ويرخي عليهم سدوله، فتسكن فيه الحركات، وتأوي فيه الحيوانات إلى بيوتها، والطيور إلى أوكارها، وتستريح النفوس من كد السعي والتعب، حتى إذا أخذت راحتها وتطلعت إلى معاشها، جاء فالق الإصباح -سبحانه وتعالى- بالنهار، فكشف الظلمة عن العالم، فإذا هم مبصرون. فانتشرت المخلوقات في هذه الأرض، فياله من معاد دالٍّ على المعاد الأكبر يوم القيامة، ويا لها من آية عظيمة باهرة شاهدة بالبعث والنشور، يوم يقوم الناس من نومهم في قبورهم، فيحشرون كأنهم جراد منتشر، وهكذا تسير الشمس والقمر في فلكيهما في انتظام باهر، وسير محكم، كلٌّ يجري إلى أجل مسمى، إلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم، فتطلع الشمس من مغربها كما في صحيح البخاري عن أبي ذر ﵁ قال-: قال رسول الله ﷺ حين غربت الشمس: (أتدري أين تذهب؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها وتوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، يقال لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها). إن طلوع الشمس من مغربها علامة من علامات الساعة الكبرى لا يقبل الله توبة تائب بعد ذلك.

أيها المسلمون:

لننظر إلى القمر وعجائب خلقه كيف يبديه الله -سبحانه- كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئًا فشيئًا في كل ليلة، حتى ينتهي إلى

إبداره وكماله، ثم يأخذ في النقص حتى يعود إلى حالته الأولى، فيعرف به الناس مواقيتهم في عباداتهم ومناسكِهم وأمورِهم كلّها. فسبحان من صرّف الآيات الدالة على صدق رسله ونوّعها فجعلها مدركة بالفطرة والسمع والمشاهدة، ﴿فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

***

الهدف من خلق الإنسان

أيها المسلمون:

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وقال عز من قائل: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال جل وعلا: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت: ١١].

إن الله عز وجل لم يخلق مخلوقاته ليتقوى بها من ضعف، ولا ليتعزز بها من ذلة، ولا ليستكثر بها من قلة كلا ! فهو - سبحانه - وحده المنعم المتفضل: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٨].

لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى.

خلق الخلق ليعبدوه وحده، فهو - سبحانه - الذي يستحق أن يُعبد، وهو وحده الجدير بأن يُحمد.

كرّم الله بني آدم، وحملهم في البر والبحر والجو، وفضّلهم على

كثير ممن خلق تفضيلًا، وأسبغ عليهم نعماً ظاهرة وباطنة، وخلقهم في أحسن تقويم.

شق أسماعهم، وأبصارهم، وتابع عليهم برّه وفضله وإحسانه وجوده.

خيره -سبحانه- لعباده نازل، وشر عباده إليه صاعد. يعطيهم كل ما سألوه، ويجيب دعاءهم إذا دعوه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فجدير بالإنسان وقد نال ذلك التكريم، ومنح هذه النعم، ووهبه الله هذه المواهب، جديرٌ به أن يكون عابدًا لله تعالى لا غافلًا، طائعًا لا عاصيًا، مقبلًا على ربه لا مدبرًا، يلح عليه بالسؤال خائفًا راجيًا، ذليلًا منكسرًا، يسبحه كثيراً، ويذكره كثيرًا، ويعتمد عليه في أموره كلها، فنعم المولى، ونعم النصير.

إنَّ من إكرام الله ﷻ للإنسان أن جعل ما في الأرض مسخّرًا له، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

بل إنَّ الملائكة المكرمين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، جعلهم الله مسخرين لبني آدم، فمنهم الكَتَبَة، ومنهم الحَفَظة، ومنهم من سخّره الله لإرسال الريح، ومنهم من وكلّه بالمطر، وجعل من أكبر وظائفهم ومسؤولياتهم الاستغفارَ لبني آدم، قال تعالى:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

أيها المسلمون:

ومع هذه النعم العظام، والمواهب الجسام، ومع هذا الإفضال والإنعام، إلا أن بعضًا من بني آدم عصوا ربهم، ولم يطيعوه، وبارزوه بالمعاصي، وحاربوه، مع أن الله - سبحانه - أعطاهم العقول المفكرة، وهداهم إلى الطريقين، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، إن بعضًا من البشر لم يعبد الله حق عبادته، ولم يقدّره حق قدره، فهم مختلفون عن جميع الكائنات التي تقوم بعبادة ربها وخالقها بحسب أمره، تطيعه ولا تعصيه، وتمتثل أمره ولا تخالفه؛ ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى بعض المخلوقات العاصية، كالشياطين وبعض الدواب، كالوزغ الذي قال عنه رسول الله ﷺ: (اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار على أبينا إبراهيم) رواه الإمام أحمد.

ومع عصيان الشياطين وبعض الدواب إلا أنها في المعاصي لم تبلغ ما وصل إليه بعض بني آدم، فقد وجد من بني آدم من يدعي الربوبية، والألوهية، ألم يقل فرعون لقومه: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

كما وجد من يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ووجد من بني آدم من يقول: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ووجد منهم من يقول: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: ٦٤]، ووجد من يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ووجد من يجعل الملائكة بنات الله: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: ١٩].

كيف يجترئ الإنسان الضعيف على أن يقول هذه الطوام، ويعتقدَ هذه المعتقدات ويتفوهَ بهذا الكلام؟! الذي: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: ٩٠].

تعالى الله عما يقول الزائغون علوًّا كبيرًا، وتقدس الله وتنزه عما يقول الظالمون.

وإذا كان في السابقين من قالوا منكرًا من القول وزورًا، واعتقدوا المعتقدات الباطلة كما أخبر الله عنهم، فإن اللاحقين من بعض البشر تجرؤوا على الله عز وجل، فتفوهوا بالمقالات الشنيعة في حق الله تعالى، وطرحوا الطرح الذي يثمر العلقم، والحنظل، والشوك كمن يقول: إن الشريعة الإسلامية غيرُ صالحة لكل زمان ومكان، ومن يقول: لابد من فصل الدين عن الدولة فليس في الدين سياسة، وليس في السياسة دين.

إنّ استحلال المعاصي، والمجاهرة بها، قد يكون ذلك استعجالًا لعذاب الله نسأل الله السلامة. فهل يليق بالإنسان الضعيف أن يستعجل عذاب الله؟ والله ﷻ يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، وقد لا يصيب العذابُ الأبدانَ، ولكنه يصيب القلوب، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

نسأل الله السلامة والعافية والمعافاة.

***

والحياء شعبة من الإيمان

أيها المسلمون:

يقول الإمام ابن حزم رحمه الله: (من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها، فليقتد بمحمد ﷺ وليستعمل أخلاقه وسيرته ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بمنّه آمين).

أيها المسلمون:

كان رسول الهدى ﷺ يدعو أمته إلى التحلي بالأخلاق الكريمة، لأنها الأساس في بناء الأمة، ولم ترتفع أمة من الأمم إلا بأخلاق أبنائها وسموّ آدابها وخضوع أبنائها للحق، وما سقطت أمة إلا بسبب انحلال الأخلاق، وفساد النفوس، ومن الواضح جدًا أن الأمة التي تفقد أخلاقها وتضعف فيها عناصر الفضيلة، تصاب بأدواء الشر والفساد، وتحصل لها عوامل التحلل والفرقة، وتتعرض لأخطار قد تنهي حياتها حتى ولو كانت أسباب القوة المادية فيها متوفرة. ولقد حدّثنا التاريخ عن أمم بادت وحل بها الخراب، لأنها تركت الفضيلة والأخلاق، فكان أن حلَّ بها عقاب الله -تعالى- جزاء ظلمها وفسادها، وقد أشار كتاب الله إلى ذلك فقال -تعالى-: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، ومن أجل أن يحيا المجتمع المسلم حياة فاضلة دعا الرب

-تبارك وتعالى- عباده أن يكون لهم في رسوله ﷺ أسوة حسنة قال -تعالى-: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولقد بين رسولنا - صلوات الله وسلامه عليه - مجمل رسالته التي أرسله الله بها بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه الإمام أحمد، وقد كان ﷺ كثير الضراعة لربه أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان من دعائه: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق) رواه الترمذي.

عباد الله: إن من أبرز الأخلاق في الإسلام: خلق الحياء، يقول ﷺ: (إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء) رواه الإمام مالك. والتجرد عن الحياء تجرد عن الإيمان، يقول نبيّنا ﷺ: (الحياء شعبة من الإيمان) رواه البخاري ومسلم، والحياء من أخلاق الرسول ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه) رواه أبو داود.

إن مما عرف الناس من ميراث النبوّة أن المرء إذا تجرد عن الحياء، فإنه يكون أهلًا لارتكاب كل منكر وشر. يقول ﷺ: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت) رواه البخاري ومسلم، والمعنى إذا لم تستح من العيب فافعل ما تحدثك به نفسك من عمل السوء وفعل القبيح، والمراد من ذلك: التهديد والوعيد

كقوله - تعالى -: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

أيها المسلمون: إذا كان الحياء من الناس مطلوبًا ومأمورًا به، فإن الحياء من الله -تعالى- مطلوب أيضًا، لأنه يمنع الإنسان عن المعاصي، نقل عن عثمان ذي النورين رضي الله عنه قوله: (إني لأغتسل في البيت المظلم فأنطوي حياء من الله - عز وجل-)، وكان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

إني كأني أرى من لا حياء له ولا أمانة وسط القوم عريانا

ومن ورع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ما حكته بقولها: (كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي رضي الله عنه واضعة ثوبي وأقول: إنما هو زوجي وأبي فلما دفن عمر رضي الله عنه والله ما دخلت إلا مشدودة علي ثيابي، حياء من عمر رضي الله عنه) رواه الإمام أحمد والحاكم. فتأمل - أيها المسلم الكريم - هذا جيّدًا ثم انظر إلى تساهل بعض المسلمات اليوم في الحجاب والستر والعفاف بسبب مؤثرات كثيرة، لذا كان من أوجب الواجبات حراسة أخلاق النساء سواء كنَّ أمهات أو زوجات أو بنات أو أخوات من المؤثرات المدمرة التي تدعو إلى الفساد، والانحلال الخلقي.

إن من نتائج الإعراض عن تعاليم الدين، والغفلة، والانشغال بأمور الدنيا، أن تفشّى في المجتمع المسلم الاستهتار بالقيم الرفيعة، وفشت الاستهانة بالتقاليد الحسنة، والتجرد من الفضائل فانتشرت الرذيلة،

وأخذت طريقها إلى بيوت المسلمين، فمن مناظر التبرج وعرض مفاتن الجسد، إلى اختلاط بين الرجال والنساء في الأسواق وغيرها، إلى غير ذلك من أمثال هذه النقائص التي تسلب الإنسان الحياء، وتزين له الشر، وتغمسه في الشهوات والآثام؛ وتجر عليه الفتنة. إن خروج المرأة، وسفورها، واختلاطها بالرجال، وكشفها عن يديها، وذراعيها، ومزاحها مع الرجال، يسبب مفاسد وأضرارًا وشرورًا لا يعلم مداها إلا الله ﷻ، وهو مبدأ في أصله أتى إلى ديار المسلمين من قبل أعدائهم.

أيها المسلمون:

إن أعظم ما تخسره المرأة بسبب الاختلاط هو ذهاب الحياء عنوان العفة والطهارة، تقول إحدى الداعيات للكفر: ليس هناك طريق لهدم الإسلام أقصر مساحة من خروج المرأة المسلمة سافرة متبرجة.

المرأة المسلمة هي التي تمكث في بيتها، وتربي أولادها، وترعى أمورهم، وتخاف الله ﷻ فهي الناجية؛ أما تلك المرأة التي جعلت من الخروج إلى الأسواق عادة، ومن التزين للرجال طبيعة، ومن الكلام الناعم وسيلة للإغواء، فهي امرأة على خطر لأنها مخالفة لأوامر الله ﷻ وأوامر رسوله ﷺ إن على الآباء والأزواج أن يتفقدوا بيوتهم وأن يسعوا جاهدين للوصول بها إلى الطهارة والسموّ الأخلاقي. ومن الغريب أن بعض الناس لا يولي هذا الأمر اهتمامًا ولا ينتبه له فيسري الشر

ويستشري الفساد، وهو غافل لاه لا يفكر في العواقب وإذا وقع الفأس على الرأس ندم حينما لا ينفع الندم.

أيها المسلمون:

إن أهم مميزات الرجولة: الغيرة، والذي لا يغار مفرط فيما كُلِّف به؛ ومعنى الغيرة: أن تأخذ الإنسان الحمية والغضب، إذا شعر أن غيره يريد أن يخدش عرضه.

فالمسلم يغار على امرأته، ولا يرضى أن يشاركه أحد في النظر إلى جسمها، يقول ﷺ: (**إن الله تعالى يغار والمؤمن يغار**) رواه البخاري ومسلم، ويقول أيضًا: (إني لغيور وما من امرئ لا يغار إلا منكوس القلب) رواه الطبراني.

أيها المسلمون: إن الغيرة المطلوبة هي التي تدفع إليها الكرامة، والحمية الإسلامية، ويحكمها الدين، قد يغار الرجل على امرأته إن تعرض لها إنسان في الطريق وهو ينظر ولكنه لا يولي الأمر عناية حين تمشي معه زوجته وقد أبدت شيئًا من جسدها حيث تمضي الأعين في كل مكان تلتهمها، أو يتركها تجوب الأسواق في كامل زينتها وتتحدث مع الآخرين لغير حاجة وتعتبر الخروج زادًا يوميًا لابد منه؛ كم من مآس تحصل بسبب الإهمال والتفريط وترك الزوجات والبنات يتجولن في الأسواق والأماكن العامة!.

فـاتقوا الله، أيهـا المـسلمون، واحـذروا الفـتن، فعلـى كـل مـسلم أن يحرص على زوجته وأخته ومن تحت ولايته أن لا تخرج إلى السوق إلا لحاجة وإذا خرجت فلتخرج غير متطيبة، ولا متبرجة، بل تخرج وعليها السكينة، وتخفي صوتها ولا تزاحم الرجال، تلكم هي تعاليم الإسلام وهذه توجيهاته، اللهم ثبتنا على دينك حتى نلقاك.

***

علامات صحة القلب وعلامات مرضه

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، أحمده -سبحانه- على نعمه العظام، وأشكره على آلائه الجسام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه، هدى الله به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وفتح برسالته أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فيا أيها الناس: اتقوا الله ﷻ، واعلموا -رحمكم الله- أن من أهم المهمات وأوجب الواجبات علاج أمراض القلوب المعنوية والسعي لصحتها وسلامتها ووقايتها من الأمراض المعنوية.

إننا معشر المسلمين نحرص على علاج أمراض القلب الحسية ونطرق العيادات الخاصة بالقلب وهذا من الأمور المطلوبة فإن فعل الأسباب لا ينافي التوكل على الله ومن العقل الحفاظ على السلامة والصحة، ولكن الأمر الذي لا ننتبه له ولا نتفطن له أمراض القلب المعنوية؛ لذا فإن الحديث سوف يكون مقصورًا على بيان هذه الأمراض والسلامة منها وعلاجها وعلامات القلب الصحيح السليم قال الله -تعالى- على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، قال القاسمي رحمه الله: (بقلب

سليم من مرض الكفر والنفاق والخصال المذمومة والملكات المشؤومة)، وقال العلامة ابن القيم رحمه الله: (القلب السليم: هو الذي سلم أن يكون لغير الله فيه شرك بل قد خلقت عبوديته لله - تعالى - إرادة ومحبة وتوكلًا وإنابة وإخباتًا وخشية ورجاء؛ وخلص عمله لله فإن أحب أحب لله، وإن أبغض أبغض لله، وإن أعطى أعطى لله وإن منع منع لله). إن القلب معشر المؤمنين: محل نظر الرب ومستودع التوحيد والإيمان والإخلاص، وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم). إن الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في القلوب لا بكثرتها وصورها بل بقوة الداعي وصدق الفاعل وإخلاصه وإيثاره لله على نفسه، وفي الحديث المتفق عليه قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)، والمعنى أن صلاح القلب يستلزم قيام أعضاء الجسم بطاعة الله. قال ابن حجر رحمه الله: وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد.

عباد الله: إن قلب الإنسان تطرأ عليه أمراض معنوية كثيرة والسعيد من يحرص على علاج قلبه ويسعى من أجل صحته وسلامته، والأمثلة على أمراض القلب كثيرة نقتصر على بعضها فمن ذلك: النفاق وهو من

أخطر الأمراض وأشدها فتكًا بالإنسان وعلامات المرضى بهذا المرض الخطير أنهم لا يذكرون الله إلا قليلًا، وإذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس، وإذا تصدقوا منّوا، ولا ينفقون إلا وهم كارهون، يقلبون الحقائق، ويغيّرون الوقائع، ويقبّحون الحسن، ويشوّهون الجميل، طبعهم الحسد والحقد لا يدعون إصلاحًا لغيرهم إلا شوهوه وانتقضوه، يحرفون الكلم عن مواضعه، ويختلقون الأنباء من عندهم، يريدون أن يطعموا من كل مائدة، وأن يشربوا من كل ينبوع، يتظاهرون بالصفا والوفاق وهم يضمرون الهدم والشقاق، يخادعون بالكلمات، ويسعون في تأجيج العداوات، يكرهون الإسلام والمسلمين، ويحبون الكافرين ويكونون بهم معجبين، فيهم جسامة، ووسامة، ومنظر ومظهر وجهارة، وصدارة ولسان وبيان قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤].

ومن أمراض القلوب: سوء الظن بالله ﷻ فهو من أعظم الأمراض وأخطرها فمن الناس من يسئ الظن بربه بوعده ونصره لعباده المؤمنين وأوليائه الصادقين فيظن أن الله لا ينصر عباده ولا يهزم عدوه ومنهم من يسئ الظن بربه من جهة رزقه حيث تكون ثقته بما في أيدي المخلوق أعظم من ثقته بما عند الله ﷻ ويظن أن رزقه بيد مخلوق مثله وينسى

التوكل على الله ﷻ وأن الله -سبحانه- هو الخالق الرازق قال -تعالى-: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، ومنهم من يسئ الظن بربه إذا مرض فيظن أن الله لن يشفيه وتضعف صلته وعلاقته بربه، والمؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، إن أصابته سراء لهج لسانه وقلبه بالشكر لربه المنعم المتفضل، وإن أصابته ضراء صبر امتثالًا لأمر ربه وفي كلا الحالين الأمر خير له. إن البعض من الناس عندما يصاب بالمرض يتعلق بالمخلوق والعلاج ويغفل جانبًا أهم وأعظم وهو التعلق بربه بدعائه واللجوء إليه والإكثار من عبادته وذكره، وفي الحديث القدسي قال الله - تعالى -: (أنا عند حسن ظن عبدي بي إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر) رواه الإمام أحمد والطبراني وغيرهما، يقول الإمام ابن حجر رحمه الله: علاج الأمراض كلها بالدعاء والإلتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العقاقير الطبية؛ وتأثير ذلك أعظم من تأثير الأدوية البدنية.

إن إحسان الظن بالله ﷻ من الأمور المطلوبة وإن إساءة الظن من أمور الجاهلية كما قال -تعالى-: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٦]، ومن أمراض القلب: الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين قال الله -تعالى-: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي الحديث الذي رواه مسلم قال رسول الله ﷺ: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم). وحسب المتكبرين خزيًا ومهانة في الدار

الآخرة أن الله -تعالى- لا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يكلمهم، ولا يزكيهم جزاءً وفاقًا لما كانوا يستكبرون في الأرض، ويستعلون على الناس يقول النبي ﷺ:(لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا) رواه البخاري ومسلم، وفي الحديث القدسي قال الله ﷻ: (العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني في واحد منهما عذبته) رواه مسلم.

ومن أمراض القلوب: الحقد والغل على المؤمنين وبغضهم وحسدهم إن المؤمن أخ لكل المؤمنين، وهذا يوجب عليه أن يواصلهم ويرحمهم، وأن يبتعد عن التقاطع والتباغض والتدابر، ومن دعاء المؤمنين والتابعين لهم بإحسان أنهم يقولون: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[الحشر: ١٠]، ويقول الله -تعالى- مخبرًا عن إكرامه لأهل الجنة: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر: ٤٧]. الشحناء بين المسلمين تحول بينهم وبين المغفرة حتى يصطلحوا يقول رسول الله ﷺ: (تفتح أبوب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا) رواه مسلم. إن على كل مسلم أن يراجع نفسه وأن يصل من قطعه ويحب من أبغضه لغير الله؛ إن الشيطان حريص على أن تسود الشحناء، وتفشو القطيعة بين المسلمين، ولا سيما بين الأقارب والجيران وجماعة المسجد فلنطهر قلوبنا معشر المسلمين ولنحاسب

أنفسنا ولنعلم أن البقاء في الدنيا قليل وأن السفر قريب والزاد قليل.

أيها المسلمون: أساس صحة القلب وسلامته إيمانه بالله -تعالى- وكلما كان الإنسان أكثر إيمانًا بالله -تعالى- كان قلبه صحيحًا سليمًا. الإيمان العميق هو الذي زكى نفوس المؤمنين من الصحابة والتابعين وطهر قلوبهم من الأمراض وهو الذي أعلا هممهم وقوى عزائمهم فطلبوا معالي الأمور ووطنوا نفوسهم على قيادة الأمم وبهذا الإيمان استحقوا العزة والكرامة ونالوا النصر والتأييد في الحياة الدنيا والسعادة والفوز في الآخرة. هل لأمراض القلوب علاج؟ والجواب: نعم لها علاج والعاقل هو الذي يبادر في العلاج؛ لأن ترك المرض من دون تشخيص ولا علاج يزداد ضرره، ويعظم خطره، وإن من علاج مرض القلب: كمال محبة الله بأن يكون حب الإنسان لله وفي الله بغضه، ومعاداته تكون من أجل الله لا من أجل حظوظ النفوس، وشهواتها أو من أجل أمور الدنيا وحطامها فلنفتش أنفسنا يا عباد الله هل كان حبنا لله وبغضنا له فإن كان كذلك فلنحمد الله ولنسأله الثبات والمزيد من فضله وإن كان لغير ذلك فلنبادر بالعلاج. ومن العلاج: أن تكون العبادة لله ظاهرًا وباطنًا فالباطن بالإخلاص لله والظاهر بالمتابعة لرسوله ﷺ قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وكلما كان العمل أكثر إخلاصًا لله وأكثر متابعة لرسوله ﷺ كان ثوابه أعظم وأجره أكثر.

***

الإحسان وأنوعه

أيها المسلمون: إن من أنواع الإحسان: الإحسان إلى الوالدين فلقد رفع الإسلام مقام الوالدين إلى مرتبة لم تعرفها الإنسانية إلا في هذا الدين إذ جعل الإحسان إليهما في مرتبة تلي الإيمان بالله يقول الله -تعالى-: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ويسمو كلام الله ﷻ في تصوير مكانة الوالدين ولا سيما إذا تقدم بهما العمر وبلغا مرحلة الهرم والعجز: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤-٢٣]، فهما عند الإنسان في رعايته وحمايته، وقد يكونان ضعيفين فليحذر أن تخرج منه كلمة تذمر، أو تململ، أو ضيق بل يجب عليه أن يفكر طويلًا في الكلمة الطيبة التي يوجهها لهما ليطيبا بها نفسًا، ولتكن وقفته بين أيديهما وقفة احترام تشبه وقفة الذليل الخاشع ولينطلق لسانه لاهجًا بالدعاء لهما على ما أسديا له من معروف لا ينسى إذ ربياه صغيرًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها؛ قلت ثم أي؟ قال: بر الوالدين؛ قلت ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)

رواه البخاري ومسلم. لقد جعل الرسول المصطفى ﷺ بر الوالدين بين أعظم عملين في الإسلام: الصلاة على وقتها، والجهاد في سبيل الله؛ فأي مقام كريم أحل الرسول ﷺ الوالدين، ويأتي الرسول الكريم رجل يبايعه على الهجرة والجهاد يبتغي الأجر من الله فينتظر في قبوله ويسأله، هل من والديك أحد حي؟ فيقول الرجل: نعم بل كلاهما فيقول الرسول الكريم: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ فيجيبه الرجل: نعم فيقول الرسول الرحيم: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما) رواه البخاري ومسلم. لم يفت رسول الهدى ﷺ وهو يعبئ كتائب الجهاد أن يذكر بقلبه الرقيق ضعف الوالدين وحاجتهما لابنهما فيصرف هذا المتطوع للجهاد عن التطوع ويلفت نظره برفق وعناية ولين إلى العناية بوالديه وإنه - عليه الصلاة والسلام - لفي حاجة إلى كل ساعد فتى يضرب بالسيف آنذاك تقديرًا منه لمكانة البر بالوالدين.

ولما أنكرت أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إسلامه وقالت له إما أن ترجع عن إسلامك وإما أن أُضرب عن الطعام حتى أموت فتكسب معرة العرب - أي سخريتهم - حيث سيقولون قاتل أمه؛ أجابها سعد: تعلمين والله لو كان لك مائة نفس وخرجت نفسًا نفسًا ما رجعت عن إسلامي وصبرت أمه يومًا فيومين وفي اليوم الثالث أجهدها الجوع فأكلت وأنزل الله قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين فيه عتاب لسعد على شدته

مع أمه في جوابه لها: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

وفي قصة جريج العابد عبرة بالغة في أهمية البر إذ نادته أمه وهو يصلي فقال: يا رب أمي أم صلاتي؟ واختار صلاته، ونادت ثانية فلم يجبها وبقي في صلاته، ونادته ثالثة فلم يجبها فدعت عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه الزانيات؛ وزنت إحداهن براعي غنم فحملت منه وطلب منها أن تدعي أن والد المولود جريج فذكرت ذلك فخرب الناس صومعته -مكان عبادته- واقتيد للمحاكمة فبينما هو في الطريق تبسم لذكره دعاء أمه ولما قدم للعقاب دعا الله ﷻ؛ ثم أمر بإحضار الغلام فهمس في أذنه: من أبوك؟ فقال: (أبي فلان الراعي) فهلل الناس وكبروا وقالوا: نعيد صومعتك من الذهب والفضة فقال لا بل أعيدوها كما كانت من طين) الحديث رواه البخاري.

أيها المسلمون: قد تقبل الدنيا على الولد فتمتلئ خزائنه بالمال وتشغله زوجته عن أمه ويشغله أبناؤه عن أمه فينصرف عن العناية بها فيبوء بغضب الله. إن اهتمام البعض اليوم لينصب على الزوجة والأولاد؛ أما الوالدان فالعناية بهما تأتي بعدهم. إن النظم الغربية لا تحسب أي حساب لبر الوالدين وصيانتهما من الضيعة والامتهان وهذا ما يجعل البعض لا يلتفت إلى الوراء قليلًا ليلقي نظرة حب ووفاء وبر للجيل

الذي طالما سهر الليالي في تربيته وأنفق الغالي والرخيص في إعداده وتحمل العرق والدم في إسعاده فتراه يلتفت بقلبه لزوجته وأولاده، ولم يفكر بنصيب والديه من هذا النعيم وإنهما لفي أمس الحاجة إليه يتلقيانه بيد ولدهم الحبيب. إن الإحسان إلى الوالدين والإقبال عليهما بالقلب النابض بالحب واليد المبسوطة بالبذل وبالكلمة الطيبة المؤنسة الودود؛ إن ذلك لخلق أصيل من أخلاق المسلمين يقيهم من السوء ويفتح لهم أبواب الجنان.

ومن الإحسان: الإحسان إلى الأولاد وذلك من عدة أمور منها: التسمية باسم حسن فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول **الله** ﷺ: (إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم فأحسنوا أسماءكم) رواه أبو داود، وفي الحديث الآخر الصحيح يقول ﷺ: (إن أحب أسمائكم إلى **الله**: عبد **الله** وعبد الرحمن) رواه مسلم.

ومنها: الملاطفة وخفض الجناح وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه أن يعاملوا أولادهم بالرفق واللين ويضرب لهم المثل بما يفعله هو بنفسه؛ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول **الله** قال: (كان إبراهيم - يعني: ابن النبي ﷺ مسترضعًا له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت فيأخذه ويقبله ثم يرجع) رواه مسلم. ومنها التسوية بين الأولاد ذكورًا وإناثًا في العطية والعطف

ونحوهما؛ لأن المفاضلة نوع من الجور الذي قد يسبب العقوق، أما إذا كان التفضيل يسيرًا وغير مؤثر أو كان برضى باقي الأولاد رضىً حقيقيًا، أو كان له سبب فالأمر يسير.

ومن الإحسان إلى الأولاد: تربيتهم وتعليمهم التربية الحسنة فعلى الآباء والأمهات أن يعرّفوا أولادهم بربهم، وبنبيهم ﷺ، وبكتاب الله ﷻ؛ وعليهم أن يمنعوهم من الوقوع في المنكر فعن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال لي رسول الله ﷺ: (يا غلام سم الله -تعالى-، وكل بيمينك، وكل مما يليك) فما زالت تلك طعمتي بعد. رواه البخاري ومسلم.

ومن الإحسان: إحسان المعلم إلى تلاميذه لأنه في مقام الوالد ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: (إنما أنا لكم مثل الوالد لولده) رواه أبو داود.

فيجب عليه أن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وعذاب الله أولًا ثم إعدادهم ليكونوا صالحين نافعين لأنفسهم وأمتهم. إن أنجح الأساليب في التعليم والتربية هو أسلوب الشفقة والرحمة وإشعار التلميذ بالحنان والعطف وشدة الحرص عليه. والمعلم ينبغي أن يدرك أن أعين المتعلمين معقودة به، وأنهم يتخذونه مثلًا ولذا يطلب من المعلم أن يكون في لبسه، وفي مشيه، وفي قوله وفعله، وفي معاملاته وتصرفاته

ملتزمًا بالأحسن والأكمل ما استطاع فإن ذلك يغرس في نفوس تلاميذه عن طريق المحاكاة والتقليد ما يعجز عن غرسه عن طريق القول عشرات المربين وقديمًا قيل: عمل واحد يؤثر في ألف؛ وأقوال ألف لا تؤثر في واحد.

ومن الإحسان: إحسان المتعلم إلى معلمه؛ لأن طالب العلم راغب في إزالة جهله، ومعرفة أسباب سعادته وفوزه؛ كما أنه يعد نفسه لخدمة أمته وإنقاذ غيره من أسباب الضلال والشقاء؛ فعليه أن يعرف حق معلمه فيتواضع له، ويخضع لنصحه، ويطلب رضا الله بخدمته، ويبذل كل جهد في احترامه وتقديره؛ قال الشعبي: صلى زيد بن ثابت رضي الله عنه على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنه يا ابن عم رسول الله. فقال: ابن عباس رضي الله عنهما هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا. فقبل زيد بن ثابت يده، وقال: (هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم) رواه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد.

***

ولا تؤمنوا حتى تحابوا

أيها المسلمون:

يقول الله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويقول رسول الهدى ﷺ: (المسلم أخو المسلم) رواه مسلم، الإسلام دين يقوم على الترابط والتواصل والأخوّة.

لقد كانت عناية نبي الله ﷺ بالرابطة الأخوية عناية عظيمة؛ حيث أقام الجسور، وعقد الروابط بين المهاجرين والأنصار، فكانوا إخوة متحابين، وكانت مؤاخاتهم مؤاخاة لا مثيل لها، ساهمت مساهمة فعالة في نجاح الدولة الإسلامية، واستقرارها وسلامتها من الاضطراب.

وبعد ذلك قام هؤلاء المتآخون بنشر الدعوة، وإشاعة العدل وبسط الرحمة في أرجاء واسعة من أرض الله عز وجل، فأسعدوا البشرية وخلصوها من الظلم والفساد.

وفي وقتنا الحاضر ضعفت الأخوة بين المسلمين حيث وجد في مجتمعاتهم التسلط، والاستغلال، والبغي والظلم، والغل والحسد، والكراهية والعداء، إلى غير ذلك من الأمراض المعنوية التي أصيب بها المسلمون، وستظل هذه الأمراض سارية المفعول ما لم يتدارك المسلمون أنفسهم، ويشعروا برابطة الأخوة فيما بينهم.

إن البعض من الناس يتصور أن الأخوّة محصورة في النسب، أو

اللغة، أو الوطن، حتى لو اختلفت المعتقدات، وهذا تصور خاطئ، وفهم مغلوط، قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ٢٣].

إن كتاب الله ﷻ يحذر من وجود علاقات محبة ومودة وموالاة بين المسلم وغير المسلم، حتى ولو كان هذا الغير أقرب قريب طالما أن الإيمان بالله غير موجود، قال الله - تعالى -: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وإذا كان اتخاذ الأقربين غير المسلمين أولياء منهيًّا عنه، فكيف بمن يتخذون الأبعدين من كفرة وملحدين، وزنادقة ومنافقين إخوانا لهم؟ على أن هنالك فرقًا بين التعامل والموالاة، فالتعامل جائز ولا شك، والموالاة محرمة، ومنها المحبة.

وإذا كانت موالاة غير المسلمين محرمة، فإن ذلك لا يعني ظلمهم والإساءة إليهم كلا!! فالإحسان في القول والفعل مأمور به يقول الله - تعالى -: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا ﴾ [البقرة: ٨٣].

ويقول: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقد امتدح الله عباده الذين يحسنون على الكافرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٥_ ٨]. والأسير لابد أن يكون كافرًا فالكفار هم الذين يؤسرون.

أيها المسلمون:

إن الأخوّة الإسلامية، مظهرٌ عظيم، من مظاهر قوة المسلمين، وسمةٌ من سمات، وحدتهم، وتعبيرٌ صادق لمودتهم، بها تستجلب محبة الله، كما قال الله - تعالى - في الحديث القدسي:

(وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ) رواه الإمام أحمد.

بالأخوّة يظل المتآخون المتحابون تحت ظل الرحمن ﷻ يوم لا ظل إلا ظلّه، يقول النبي ﷺ: (سبعة يظلّهم الله في لا ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلُّه... - وذكر منهم - ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) رواه البخاري.

والأخوة طريق إلى الجنة، كما ورد في الحديث الصحيح:

(من عاد مريضًا، أو زار أخًا له في الله ناداه مناد: أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلًا) رواه ابن ماجه.

والأخوّة سبب لتساقط الخطايا عن الإنسان، وكم يحتاج الإنسان أن يعفو الله عنه، ويغفر له ذنوبه، يقول نبينا - صلوات الله وسلامه عليه -:

(ما من مسلمَين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا) رواه أبو داود والترمذي.

إن مقاصد الأخوّة الإسلامية، تتجاوز الأفراد إلى الأمة المسلمة عامة، يقول النبي ﷺ:

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) رواه البخاري.

وحين ينصر المسلمون إخوانهم بما يستطيعون ويشعرون بآلامهم، يقوى الضعيف من المسلمين، ويغتاظ العدو، وبهذه النصرة يستجيب المسلمون لأمر نبيهم، ﷺ حيث يقول:

(انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) رواه البخاري.

إن للأخوّة الإسلامية حقوقًا لابد أن يقوم بها المسلمون، ويعتنوا بأدائها، فليفتش كل مسلم نفسه، هل قام بهذه الحقوق، أو قام بمعظمها، أو فرط في هذه الحقوق، أو فرط في معظمها؟ فمن هذه الحقوق:

إفشاء السلام، فكم في إفشاء السلام من أثر عظيم على مجتمع المسلمين يقول النبي ﷺ: (أفشوا السلام) رواه الترمذي، ويقول - عليه الصلاة والسلام -: (إن خير المتهاجرين من بدأ صاحبه بالسلام، وأبخل الناس من يبخل بالسلام) رواه ابن حبان في صحيحه.

ويقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن مما يصفي لك ودّ أخيك: أن تبدأه بالسلام إذا لقيته، وأن تدعوه بأحب الأسماء إليه، وأن توسع له في المجلس).

ومن حقوق الأخوّة: عيادة المريض واتباع جنازة المسلم، وكذا تشميته إذا عطس وحمد الله، وإجابة دعوته، إلى غير ذلك من حقوق تشيع المحبة، وتنشر التكافل، وتعمم الخير، وتوسّع دائرة النصيحة.

ألا ما أروع أخلاق المسلمين، حيث يشارك بعضهم بعضًا في أفراحهم، وفي أحزانهم وإذا كان الإسلام يعتبر الابتسامة في وجه المسلم صدقة من الصدقات، فكيف إذا فرج عن أخيه كربة، أو شاركه في نازلة، أو نصره في مظلمة ظلمها، إنه لا ينبغي أن يحقر المسلم من المعروف شيئًا، ولا ينبغي أن يقصره على القريب، أو الحبيب، فالحرص على نشر الخير، قدر الإمكان مطلوب، والإحسان حتى على البهائم مأمور به، وإذا عجز المسلم عن تقديم ماله لإخوانه فليقدم جاهه، فإن لم يستطع فليحسن خطابه واستقباله ودعاءه لإخوانه، فالدعاء لا يكلفه شيئًا، والداعي مستفيد أيضًا، فإن ملكًا يجيبه إذا دعا لأخيه يقول: (ولك بمثل) رواه مسلم، فلا تحرم أيها المسلم الكريم نفسك، وإخوانك من فضل الله تعالى.

***

من مشاهد القيامة

أيها المسلمون:

روى البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. قالت عائشة رضي الله عنها: إنا لنكره الموت. قال: ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشّر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله فكره الله لقاءه)، ولقد كان رسول الله ﷺ كثيرًا ما كان يقوم الليل ويقول: (أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه) رواه الترمذي.

أيها المسلمون:

ليس الميت من خرجت روحه من جنبه وإنما الميت من لا يفقه ما لربه من الحقوق عليه، إن الموت حقيقة ثابتة لا يترك صغيرًا لصغره، ولا كبيرًا لكبره بل يأخذ كلًّا بأجله فيرديه صريعًا قد فارق الأحباب وانتقل إلى رب الأرباب فالجدير بالعاقل أن يفكر بالموت وما بعده ويستعد لذلك بالإيمان وصالح الأعمال لحياة الخلود في النعيم؛ فلنتفكر في الآخرة وما تحتاجه من جهد وما نحتاج إليه فيها من زاد فإن السفر طويل فالمبادرة المبادرة إلى العمل والنجاة والظفر:

إلى الفوز بادر ما استطعت ولا تنم ففي القبر نوم لو علمت طويل

يقول الإمام ابن الجوزي: إني رأيت جميع الناس ينزعجون لنزول البلاء

انزعاجًا يزيد على الحد كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذلك وضعت، وهل ينتظر الصحيح إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود سوى العدم

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقة　　　وميْت ومولود؛ وقالٍ ووامق

أيها المسلمون:

يقول الله ﷻ وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج: ١-٢]، وفي الحديث قال النبي ﷺ: (لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته - أي: لقمةً إلى فيه- فلا يطعمها) رواه البخاري ومسلم.

إنه لمشهد عظيم حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعي، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع الذي تشاهده وبالناس سكارى وما هم بسكارى يظهر السكر في نظراتهم الذاهلة إن هذا المشهد لا يقاس بالحجم والضخامة ولكن بوقعه في نفوس المرضعات الذاهلات عما أرضعن، والحوامل الملقيات حملهن، والسكارى وما هم بسكارى.

إن هذه المشاهد العظيمة تبدأ بالنفخة الأولى في الصور حيث يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ويصاحب ذلك انشقاق السماء، وتناثر النجوم، ونسف الجبال، وتسجير البحار،

وتبعثر القبور، ثم تأتي النفخة الأخرى ويكون البعث والنشور قال تعالى في وصف هذه المشاهد: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾ [القيامة: ٧-١٠]، وقال -تعالى-: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]؛ وفي هذا الموقف العظيم تبدو الحسرة والندامة ويظهر الخوف والخزي والهلع، ويوجد الفرح والسرور، والغبطة والحبور، ويوجد من يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]، ويوجد من يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة: ١٩_ ٢١].

وبعد النفخ يأتي البعث: فيخرجون من الأجداث سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون، وقال -تعالى-: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النساء:٤٢]، وفي هذا الموقف يكون على المرء شاهد من نفسه ينطق بما فعل فلا إنكار ولا اعتذار ولا هروب؛ قال الله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت:٢٠]، وفي صحيح الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا مع رسول الله ﷺ فضحك

فقال: هل تدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم؟ قال: يقول: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب: ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهدًا مني. قال: يقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل)، وقال الله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت:٢١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله -تعالى- له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالًا وولدًا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وترتفع أكنت تظن أنك ملاقٍ يومك هذا؟ فيقول لا فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني)، وبعد السؤال يؤتى بالصحف فالسعيد من يأخذها بيمينه والشقي بشماله ومن وراء ظهره. عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت فقال لها رسول الله: ما يبكيك؟ فقالت ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة يا رسول الله؟ فقال: (أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدًا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل؛ وعند الكتاب حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله؛ وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم) رواه الحاكم.

لقد وصف الله عز وجل ندامة الظالم على ظلمه عند ما يرى العذاب

حيث يقول الله -تعالى- عن أولئك الظالمين: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾، [الأنبياء:٩٧]. ووصف -سبحانه- الظالم حينما يسخط على من جعله له صديقًا فقاده معه إلى الضلال والهلاك، حيث يقول -تعالى-: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان: ٢٧]، كما ذكر الله ﷻ موقف إبليس مع أتباعه حينما يتبرأ منهم ويلومهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أيها المسلمون:

لقد أخبر الله ﷻ في كتابه أن الإنسان سوف يرى كل ما عمل من خير وشر مهما كان قليلًا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧].

وقال -تعالى-: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]، وإذا كان الإنسان ينسى ما اقترفه وما كسبته يداه فإن الله لا ينسى وقد أحصى عليه كل شئ قال -تعالى-:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ويقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما ندمت على شئ ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي).

أيها المسلمون:

العمل هو حصيلة الإنسان التي يخرج بها من هذه الدنيا ويترتب عليها مصيره في الدار الآخرة كما ثبت في الحديث الصحيح حيث يقول النبي - صلوات الله وسلامه عليه -: (يتبع الميت ثلاثة: أهله، وماله، وعمله فيرجع اثنان ويبقي واحد يرجع أهله وماله ويبقي عمله) رواه البخاري ومسلم. العمل هو رفيق الإنسان في قبره ينعّم بسببه إن كان صالحًا أو يعذب إن كان سيئًا.

أيها المسلمون:

الدنيا ليست بدار قرار ولا خلود فكل إنسان لابد أن يفارق هذه الحياة ويغادرها قال -تعالى-: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦]، ويقول النبي ﷺ فيما رواه الطبراني: (عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، ومسؤول عنه) وإذا كنا نعلم ذلك يقينًا فلابد أن نعمل لنسعد وننعم بعد أن نغادر الدنيا.

***

حديث: عن دار السلام

أيها المسلمون:

في هذا اليوم المبارك نعيش مع ما سيجده أهل الجنة من النعيم المقيم، فكم نحن بحاجة إلى تذكره والحديث عنه؟ فلعل ذلك يشجعنا في سيرنا إلى الله ﷻ، وذلك أن نعيم المؤمنين في الجنة لا يقارن بمتاع الدنيا، ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها) دخول الجنة والنجاة من النار هو الفوز العظيم قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١٣].

سعادة المؤمنين لا تعادلها سعادة، عندما يساقون مكرمين معززين زمرًا زمرًا إلى جنات النعيم، حتى إذا ما وصلوا إليها، واستقبلتهم الملائكة الكرام، يهنئونهم بسلامة الوصول بعدما لاقوه من الكربات، وشاهدوه من الأهوال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، والمعنى طابت أعمالكم وأقوالكم وبذلك استحققتم الجنات.

أيها المسلمون: لقد بشر رسول الله ﷺ المساكين والفقراء من هذه الأمة، بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء، ففي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)، وأصحاب الجد: هم الأغنياء من المسلمين، والمقصود أن الفقراء ليس عندهم ما يحاسبون عليه، مع جهادهم وفضلهم، فقد أخرج الحاكم وصححه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: (فقراء المهاجرين يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون بأي شيء نحاسب؟ وإنما أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله، حتى متنا على ذلك.

قال: فيفتح لهم فيقيلون فيها أربعين عامًا، قبل أن يدخلها الناس).

ولابد من الإشارة إلى أن المال إذا أدى المسلم حق الله عز وجل فيه فإنه ينفعه ويكون زادًا له، وقد جاء في الحديث: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه الإمام أحمد، فهنيئًا لمسلم أعطاه الله مالًا فنفع به إخوانه، ومجتمعه، وأمته.

أما أبواب الجنة فهي ثمانية، باب خاص لأمة محمد ﷺ ويشاركون سائر الأمم في الأبواب الأخرى، وقد ورد في الحديث الصحيح عن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلّغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبدالله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) رواه مسلم، وقد وردت نصوص تدل على عظمة هذه الأبواب وسعتها، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم يقول ﷺ: (والذي نفس محمد بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة، أو ما بين عضادتي الباب كما بين مكة وهجر). والمقصود بهجر: المنطقة الشرقية من المملكة، وفي حديث رواه مسلم عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: (لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام) رواه مسلم.

فيا سعادة من دخل هذه الأبواب، وهنيئًا له ذلك النعيم المقيم، نسأل الله أن يمنحنا من فضله، وأن لا يحرمنا بسبب ذنوبنا.

ما مقدار من يدخل الجنة من هذه الأمة؟

لقد كان رسولنا ﷺ يرجو أن تكون هذه الأمة أكثر أهل الجنة ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم يقول - عليه الصلاة والسلام -: (والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا، قال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد

ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود) بل ورد في سنن الترمذي قوله ﷺ: (أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم).

أيها المسلمون:

أتدرون من هم سادة أهل الجنة؟ إليكم الإجابة من في رسول الله ﷺ حيث يقول: (أبوبكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين) رواه ابن ماجه، ويقول: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة) رواه الترمذي، ويقول: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون) رواه الإمام أحمد.

أيها المسلمون:

يدخل أهل الجنة الجنة على أكمل صورة وأجملها، يدخلون على صورة أبيهم آدم عليه السلام فلا أكمل ولا أتم من تلك الصورة والخلقة التي خلق عليها أبو البشر آدم فقد خلقه الله بيده فأتم خلقه وأحسن تصويره.

ومن جمال صورهم أنهم يدخلون الجنة في عمر القوة والفتوة والشباب أبناء ثلاث وثلاثين سنة، وأهل الجنة كما جاء في الحديث الصحيح: (لا يبصقون، ولا يتمخطون، ولا يتغوطون) رواه الترمذي.

نعيم الجنة أفضل من متاع الدنيا من وجوه كثيرة:

أولًا: متاع الدنيا قليل قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقد بين لنا النبي ﷺ قلة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة بقوله: (والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه -وأشار بالسبابة- في اليم فلينظر بما ترجع) رواه مسلم.

ثانيًا: متاع الدنيا مضمحل زائل ونعيم الآخرة باق دائم قال الله -تعالى-: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال -تعالى- عن الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]، فرق شاسع وعظيم بين ذلك النعيم الدائم وبين سنين قليلة هي عمر الإنسان في الدنيا: (أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين).

ثالثًا: الجنة خالية من شوائب الدنيا وكدرها فطعام أهل الدنيا وشرابهم يلزم منه قضاء الحاجة، والنساء في الدنيا يحضن ويلدن، والمحيض أذى والجنة خالية من ذلك كله، فأهلها لا يبولون، ولا يتغوطون ولا يبصقون ولا يتفلون، وقلوب أهل الجنة صافية، وأقوالهم طيبة، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية، تكدر الخاطر وتثير الأعصاب، إنها دار الطهر والصفاء إنها دار السلام والتسليم: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر: ٤٧]، وقد يقال: فأين تذهب فضلات الطعام والشراب؟ وقد وجه السؤال

نفسه إلى رسول ﷺ فأجاب: بأن بقايا الطعام والشراب تتحول إلى رشح، كرشح المسك يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه إلى جشاء، ولكنه ذو رائحة طيبة عطرة ففي صحيح مسلم قالوا: يا رسول الله فما بال الطعام قال: (جشاء كجشاء المسك).

ومن ألوان النعيم: التسبيح والتكبير حيث يلهمونه إلهامًا كما يلهم الإنسان في الدنيا التنفس، فهو تسبيح لا كلفة فيه وليس عن تكليف وإلزام.

أيها المسلمون: ما أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله - تعالى - يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون ومالنا لا نرضى يارب، قد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا) رواه البخاري ومسلم.

وأعظم النعيم، النظر إلى وجه الله الكريم، في جنات النعيم. يقول ابن الأثير: رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة، بلغنا الله منها ما نرجو. قال الله -تعالى-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

***

كلام أهل الجنة ومخاصمة أهل النار

أيها المسلمون: قال الله -تعالى-: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾ [الأنبياء: ١]، وقال الله -تعالى-: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾ [مريم: ٣٩]، وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

حقًا أيها الإخوة المؤمنون إن أمر الساعة عظيم، وشأنه جسيم، وموعدها قريب فإن من مات قامت قيامته وانتقلت روحه إلى الجنة أو إلى النار فالقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

عباد الله: تحدث القرآن الكريم عن الدار الآخرة حديثًا يتضمن شيئًا من كلام أهل الجنة، وشيئًا من تخاصم أهل النار. نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا ووالدينا من أهل الجنة، وأن ينجينا ووالدينا من النار إنه -تعالى- جواد كريم ملك بَرّ رؤوف رحيم، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرف الله وجهه عن النار قِبَل الجنة؛ ومثل له شجرة ذات ظل فقال: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها فقال الله: هل عسيت أن تسألني غيره؟ قال لا وعزتك فقدمه الله إليها؛ ومثل له شجرة ذات ظل وثمر؛ فقال: أي رب! قدمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها وآكل من ثمرها فقال الله: هل عسيت

إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك فقدمه الله تعالى إليها. فيمثل الله له شجرة أخرى ذات ظل وثمر وماء؛ فيقول: أيْ رب! قدمني إلى هذه الشجرة فأكون في ظلها، وآكل من ثمرها، وأشرب من مائها فيقول له: هل عسيت إن فعلت أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره فقدمه الله إليها. فيبرز له باب الجنة فيقول: أي رب قدمني إلى باب الجنة فأكون تحت سقف الجنة فأرى أهلها فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها. فيقول: أي رب أدخلني الجنة فيدخل الجنة فإذا دخل الجنة قال: هذا لي ! فيقول الله له: تمن فيتمنى ويذكره الله ﷻ سل من كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأماني؛ قال الله: هو لك وعشرة أمثاله ثم يدخله الجنة فيدخل عليه زوجتاه من الحور العين فيقولان: الحمد لله الذي أحياك لنا وأحيانا لك فيقول: ما أعطي أحد مثل ما أعطيت، وأدنى أهل النار عذابًا ينعل من نار بنعلين يغلي دماغه من حرارة نعليه) رواه الإمام أحمد ومسلم.

لقد عمل هذا الرجل المذكور في الحديث من المعاصي الكثيرة ما جعله آخر الناس دخولًا الجنة وأدناهم منزلة ومع ذلك يعطى كل هذا النعيم الذي يجعله يظن أنه أكثر أهل الجنة نعيمًا؛ فكيف يكون حال أولئك الذين كانوا أكثر الناس طاعة لله؟! وإذا كان أقل الناس عذابًا في ذلك اليوم من ينتعل نعلين من نار يغلي دماغه منهما فكيف بأولئك الذين هم أكثر الناس عذابًا ! وصف الرسول ﷺ نعيم أهل الهمم العالية

حيث قال عن نعيمهم: قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) رواه البخاري.

ومن كلام أهل الجنة كلامهم مع المنافقين في طريقهم إلى الجنة وذلك أنه عندما يرى المنافقون مصيرهم بأعينهم ويرون أولئك الذين كانوا يستهزؤون بهم؛ ويصفونهم تارة بالرجعية، وتارة بالتطرف والإرهاب، وتارة بالتزمت والتعصب، وتارة بالتشدد والجهل يرونهم وقد حفتهم الأنوار، وسعت بين أيديهم وبأيمانهم، والمنافقون في ظلام دامس لا يكادون يرون مواضع أقدامهم فينادون المؤمنين وقد أخذ منهم التعب والإرهاق كل مأخذ: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣]. وبعد هذا الحديث يتجه المؤمنون إلى النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول فإنهم لا يضيعون أوقاتهم في التحدث والحوار مع أهل النار؛ وإنما ينشغلون فيما أعد لهم من نعيم ويجتمع أهل الجنة مع بعضهم البعض يتسامرون ويتحدثون عن أمور حدثت لهم عندما كانوا في الدنيا؛ قال -تعالى-: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الصافات:٥٠].

ومن المحادثة بين أهل الجنة فيما بينهم أن أحدهم يذكر ماضيه، ويقص على إخوانه طرفًا مما وقع له: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات: ٥١-٥٣].

قال بعض العلماء: كان صاحبه وقرينه يكذّب باليوم الآخر وكان يسأله في دهشة: أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد أن كانوا ترابًا وعظامًا؟ وبينما هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم؛ فيطلع ويدعو إخوانه إلى الاطلاع معه قال: ﴿ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الصافات: ٥٤]، وحينئذٍ يتوجه بالكلام إلى قرينه الذي وجده في وسط الجحيم يتوجه إليه ليقول له: يا هذا ! لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك لولا أن الله قد أنعم علي فعصمني من الاستماع إليك: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧]، أي: لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون.

وتثير رؤيته لقرينه في وسط الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد الله المخلصين فيحب أن يؤكدها ويستعرضها ويطمئن إلى دوامها تلذذًا بها وزيادة في المتاع فيقول: ﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الصافات: ٥٨-٦٠].

وبينما أهل الجنة يمشون زمرًا زمرًا، والنور يداعب أجسامهم فإذا هم بزمرة قد تقدمها الرسول ﷺ وهم سبعون ألف يتقدمون الجموع وجوههم مضيئة كالبدر أولئك الذين قال فيهم الرسول ﷺ: (يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفًا تضئ وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر) رواه البخاري، وإذا بزمرة يلونهم وجوههم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة وإذا برسول الله ﷺ يتقدم الجميع نحو الباب؛ فيستفتح ويكون أول الداخلين فهو القائل: (آتي باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك) رواه مسلم.

فيدخل أحب الناس إلى الله محمد ﷺ، ويقبل السابقون من السبعين ألفًا على أبواب الجنة؛ التي ما بين المصراعين من مصاريعها كما بين مكة والشام ومع ذلك يكتظ المؤمنون على هذه الأبواب.

فقد أخبرنا رسولنا ﷺ بقوله: (أنتم موفون سبعين أمة أنتم آخرها وأكرمها على الله ﷻ وما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم وإنه لكظيظ من الزحام) رواه الإمام أحمد؛ وتكون أمة محمد نصف أهل الجنة؛ فقد روى البخاري عن عمر بن ميمون عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة قال: (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكون ثلث أهل الجنة؟ قلنا نعم. قال أترضون أن تكون شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم قال: والذي نفس محمد بيده

إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة) يعني نصفها.

ويسبق الفقراء الأغنياء وترتفع منازلهم، وتنخفض منازل الذين عمروا الدنيا وخربوا الآخرة ورفعهم الناس في الدنيا؛ فإن الله يخفضهم في الآخرة فالآخرة تتبدل فيها موازين الأرض: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]، تخفض منازل أقوام قد ارتفعت منازلهم في الدنيا، وترفع منازل أقوام قد انخفضت منازلهم في الدنيا.

ومن المحادثة: تخاصم الناس عند توزيع الكتب قال -تعالى-: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة:٢٦]، وأما من أوتي كتابه بشماله، وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته، وأنه إلى العذاب مصيره فيقف هذا المعرض أمام هذا الجمع الحافل الحاشد وقفة المتحسر الكسير الكئيب: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة:٣٣] يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه فلا المال أغنى ونفع، ولا السلطان بقي أو دفع.

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر من الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٣٠].

وعندما تصل جموع المجرمين إلى حافة جهنم يصيبهم انهيار شديد

ويتمنون أمنيات متلاشية: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ [الأنعام:٢٧]، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يذكر الله -تعالى- حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك يقولون: (يا ليتنا) ومن العجب أنهم يقولون أثناء تمنيهم: (ونكون من المؤمنين) بينما هم كانوا يحاربون المؤمنين ويحاربون كلمة التوحيد ويستهزؤون بمن يدعون إليها فلماذا إذن يتمنون أن يكونوا من المؤمنين !!! ولماذا الآن ولم يكن ذلك في الدنيا!

إنه النفاق الذي لا زال عالقًا فيهم حتى وهم أمام النار يشاهدونها فهم يظنون أن نفوسهم تخفى على الله وأنهم يستطيعون أن يمكروا بالله؛ لذلك يستخدمون الكذب وكل ما يملكون من وسائل التعبير والإقناع لينجوا من العذاب الحتمي. وبدا لهم واضحًا كفرهم ونفاقهم الذي كانوا يخفون على المؤمنين: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا رغبة ومحبة في الإيمان؛ بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاء ما كانوا عليه من الكفر؛ فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

***

الحوض المورود

أيها المسلمون:

الوصية التي تبذل، ويوصى بها دائمًا، هي تقوى الله -سبحانه وتعالى- في السر والعلانية، وفي الغضب والرضا. والتقوى وصية الله -تعالى- لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وهي وصية رسول الله ﷺ لأصحابه ولمن بعدهم ذكورًا وإناثًا يقول ﷺ: (اتق الله حيثما كنت) رواه الترمذي، ويقول لامرأة: (اتقي الله واصبري) رواه البخاري، ومعنى التقوى: أن يطاع الله فلا يُعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وقال: طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وتترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله.

إن المتقين هم الذين يتقبل الله منهم كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وهم الذين ترفعهم تقواهم إلى تقديم مرضاة الله -تعالى- على رضا خلقه وعبيده.

أيها الناس: يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته: (اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة) اعلموا -رحمكم الله تعالى-، أن الله جلت قدرته، وتعالت عظمته، سيحشر الأموات جميعًا الأولين والآخرين، السعداء والأشقياء يجمعهم الله في صعيد واحد، قال الله

-تعالى-: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ويقول -تعالى-: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وفي هذا الموقف العظيم تدنو الشمس من الخلق، فيصيبهم من الكرب والغم والحر ما لا يطيقون ولا يتحملون يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته: (يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه)، ويقول ﷺ في الحديث المتفق عليه أيضًا: (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم)، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الناس يوم القيامة، حفاة عراة غرلًا. قلت: يا رسول الله الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة الأمر أشد من أن يهمهم ذلك)، وفي رواية: (الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض) رواه البخاري ومسلم.

أيها الناس: وفي هذه الأجواء، الشديدة الحرارة، المليئة بالأهوال والكروب، يكون الناس أحوج ما يكونون إلى ما يروون به ظمئهم، إنهم أحوج ما يكونون إلى ما يقطعون به الظمأ وكم يتمنون، وتتوق نفوسهم إلى ورود حوض نبيهم محمد ﷺ وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يكرم نبيه محمدًا في هذا الموقف العظيم بإعطائه حوضًا، واسع الأنحاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وآنيته كنجوم

السماء في عددها ونورها ولمعانها، يأتي هذا الماء الطيب من نهر الكوثر ترد عليه أمة محمد ﷺ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وحاجة الناس إليه وشرب المؤمنين منه، قبل المرور على الصراط كما قال ذلك بعض العلماء، وقد ورددت أحاديث صحيحة تذكر الحوض وأوصافه.

ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه تسعة عشر حديثًا فمن الأحاديث:

١- عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (حوضي مسيرة شهر، و زواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منه فلا يظمأ أبداً) متفق عليه.

٢- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه) قالوا يا رسول الله: أتعرفنا يومئذٍ؟ قال: (نعم لكم سيماء ليست لأحد من الأمم، تردون عليّ غرًا محجلين من أثر الوضوء) رواه مسلم، ومعنى أبعد منه أيلة من عدن: أي بعد ما بين طرفي حوض النبي ﷺ أزْيَد من بعد أيلة وهي في شمال بلاد العرب من عدن وهي في جنوب بلاد العرب.

٣- وفي رواية له عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُقال: (ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء).

٤- وفي رواية أخرى له عن ثوبان رضي الله عنه قال: سئل عن شرابه. فقال: (أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق) معنى يغت يعني: يصب، والحديث رواه مسلم.

أيها المسلمون: مَنْ الذين يردون الحوضِ منْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟ ومَنْ الذين يمنعون ويصدون ويؤخذون دونه؟

لقد وردت أحاديث كثيرة بين فيها الرسول صلى الله عليه وسلم الذين يردون على حوضه، والذين يمنعون من الشرب منه فمن ذلك ما روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إلي رجال منكم، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني (أخذوا بسرعة) فأقول: أي رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ وفي رواية: فأقول سحقًا لمن بدَّل بعدي) أخرجه البخاري ومسلم.

وروى البخاري ومسلم عن أبي حازم رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا، وليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم).

وللبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: (بينما أنا قائم على الحوض، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: هلم: فقلت إلى أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: وما شأنهم؟ فقال: إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أخرى، حتى عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم، قلت: إلى أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال إنهم قد ارتدوا على أدبارهم، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم)،ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: (ترد علي أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله، قالوا: يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم لكم سيماء ليست لأحد غيركم، تردون غرًا محجلين من آثار الوضوء، وليصدن عني طائفة منكم، فلا يصلون، فأقول: يا رب هؤلاء من أصحابي، فيجيء ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟) قال القرطبي رحمه الله قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه مالا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المبعدين عنه، وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع. ثم البعد قد يكون في حال، ويقربون بعد المغفرة إن كان

التبديل في الأعمال، ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يعرفون به، ثم يقال لهم: سحقًا، وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يكشف لهم الغطاء فيقال لهم سحقًا سحقًا، ولا يخلد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان). ا.هـ.

أيها المسلمون: قال الله - تعالى -: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ [الكوثر: ١ـ٣]، ورد أن سفهاء الكفار ممن كان يكيد لنبي الله ﷺ ودعوته ليصرفوا الناس عن الاستماع للحق، كانوا يقولون: إن محمدًا أبتر، يشيرون بذلك إلى موت الذكور من أولاده بل قال أحدهم: دعوه فإنه يموت بلا عقب وينتهي أمره، وكان هذا اللون من الكيد يجد له موقعًا يفرح به أعداء الله، وبالمقابل كان يوجع قلب النبي ﷺ فنزلت هذه السورة تطمينًا لرسول الله، ووعدًا له بالخير الوفير وإيعادًا لأعدائه بالبتر وهو القطع.

إنا أعطيناك الكوثر: أعطيناك ما هو كثير وفائض من الخيرات والمسرات، لقد أعطي - صلوات ربي وسلامه عليه - النبوة، وأعطي القرآن، ويذكر بالملأ الأعلى، وأعطي هذه السنة الممتدة على مدار القرون في أرجاء الأرض، وناله ثواب الملايين بعد الملايين السائرة

على أثره، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه التي تهتف باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وسنته إلى يوم القيامة.

لقد أعطي -صلوات الله وسلامه عليه- خيرًا كثيرًا فاض على البشرية، في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه، ومن بين الخير الكثير الذي أعطيه ﷺ نهر الكوثر. وقول الله -تعالى-: (فصل لربك وانحر) هذا توجيه لرسول الله ﷺ إلى شكر النعمة، بإفراد الله وحده بالعبادة ومنها الصلاة والذبح فشكر الله واجب. إن شكر الله ﷻ من أهم المهمات، وأوجب الواجبات، وأفضل العبادات، قال الله تعالى -: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وأهل الشكر هم القليل من عباد الله، كما قال - تعالى -: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ولقد قام رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - بالعبودية لله تحقيقًا لمقام الشكر لله فقد ثبت عنه ﷺ أنه كان يقوم من الليل يصلي، حتى تورمت قدماه، فقيل له في ذلك: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: (أفلا أكون عبدًا شكورًا) رواه البخاري ومسلم.

***

الصـــلاة

صلوا كما رأيتموني أصلي

أيها المسلمون:

المساجد بيوت الله ﷻ، يجد المؤمن فيها الأمن والأمان، والراحة والاطمئنان، يقول الحسن بن علي رضي الله عنهما: (من أدام الاختلاف إلى المسجد أصاب ثماني خصال: آية محكمة، وأخاً مستفادًا، وعلمًا مستطرفًا، ورحمة منتظرة، وكلمة تدل على هدى، أو تردعه عن ردى، وترك الذنوب حياءً أو خشية). إن بيوت الله شُيدت لإقامة العبادة فيها، وعلى رأس العبادة الصلاة فهي آكد الفروض، وأعظم الواجبات، فالتذكير بها من الأمور المهمة، وإن كانت منزلتها ومكانتها معروفة لدى المسلمين، ولكن التذكير بكيفية أدائها مهم، فإن الصلاة لا تكون مقبولة ما لم تكن على الكيفية التي أمر الرسول ﷺ بها حيث يقول: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، فلابد إذن من الوقوف على ذلك، والتنبيه على بعض المخالفات التي يقع فيها بعض المصلين عن غير قصد، وطالما أن الصلاة بهذه المكانة الرفيعة، والمنزلة العالية فإن المسلم العاقل يحرص أشد الحرص، على أن تكون صلاته صحيحة مقبولة، كي تقبل أعماله كلها لأن الله -تعالى- لا يقبل أي عمل ما لم تقبل الصلاة، فالله المستعان.

أيها المسلمون:

الوضوء مفتاح الصلاة فلا تقبل إلا بطهارة، وهناك مخالفات يقع

فيها بعض الناس عند الوضوء منها: الجهر بالنية عند الوضوء، يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يكن النبي ﷺ يقول في أول الوضوء نويت رفع الحدث، ولا استباحة الصلاة، لا هو ولا أحد من أصحابه)، ولم يرد الدعاء عند غسل الأعضاء، يقول ابن القيم: ولم يحفظ عنه ﷺ أنه كان يقول على وضوئه شيئاً غير التسمية، ولم تثبت عنه غير التسمية في أوله، وقوله: ((أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)).

- ومن المخالفات في الوضوء: الإسراف في الماء قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: من فقه الرجل قلة ولوعه بالماء. وفي الحديث: (إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطُّهور والدعاء) رواه أبو داوود، أي: يتجاوزون عن الحد بالزيادة على ثلاث غسلات، والمبالغة في الغسل إلى حد الوسواس.
- ومن المخالفات: عدم إسباغ الوضوء يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم قال: ويل للأعقاب من النار) رواه البخاري، فليتق الله أناس لا يكملون غسل أعضاء الوضوء، وفي الحديث قال ﷺ: (من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة، فصلاها مع الناس، غفر الله له ذنوبه) رواه مسلم.

- ومن المخالفات: عدم التنزه من البول فقد: مرَّ النبي ﷺ بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان.... ثم قال: وأما الآخر فكان لا يستنزه من البول) رواه البخاري ومسلم.
- ومن المخالفات التي يقع فيها بعض المصلين: الجهر بالنية عند ابتداء الصلاة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مخالفات الوضوء، وأنه لم يرد عن الرسول المصطفى ﷺ الجهر بالنية ولو مكث الإنسان عمر نوح عليه السلام، يفتش هل فعل ذلك رسول الله أو أحد من أصحابه لما وجد ذلك.
- ومن المخالفات: الجهر بالقرآن والأذكار، أثناء الصلاة ففي الحديث قال ﷺ: (ألا إن كلكم مناجٍ ربه فلا يؤذين بعضكم بعضاً) رواه أبو داود؛ ولقد سئل الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله عن حكم رفع الصوت بالقراءة أثناء الصلاة للمأموم بحيث يخلف من بجانبه من المأمومين فأجاب: (السنة للمأموم الإنصات لقراءته وسائر أذكاره ودعواته، لعدم الدليل على جواز الجهر، ولأن في جهره تشويشًا على من حوله من المصلين).
- ومن المخالفات: قول بعض المأمومين عند قراءة الإمام: (إياك نعبد وإياك نستعين): استعنا بالله. قال الإمام النووي رحمه الله: لقد اعتاد كثير من العوام أنهم إذا سمعوا قراءة الإمام: (إياك نعبد وإياك نستعين)

قالوا: إياك نعبد وإياك نستعين، وهذا بدعة منهيٌ عنها.

- ومن المخالفات: عدم إقامة الظهر في القيام والجلوس والركوع والسجود، ففي الحديث يقولﷺ: (لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه في الركوع والسجود) رواه ابن ماجه، وفي الحديث الآخر: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته. قالوا: يا رسول الله وكيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها وسجودها) رواه الإمام أحمد، والكيفية المطلوبة وردت في أحاديث منها: (كان ﷺ إذا ركع سوّى ظهره حتى لو صب عليه الماء لاستقر) رواه ابن ماجه، وقال - عليه الصلاة والسلام - للمسيء صلاته: (فإذا ركعت فاجعل راحتيك على ركبتيك وامدد ظهرك ومكّن لركوعك) رواه الإمام أحمد وغيره.
- ومن المخالفات: انتظار الإمام إن كان ساجدًا حتى يرفع، أو جالسًا حتى يقوم، الأصل أن يدخل المصلي مع الإمام على أي هيئة وجده، ففي الحديث الصحيح قال ﷺ: (إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا) رواه البخاري، وأخرج الترمذي: (إذا أتى أحدكم الصلاة والإمام على حال فليصنع كما يصنع الإمام).
- ومن المخالفات: أن المأمومْ قد يفرغ من قراءة التشهد الأول، والإمام لا يزال جالسًا، فيسكت أو يكرر التشهد، والصواب أنه إذا أنهى التشهد يدعو بما أحب لقوله -عليه الصلاة والسلام-: (إذا قعدتم بين

كل ركعتين فقولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه) رواه الإمام أحمد وغيره.

- ومن المخالفات: أن يقوم من فاته جزء من الصلاة لقضاء ما فاته قبل تسليم الإمام، ففي الحديث يقول ﷺ: (أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقعود ولا بالانصراف فإني أراكم أمامي ومن خلفي) رواه مسلم، وقد سئل الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله هل يجوز للمسبوق أن يقوم لقضاء ما فاته قبل أن يكمل الإمام التسليم؟ فأجاب: لا يحل له ذلك، وعليه أن يمكث جالسًا حتى ينتهي الإمام من التسليمة الثانية، فإن قام قبل انتهاء سلام الإمام ولم يرجع انقلبت صلاته نفلًا وعليه إعادتها لأن الواجب على المأموم أن يبقى مع إمامه حتى تتم صلاة الإمام.
- ومن المخالفات: مسابقة الإمام، وقد ورد النهي الشديد عنها فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار، أو يجعل الله صورته صورة حمار)، وفي لفظ آخر: (أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوّل الله رأسه رأس كلب).

- ومن المخالفات: عدم تسوية الصفوف، وتساهل البعض في سد الفُرَجْ، التي تكون بين المصلين وقد وردت أحاديث كثيرة بالأمر بالتسوية والتراص وإكمال الصفوف يقول ﷺ: (لتسوُّن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم) رواه البخاري، وفي الحديث: (أقيموا صفوفكم وتراصوا) رواه النسائي، وفي الحديث الآخر: (أقيموا الصف في الصلاة فإن إقامة الصف من حسن الصلاة، سووا صفوفكم فإن تسوية الصف من إقامة الصلاة).
- ومن المخالفات: إتيان المسجد بعد أكل الثوم أو البصل أو نحوهما مما له رائحة كريهة يقول - عليه الصلاة والسلام -: (من أكل من هذه الشجرة، فلا يقربن مسجدنا، ولا يؤذينا بريح الثوم)، وفي رواية: (فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم) رواهما مسلم، وفي رواية للبخاري: (من أكل ثومًا أو بصلًا فليعتزلنا، أو قال فليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته).

وألحق بعض أهل العلم، شارب الدخان بآكل الثوم والبصل، لاشتراك كل منهما في رائحته الخبيثة قال ﷺ: (من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم) رواه الطبراني. فإذا كان المؤذي للمسلمين في طريقهم مستحقًا للعن، فكيف بمن آذاهم في مساجدهم؟

قال بعض العلماء: انظر يا أخي –حماك الله– من كل ذي رائحة كريهة،

كيف نهى النبي ﷺ عن قربان المساجد من أكل ثوماً أو بصلًا أو غيرهما، مما له رائحة كريهة، وهل لا يخطر على بالك أن شارب الدخان أشد أذىً منهما، على أن أكل الثوم والبصل لا ضرر في أكلهما، بل فيهما فوائد كثيرة، وشرب الدخان ضرره كثير ولا نفع فيه نسأل الله العافية.

- ومن المخالفات: ترك التجافي في السجود، أو عدم تمكين الأعضاء السبعة من السجود روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة وأشار بيده إلى أنفه واليدين والركبتين وأطراف القدمين)، فمن رفع قدميه عن الأرض، أو جعل إحداهما على الأخرى، أو لم يمكن جبهته أو أنفه من الأرض، فقد خالف السنة؛ والتجافي المطلوب في السجود صفته: أن يرفع بطنه عن فخذيه، ويبعد عضديه عن جنبيه بقدر الإمكان، ولا يضايق من يليه، وأن يرفع ذراعيه عن الأرض ولا يبالغ في التجافي كثيرًا حتى يكاد يصل رأسه إلى الصف الذي أمامه، تقبل الله من الجميع صلاتهم.

***

فضل يوم الجمعة وصلاتها

الحمد لله الذي فضّل أمة محمد على سائر الأنام، وخصهم بيوم الجمعة المفضل على سائر الأيام، وأوجب السعي لصلاتها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين القائل: (لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين)، ورضي الله عن صحابته الغر الميامين الذين حافظوا على الجمع والجماعات، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون: لا يخفى ما ليوم الجمعة من الفضائل والخصائص التي ليست لسائر الأيام، فهو سيد الأيام وأعظمها عند الله، كما في الحديث عن النبي - عليه أفضل الصلاة والسلام أنه قال-: (خير يوم طُلعت عليه الشمس يومُ الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها) رواه مسلم، وهو اليوم الذي أدخره الله لنا وخصنا به وبصلاته، فكان لليهود يومُ السبت، وللنصارى يوم الأحد، فهدانا الله ليوم الجمعة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:

(نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيْد أنهم أوتوا الكتاب قبلنا، ثم إن هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد) رواه البخاري، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: (من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه) رواه أصحاب السنن والإمام أحمد، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة: (لقد هممت أن آمر رجلًا يصلي بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم) رواه مسلم والحاكم، ولقد رغب -صلوات الله وسلامه عليه- في أداء صلاة الجمعة والسعي إليها فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: (من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصى فقد لغا) رواه مسلم وغيره، فهذا الفضل العظيم يحصل لمن جاء للصلاة واستمع الخطبة وأنصت فلم يشتغل أو يعبث بشيء، وفي الحديث الآخر قال النبي ﷺ: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) رواه مسلم وغيره، وعن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا من الصلاة علي فيه، فإن صلاتكم يوم الجمعة معروضة علي، قالوا: وكيف

تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت -أي بليت- فقال: إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

أيها الكرام:

ليوم الجمعة خصائص كثيرة منها:

- استحباب كثرة الصلاة على النبي في يومها وليلتها لقوله ﷺ: (أكثروا من الصلاة علي يوم الجمعة وليلة الجمعة) رواه أبوداود.
- الاغتسال في يومها لحديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: (من جاء إلى الجمعة فليغتسل) رواه البخاري.
- وكذلك التطيب، والتسوك، ولبس أحسن الثياب.
- التبكير للصلاة والاشتغال بالذكر والقراءة والإنصات للخطبة حيث لا جمعة لمن تكلم والإمام يخطب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب فقد لغوت) رواه البخاري، وفي رواية: (ومن مس الحصى فقد لغا) رواه أبوداود وفي المسند: (والذي يقول لصاحبه أنصت فلا جمعة له) رواه الإمام أحمد.
- فيها ساعة الإجابة، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئًا إلا أعطاه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يُقللِها) رواه البخاري ومسلم، وهي بين خروج

الإمام إلى أن تنتهي الصلاة كما قال النبي - صلوات وسلامه عليه -: (هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الصلاة) رواه البيهقي، أو بعد العصر لحديث: (إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر) رواه أبوداود.

- للماشي إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها لقول النبي ﷺ: (من غسل واغتسل يوم الجمعة، وبكّر وابتكر، ودنا من الإمام وأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها وذلك على الله يسير) رواه الإمام أحمد.
- أنه اليوم الذي تفزع فيه السموات والأرض، والجبال، والبحار، والخلائق كلها، إلا شياطين الإنس والجن ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: (لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة، وما من دابة إلا وهي تفزع يوم الجمعة إلا هذين الثقلين من الجن والإنس) رواه ابن خزيمة وابن حبان.
- أن للصدقة فيها مزية على غيرها في سائر الأيام والصدقة فيها بالنسبة لأيام الأسبوع كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى أشهر السنة.
- عرض أعمال الأحياء على أقاربهم من الموتى فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أعمال بني آدم تعرض عشية كل خميس ليلة الجمعة فلا يقبل عمل قاطع رحم).

- قراءة سورة الكهف في يومها فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له ما بين الجمعتين) رواه البيهقي والحاكم.

أيها المسلمون:

من البدع المستحدثة في يوم الجمعة والتي يجب الابتعاد عنها: تخصيص ليلتها بصلاة أو يومها بصيام لقول النبي ﷺ: (لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم) رواه مسلم.

ومما يجب تركه: قيام بعض الجالسين للصلاة بين الخطبتين.

ومما يجب تركه: تخطي الرقاب يوم الجمعة مع كمال الصفوف وعدم وجود الفُرَجِ لحديث: (جاء رجل يتخطى رقاب الناس والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة فقال له: اجلس فقد آذيت، وآنيت) أي: آذيت الناس بتخطيك رقابهم، وآنيت أي: تأخرت بالمجيء إلى الصلاة، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: (يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها يلغو فذلك حظه منها، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله إن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت لم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدًا فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام) رواه أبوداود.

***

وقد خاب من حمل ظلماً

أيها المسلمون:

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة).

إذا أحب الإنسان نفسه وأعجب بها، وأراد رفع ذاته على حساب غيره، فإن الظلم يلازمه والكبر لا يفارقه، ويكون سعيه دائمًا وأبدًا وراء هواه، وما تطلبه نفسه الأمارة وتشتهيه، لا يقر بخطأ، ولا يعترف بجرم، ولا يشعر بتأنيب ضمير، يرى أنه على صواب دائمًا، وأن غيره على خطأ دائمًا، ويرى أنه قد أحسن، وأن غيره قد أساء.

وإذا ساد هذا الفهم المعكوس فردًا من الأفراد، أو أمة من الأمم، فإن الهلاك يكون قريبًا، والدمار يكون موشكًا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، والظلم قد يقع من الإنسان على نفسه، وذلك بالتكبر على خالقه، فلا يعبده، ولا يوحده، وذلك أشد أنواع الظلم، يقول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وتأتي المعاصي كبائرها وصغائرها بعد الشرك؛ لأنها توجب العقوبة، فإذا اختار الإنسان لنفسه أن يعاقَب فقد ظلم نفسه.

وقد يظلم الإنسان غيره، وسواء ظلم نفسه أو ظلم غيره، فكلاهما جرم شنيع، وذنب فظيع، ولذا فقد نزّه الرب -تبارك وتعالى- نفسه عن

الظلم، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، وفي الحديث القدسي الصحيح يقول -تعالى-: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا) رواه مسلم.

إن مرارة الظلم على المظلوم شديدة، ولذلك كان جزاء الظالم فظيعًا في الدنيا والآخرة.

ففي الآخرة يكون الظالم في ظلمات يتخبط فيها، وهو لا يدري إلى أين يسير. فإن كانت له أعمال صالحة من صلاة وصيام وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فسوف يقتص منه المظلومون، وهذه حقيقة لا تقبل الجدل ولا المناقشة، فأين من يتذكر أو يعي؟

روى مسلم في صحيحه أن نبي الله ﷺ قال لأصحابه: (أتدرون مَنْ المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار).

وليس القصاص مقصوراً على البشر، بل إن من عدل الله عز وجل أن البهائم في الآخرة يقتص بعضها من بعض، روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة

الجلحاء من الشاة القرناء)، والجلحاء التي لا قرن لها.

فالمسلم العاقل يحرص على أن يتخلص من الظلم، وذلك برد الحقوق إلى أصحابها، والتوبة إلى الله – تعالى- بالتحلل من المظلومين، فالقصاص غدًا ليس بالريالات والممتلكات، ولكنه بالحسنات والسيئات.

روى البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه من عرضه أو من شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه).

وقد يتساهل البعض بالشيء اليسير في نظره، ولكنه عندالله عظيم.

روى البزار والطبراني بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: (من ضرب مملوكه سوطًا ظلمًا اقتصّ منه يوم القيامة)، وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من اقتطع حقّ امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة) فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ فقال: وإن كان قضيبًا من أراك) رواه مسلم، والأراك: شجر يستاك بأعواده.

وإذا كان الوعيد الشديد على الظالم هائلًا مخوفًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد توعده بالانتقام منه في الحياة الدنيا، وقد يمهله ربُّه فلا يعاقبه إلا في الآخرة،روى البخاري ومسلم عن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ

رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

أيها المسلمون:

ليقف كلٌ منا مع نفسه وقفات مفكرًا في مآله ومصيره ونهايته، ما دام في أجله فسحة،وما دامت الفرصة ممكنة.

فقد يقع الإنسان في الظلم من غير أن يفكر في ذلك، كاستهانة بعض أصحاب المؤسسات والكفلاء بظلم عمالهم وخدمهم وموظفيهم، بتأخير رواتبهم، أو بنقصها، أو بتكليفهم فوق ما يطيقون.

بل إن الإنسان قد يقع في الظلم في بيته، وبين أسرته فيفضل بعض أولاده على بعض،أو يفضل زوجة على أخرى إذا كان لديه أكثر من زوجة، أو يؤخر بناته عن تزويجهن،أو يزوجهن من غير الأكفاء،أو يمنع القريبة حقها من الميراث، أو يأخذ راتبها إلى غير ذلك من ظلم يقع على الأقربين، سواء كانوا تحت ولاية الشخص، أو قريبين منه.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) رواه مسلم، وروى مسلم أيضًا عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: إن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلامًا كان لي، فقال رسول الله ﷺ: أكلُّ ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا! فقال رسول الله ﷺ: (فأرجعه). وروى أبو داود وابن ماجه

بسند صحيح أن رسول الله ﷺ قال: (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقّه مائل).

وهل يتصور الظالم أنه سيعيش مدى الحياة؟.

الناس جميعًا يعرفون أن الدنيا إلى زوال، ولا يغتر بها إلا مغرور، إن أضحكت أبكت، وإن سرت أحزنت، كم من غني ذاق فقرها؟ وكم من عزيز تجرع ذلها؟ وكم من آمن ذاق خوفها؟

تاريخ البشرية ملئ بالعظات والعبر، زاخر بالنماذج التي أضحى فيها الآمر مأمورًا، والعزيز ذليلَا، وكم من ظالم ذاق من الكأس التي أذاقها غيره؟

والمسلم ليس بالشامت ولكنه المتعظ المعتبر، الذي يستفيد من الأحداث، فيعلم حقارة الدنيا، وتقلب أحوالها، وينيب إلى ربه الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه.

أيها المسلمون:

اعلموا - رحمكم الله تعالى -؛ أن دعوة المظلوم على ظالمه مستجابة، فقد قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) رواه البخاري ومسلم.

بل إن الله عز وجل قد يقبل دعوة المظلوم، وإن كان فاجرًا على ظالمه وإن كان صالحًا، فليس فجور الإنسان مسوغًا لأن يُظلَم، وهذا من عدل الإسلام.

أيها المسلمون:

وضد الظلم العدل، وهو أسمى غاية، وأشرف وسيلة، وأعظم مطلوب، وهو واسع المجال، شمل كلّ ميادين الحياة، وهو أساس الملك، ومعيار السعادة، ومقياس الحضارة، إذا ساد أمةً من الأمم حُفظت الحقوق، ونصر المظلوم. وإذا فشا الظلم تهدم البنيان، وتصدع العمران، وانتشر في المجتمع الفساد والخراب.

وبالعدل قامت السموات والأرض، فهو أساس الاطمئنان، ومفتاح الحق، ومؤلف القلوب، يقوى به الضعيف، وينقطع به طمع الظالم، وهو الأساس الذي أخرجت من أجله هذه الأمة، وهي مأمورة بالعدل في حياتها كلها:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء: ٥٨].

***

الــــزكاة

من أركان الإسلام: الزكاة

أيها المسلمون:

روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان).

هذه الأركان الخمسة هي أصل الدين وأساسه، فالشهادتان هما المنجيتان صاحبهما من الخلود في النار، وكل ما في الإسلام من أحكام وحدود وفروض إنما يأتي بعد الشهادتين يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) رواه مسلم.

وأما بقية الأركان الأربعة فهي أساس العبادات فما واقع المسلمين تجاه هذه العبادات الأربع؟ إننا نجد اهتمامًا بها ولله الحمد والمنة، ولكن هناك من المسلمين من يهتم بالصلاة والصيام والحج حيث لا يكتفي بالفرائض، من هذه العبادات بل يأتي بالنوافل وهذا عمل مبارك، لأن النوافل تكمل الخلل الذي يقع في الفرائض بينما نجد هؤلاء يتساهلون في ركن الزكاة فإما أن لا يخرج المسلم زكاة ماله أصلًا، أو يخرج جزءً يسيرًا لا يغطي إلا قليلًا من ماله، أو يخرج الزكاة ولكن يعطيها غير مستحقيها إلى غير ذلك من صور التساهل.

أيها المسلمون:

يقول الله -تعالى-: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ويقول: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولقد ذكرت في كتاب الله بعد الصلاة في مواضع كثيرة مما يدل على أهميتها، فهي الركن الثالث بعد الشهادتين ولهذا قاتل الصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة وعدّوهم مرتدين بمنعها، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة)، ويقول: (والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم على منعه) جملتان من حديث رواه البخاري ومسلم.

والزكاة تزكية للنفوس، وتطهير لها من الدنس والأوزار، قال -تعالى-: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وتزكية النفس فلاح كبير، كما قال -عز من قائل-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وهي تربي في نفس المزكي الثقة المطلقة بما عند الله أكثر من الثقة بما في يده، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: (أنفق يابن آدم يُنْفَقْ عليك) رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون:

لقد أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم مانعي الزكاة بالعذاب الغليظ في الآخرة، لينبه بهذا الوعيد القلوب الغافلة، ويحرك النفوس الشحيحة، إلى البذل

والعطاء والمواساة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من آتاه الله مالًا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه -يعني بشدقيه- ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الشجاع: الحية الذكر، والأقرع: الذي لا شعر له لكثرة سمه، والزبيبتان: نقطتان سوداوان فوق العينين وهو أخبث الحيات، وروى الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال: (ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح، ثم أحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وما من صاحب بقر ولا غنم، لا يؤدي حقها إلا أُتي بها يوم القيامة، تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)، وروى الطبراني قول النبي ﷺ: (ويل للأغنياء من الفقراء، يوم القيامة يقولون: ظلمونا حقوقنا التي فرضت عليهم، فيقول الله -تعالى-: وعزتي وجلالي

لأدنينكم ولأباعدنهم، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩]، وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: (عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة:فالشهيد، ومملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده، وعفيف متعفف، وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير مسلط، وذو ثروة من مال لا يؤدي حق الله -تعالى- في ماله، وفقير فخور).

وإذا كانت هذه العقوبة يوم القيامة فقد توعد رسول الله ﷺ من يمنعون الزكاة بالمجاعات والقحط والشدة يقول ﷺ: (ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين) رواه الحاكم وغيره، والمقصود بالسنين جمع سنة، وهي: القحط، وفي حديث رواه ابن ماجه: (ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولو لا البهائم لم يمطروا)، وفي حديث رواه البزار يقول فيه النبي ﷺ: (ما خالطت الصدقة - أو قال الزكاة- مالًا إلا أفسدته)، وروى الطبراني: (ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة).

أيها المسلمون:

ما الأموال التي تجب فيها الزكاة؟ الزكاة تجب في أربعة أشياء:

أولًا: الخارج من الأرض من الحبوب والثمار إذا بلغ الخارج نصابًا، ولا تجب الزكاة في الفواكه والخضروات لأنها ليست بحب ولا ثمر.

الثاني: بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، إذا بلغت نصابًا وكانت ترعى العشب، فإن كان صاحبها يطعمها وقد أعدها للتكسب بالبيع والشراء، فهي تزكى أيضاً زكاة تجارة إذا بلغت نصاب التجارة بنفسها أو بضمها إلى تجارته.

الثالث: الذهب والفضة أو ما يقوم مقامهما من العملات إذا بلغ نصابًا، ومقدار الزكاة منها ربع العشر، والنصاب مبلغ ليس بالكثير لكى لا يكون إخراج الزكاة مقصورًا على الطبقة الغنية كثيرًا.

والرابع: عروض التجارة، وهي كل ما أعد للتكسب من عقار وحيوان وأطعمة وأشربة وغير ذلك من أصناف المال، فيقومها كل سنة بما تساوي، ويخرج ربع عشر قيمتها زكاة.

وأما ما أعد للحاجة من العقار والسيارات والفرش والحيوانات وغير ذلك، فلا زكاة فيه؛ هذه هي لأشياء الأربعة التي تجب فيها الزكاة.

أيها المسلمون:

مَنْ هم أهل الزكاة؟ يقول الله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[التوبة: ٦٠]، ففي هذه الآية الكريمة بين الله -تعالى- مصارف الزكاة وأهلها المستحقين لها بمقتضى علمه وحكمته وعدله ورحمته، وبين أن صرفها لهذه الأصناف الثمانية

فريضة لازمة، صادرة عن علم الله -تعالى-، لأن الله أعلم بمصالح خلقه: ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾[البقرة: ١٤٠] ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

- **الصنف الأول والثاني**: الفقراء وهم الذين لا يجدون كفايتهم وكفاية عوائلهم، والمساكين وهم الذين يجدون بعض كفايتهم، فهم أحسن حالًا من الفقراء.

قال العلماء: فيعطون من الزكاة ما يكفيهم وعوائلهم لمدة سنة كاملة، ويعطى الفقير لزواج يحتاج إليه ما يكفي لزواجه؛ وأما من كان له كفاية فلا يجوز إعطاؤه من الزكاة، وإن سألها بل الواجب أن ينصح، وأن يحذر من ذلك، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما يقول النبي ﷺ: (لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم) رواه البخاري ومسلم، وفي الحديث الآخر: (من سأل الناس أموالهم تكثرًا فإنما يسأل جمرًا فليستقل، أو ليستكثر) رواه مسلم.

- ومن الخطأ أن بعض الناس قد يحتاج في يوم " ما " ولكنه يستغني ومع ذلك تراه يستمر في أخذ الزكاة، وربما لا يرضى لو منعها، فليتق المسلم ربه، وليحذر أخذ الزكاة إذا كان ليس من أهلها، وقد قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: (لا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب) رواه الإمام أحمد.

- ومن الأصناف: الغارمون: وهم الذين يتحملون غرامة، فمن كان عليه دين لا يستطيع تسديده، فإنه يعطى من الزكاة ما يوفي به دينه وإن كثر، ومن الغارمين من يتحمل دينًا من أجل الإصلاح وإطفاء الفتنة، فإنه يعطى من الزكاة بقدر حمالته تشجيعًا له، على هذا العمل النبيل الذي يقصد من ورائه تأليف القلوب وإزالة الفرقة والأحقاد.

ومن الأصناف: المجاهدون في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، لا يقاتلون لحمية، ولا لعصبية فيعطى المجاهدون ما يكفيهم لحماية الإسلام والذود عنه وإعلاء كلمة الله، وفي الحديث: (من جهز غازيًا فقد غزا) رواه البخاري ومسلم، وفي الحديث الآخر: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) رواه أبو داود.

أيها المسلمون: إن الزكاة لا تدفع في إسقاط واجب، فلا تدفع للضيف بدلًا من ضيافته، ولا لمن تجب نفقته من زوجة أو قريب، ويجوز دفعها للزوجة والقريب فيما سوى النفقة الواجبة فيجوز أن يقضي عن زوجته دينًا لا تستطيع وفاءه، كما يجوز أن تدفع الزوجة زكاتها لزوجها في قضاء دين عليه، فعن سلمان بن عامر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان صدقة، وصلة) رواه الترمذي والنسائي، ولا يجوز أن يسقط الدين عن الفقير وينويه عن الزكاة؛ لأن الزكاة أخذ وعطاء قال -تعالى-: ﴿خُذْ مِنْ

أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أيها المسلمون:

المسلم ينظر إلى المال على أنه يستعين به على طاعة الله ﷻ، وأن جمعه ليس غاية قال -تعالى-: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١-٢]، ولقد أحسن القائل:

أنـــت للمـــال إذا أمـــسكته وإذا أنفقتـــه فالمـــال لـــك

الزكاة تعلم المسلم أن التفاوت في الرزق من صنع الله -تعالى- وتقديره، فهو بعباده خبير بصير، حيث يقول -تعالى-: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦]، ومن دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت).

إن غير المؤمنين يفرحون بإقبال المال عليهم، ولو كان فيه هلاكهم، ويجزعون إذا أدبر عنهم، ويصل الأمر إلى أن يقتل الإنسان نفسه وهو ما يعرف بالانتحار.

أما المؤمن فحاله متقارب عند إقبال الدنيا أو إدبارها، حيث يفطن إلى أن هذا قدر الله، وقدر الله له خير، ويكون الفرح بفضل الله وهدايته وتوفيقه ورحمته: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [يونس: ٥٨].

أيها المسلمون:

ما أجمل أن تسمو مشاعر المسلم المزكي، فيحس أن حاجته للفقير أشد من حاجة الفقير إليه، فهو أشد حاجة للحسنات والثواب يوم القيامة، من حاجة الفقير إلى المال في الدنيا، ولهذا عليه أن يسعى إلى الفقير، ولا ينتظر شكرًا منه، يخطئ البعض فيقيس نعم الله بما يدخل في جيبه، وينسى نعم الله عليه من سمع وبصر وعقل ونطق، فجدير بالمسلم أن يصحح هذه النظرة، وأن يحس بفضل الله عليه، وأنه لو خير بين أيّ نعمة من هذه النعم، وبين قناطير من الذهب ما رضي بالنعمة بديلًا.

أيها المسلمون:

جدير بالمسلمين أن يقتدوا برسولهم ﷺ وصحابته رضي الله عنهم في الجود والإنفاق ولا سيما في هذا الشهر المبارك فالقرآن يحث على المسارعة إلى الخير قبل فوات الأوان بالموت، يقول الله -تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

ويقول -تعالى-: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، وفي الحديث: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) رواه الطبراني، وكان الرسول ﷺ في رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة) رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون:

سمعنا منزلة الزكاة في الإسلام، وسمعنا الأصناف التي تجب فيها الزكاة، وعرفنا مقدار ما يخرج منها، والأصناف الذين يستحقونها، فعليك أيها المسلم إن كنت تمتلك نصابًا أن تحرص على هذه الفريضة العظيمة، وأن تتحرى أصحابها الحقيقيين فهي عبادة تتطلب اهتمامًا وحرصًا بالغين.

وفق الله الجميع لكل خير، وكفانا الله كل شر، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

الصـــوم

استغلال شهر رمضان بالطاعات

الحمد لله رب العالمين، أحمده -سبحانه- وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، وهو إمام المتقين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم، وأمته خير الأمم وأصحابه خير أصحاب الأنبياء صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، **أما بعد:**

فيا أيها المسلمون:

اللهم أهل علينا شهرنا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى. اللهم اجعله هلال رشد وخير؛ الحمد لله الذي بلغنا شهر رمضان، ونسأل الله أن يتقبله منا ومن جميع المسلمين، ونسأله بمنه وكرمه أن يرحمنا ويرحم إخواننا المسلمين الذين لقوا ربهم ولم يدركوا هذا الشهر الكريم فليحمد الله امرئ أمهله الله حتى أدرك شهر رمضان.

أيها المسلمون: يدخل هذا الشهر الكريم وتكون بدايته يوم الجمعة ليصوم المسلمون في هذا الشهر خمس جمع -بإذن الله- وإن هذا لفضل عظيم ومنّة كبرى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [يونس: ٨٥].

أيها المسلمون:

يقول الله - جل ذكره-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[النور: ٣١]، ويقول رسول الهدى ﷺ: (كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) رواه الترمذي.

من رحمة الله ﷻ أن فتح باب الأمل والرجاء أمام المخطئين ليتوب إلى ربه مسيئهم ويثوب إلى رشده شاردهم قال الله -تعالى-: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر: ٥٣]، ومن فضل الله ورحمته بعباده أن فتح لهم أبواب التوبة كما ورد في الحديث: (إن الله -تعالى- يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) رواه مسلم.

عباد الله:

التوبة لا يقصد بها التضرع باللسان من غير دليل ولا برهان فإنه لابد مع الاستغفار باللسان من العمل الصالح المقرون بالإخلاص والمتابعة قال الله -تعالى-: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[طه: ٨٢]، والعمل الصالح ليس مقصورًا على لون معين من صلاة ونحوها ولكن العمل الصالح يشمل كل عمل وقول واعتقاد يراد به وجه الله ﷻ فحسن الخلق، وكثرة الاستغفار وذكر الله ﷻ، وقراءة

القرآن والدعاء وحسن الظن بالله ومعاونة العاجزين والبشاشة في وجوه المسلمين وإدخال السرور عليهم، والبعد عن معاصي الله ﷻ كل هذه الأمور وما شاكلها مما يقرب العبد إلى مولاه. وقبل ذلك القيام بأركان الإسلام ومبادئه العظام من الصلاة والزكاة والحج والصيام؛ فاغتنموا هذه الفرصة المواتية، وتذكروا معشر المسلمين أن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل، فأكثروا من التوبة والإنابة والاستغفار يقول نبينا - عليه الصلاة والسلام-: (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة).

أيها الإخوة:

ونحن في بداية أيام ضيف عزيز غال كريم هو شهر رمضان فاجعلوه رحمكم الله شهر توبة وطاعة، وحذار من التفريط والمعصية فإن السعيد من اتعظ بغيره وحاسب نفسه واستغل أيامه الفاضلة وقدم زادًا يجده أمامه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

أيها المسلمون:

كيف لا يكون رمضان ضيف عزيز والمسلمون بعامة مستفيدون منه محسنهم ومسيئهم حيث نوع الله ﷻ في هذا الشهر طرق الخيرات فهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.

فالرحمة للمحسنين المتقين، والمغفرة للمذنبين المفرطين، والعتق لمن استوجب دخول النار بارتكاب الكبائر؛ وما ذلك إلا لأن أحوال

المسلمين، مختلفة ودرجات إيمانهم متفاوتة فمنهم المحسن ومنهم المذنب، ومنهم المستوجب لدخول النار بما عمل من الكبائر وكل من هؤلاء يناله فضل هذا الشهر بما يناسبه.

فالمحسن تناله فيه الرحمة، والمذنب تناله المغفرة إذا تاب من ذنبه، والمستوجب لدخول النار يناله الإعتاق منها إذا تاب إلى ربه وأناب إلى مولاه؛ ولن يخرج أحد من المسلمين عن هذه الأقسام الثلاثة قال الله -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾[فاطر: ٣٢]، فالظالم لنفسه المفرط في بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات، والمقتصد المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، والسابق بالخيرات هو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات.

واعلموا -رحمكم الله تعالى- أن إدراك شهر الصوم فرصة مناسبة للتوبة والإنابة ومغفرة الله ﷻ ألا ما أجمل رمضان عند ما يكون بداية التوبة والإنابة والاستجابة لنداء الرحمن حيث يقول الله -تعالى-: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الزمر:٥٣]. هذا الشهر الذي تحط فيه

الخطايا وترفع فيه الدرجات، وتعتق فيه الرقاب من النيران، وتضاعف فيه الحسنات. فكم من التائبين المنيبين إلى الله في رمضان؟! وكم من المستغفرين من ذنوبهم النادمين في رمضان؟! وكم من المقلعين عن الذنوب والمعاصي المودعين لها في رمضان؟!

أخي المسلم: إنه مهما عظمت وكثرت ذنوبك فأنت مدعو للانضمام إلى قوافل التائبين القاصدة باب الكريم الغني عن خلقه -سبحانه-؛ باب من لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة باب غافر الذنب وقابل التوب؛ قبل أن يقفل هذا الباب بطلوع الشمس من مغربها أو بلوغ الروح الحلقوم؛ وأنت يا أيها المسلم الكريم مدعو للاجتهاد في الأعمال الصالحة وتعويض ما فات قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

***

الحث على العمل الصالح في رمضان

أيها المسلمون: في شهر رمضان يقبل الناس على العمل الصالح بشتى أنواعه فلله الحمد فالشهر الكريم فرصة سانحة لكل مسلم والعاقل من يغتنم الفرص المتاحة كما قيل:

بادر الفرصة واحذر فوتها * فبلوغ العز في نيل الفرص

روى الحاكم بسند صحيح عن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (احضروا المنبر فحضرنا فلما ارتقى النبي ﷺ درجة قال: آمين فلما ارتقى الثانية قال: آمين فلما ارتقى الثالثة قال: آمين فلما نزل قلنا: يا رسول الله سمعنا منك شيئًا ما كنا نسمعه قال ﷺ: إن جبريل عرض لي فقال: بَعُدَ من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت: آمين فلما رقيت الثانية قال: بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقلت: آمين فلما رقيت الثالثة قال: بَعُدَ من أدرك أبويه عنده الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت: آمين) رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحه.

أيها المسلمون: في شهر رمضان يكثر العطاء والذكر والتهجد وفيه تتطهر القلوب، وتتنزل الرحمات، وتستجاب الدعوات. في أيام الشهر المبارك: العطاء الغامر، والقرآن المدوي، والذكر الحكيم، كم تمر بنا هذه الأيام المباركة ونحن بأشد الحاجة إلى أنوارها وهداها وكم نحن بحاجة إلى فعل الطاعات، وعمل الصالحات، وكم نحن بحاجة إلى

التقوى التي تغمر القلوب وتبعث الهمم والتي من أجلها فرض الصيام. وكم نحن بحاجة إلى الدعاء والإخلاص والأخوة الصادقة والصبر الجميل، عسى الله أن يعفو عنا إنه -تعالى- عفو كريم.

أيها المسلمون: إن أيام شهر رمضان رسائل وجهت إلى الناس تقول أيام الشهر الكريم: الحياة قصيرة وليست بحاجة إلى الاهتمام بالتوافه، فالصدق والإخلاص والنقاء زهور جميلة تنعش الآخرين برائحتها وتنعش نفسها بصفاء الآخرين وإخلاصهم. إن المسلم ليلتفت إلى أيام رمضان فيجدها تأتي غذاءً وريًا وراحة وأمنًا، وهي بمثابة المحطة التي تزود الإنسان بالطاقة وتمده بالنشاط وتسلحه بالعزيمة وتحصنه بالتقوى، تأتي وقفة للحساب وصفحة للمراجعة وميزانًا للعمل وموسمًا للمثوبة. عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله مرني بعمل قال: (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) رواه ابن حبان في صحيحه، وفي رواية لابن حبان قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال: (عليك بالصوم فإنه لا مثل له). فكان أبو أمامة لا يرى في بيته الدخان نهارًا إلا إذا نزل به ضيف.

أيها المسلمون: إن الصوم ثوابه عظيم وأجره كثير فقد روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله - تعالى - إلا باعد الله بذلك الصوم وجهه

عن النار سبعين خريفًا) يعني سبعين سنة.

وفي حديث آخر: (الصيام جنة وحصن حصين من النار) رواه الإمام أحمد، وهناك كرامة أخرى للصائم ألا وهي قبول دعوته كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: (إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد) رواه ابن ماجه، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا ترد دعوتهم: وذكر منهم: (الصائم حتى يفطر) رواه الإمام أحمد. إن هذا الجزاء وهذا الفضل يستدعي من المسلم وقفة تأمل ولحظة تدبر ليحصل على هذا الخير ويظفر بهذا الفضل ويحظى بتلك الكرامة بدلًا من ذهاب أيامه وضياع عمره، فليساهم في أنواع الخير الكثيرة بحسب قدرته وهي يسيرة على من يسرها الله عليه فمن ضروب الخير في هذا الشهر: تعجيل الإفطار وتأخير السحور، يقول النبي ﷺ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: (إن أحب عبادي إلي أعجلهم فطرًا) رواه الترمذي، وفي الحديث الآخر: (لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر) رواه البخاري ومسلم، وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (السحور أكلةُ بركة فلا تدعوه ولو أن يجرع أحدكم جرعة من ماء، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ وملائكته يصلون على المتسحرين) رواه الإمام أحمد. إن الكسل والإغراق في النوم لا ينبغي أن يحولا بين

المسلم وإدراك ذلك الفضل العظيم بتناول طعام السحور. كما أن الكسل والنوم لا ينبغي أن يقضي بهما الصائم نهاره فلا تراه إلا نائمًا كسولًا بل عليه أن ينام جزءًا من الليل وجزءًا من النهار لكي يظهر بمظهر القوة والنشاط والفتوة فالتماوت والكسل والفتور ليست من صفات المسلم لأنه جاد من أمةٍ جادة. ومن ضروب الخير العمرة في رمضان ففي الحديث يقول النبي ﷺ: (عمرة في رمضان تعدل حجة أو حجة معي) رواه البخاري ومسلم، ومع ذلك فهي كفارة لما قبلها كما ورد في الحديث الصحيح: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما) رواه البخاري ومسلم.

ومن ضروب الخير في هذا الشهر الكريم: صلاة النوافل، وقراءة القرآن بالتدبر والتعقل، والإكثار من التهليل والتحميد والتكبير والاستغفار والدعوة إلى الله ﷻ، ومواساة الفقراء والمساكين، والاجتهاد في بر الوالدين، وصلة الأرحام، وإكرام الجار، وعيادة المريض إلى غير ذلك من أنواع الخير يقول النبي ﷺ: (ينظر الله إلى تنافسكم فيه فيباهي بكم ملائكته فأروا الله من أنفسكم خيرًا فإن الشقي من حرم رحمة الله) رواه البيهقي والطبراني، ويقول ﷺ: (من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه) رواه ابن خريمة في صحيحه.

ومن ضروب الخير: إشعار المسلم بنعمة الأخوة وعاطفة الرحم، فالذي يعطر الذكر سعي الإنسان لإسعاد أمته وإنهاض بلاده إننا خير أمة ونتبع أعظم قائد ونحمل أسمى رسالة ونحرس أغلا وطن ونواجه أمكر عدو فواجبنا عظيم ومسؤوليتنا كبيرة.

ومن ضروب الخير: الصدقات وهي لا تقتصر على المال بل تشمل جميع الناس في جميع المستويات فالتسامح في المعاملات من الصدقات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه والقرض صورة من الصدقات التي ينال فاعلها كريم الأجر وجزيل الثواب، وكذلك مقابلة الناس بوجه بشوش، وكلمة طيبة، وبسمة صادقة فربما انتزعت من بعض القلوب أشواكًا من اليأس والشر، وأنبتت أزهارًا من الأمل والخير، والإنسان لا يخسر بذلك شيئًا.

أيها المسلمون:

إن للصوم تعاليم وآدابًا يسير عليها الصائم ويلتزمها المسلم ليأخذ ثواب الصوم يقول ﷺ: (الصيام جنة فإذا كان صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم) رواه البخاري، ومعنى أن الصيام جنة: أي وقاية وحصن من الوقوع في المعاصي بمعنى أنه أدعى إلى إمساك زمام النفس وحفظها من المعاصي والآثام ومعنى لا يرفث: أي لا يتلفظ باللفظ القبيح أو الكلام السيئ بل يكون مؤدبًا عف اللسان.

وقد قال رسول الله ﷺ: (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه التعب والسهر) رواه النسائي.

أيها المسلمون:

إن واجب المسلم أن يحفظ لسانه عما لا يحل له سواء في رمضان، أو في غيره، ولكن يتأكد ذلك والإنسان صائم، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله - تعالى - لا يلقي لها بالًا يهوي بها في نار جهنم) رواه البخاري، وفي حديث آخر: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب) رواه البخاري، ومعنى يتبين: يفكر أنها خير، أو لا.

***

رمضان شهر التوبة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله، إلهُ الأولين والآخرين، الذي إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر، وإذا دعي أجاب، وإذا عومل أثاب، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، سبحان من سبحت له السموات وأملاكها، والبحار وحيتانها، والنجوم والجبال والشجر والدواب، والآكام والرمال والروابي والتلال، وكل رطب ويابس، وكل حي وميت، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمةٌ قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله - تعالى - رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها قام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المتقين والفجار، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده أرسله الله رحمةً للعالمين، وإمامًا للمتقين شرح الله صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

اتقوا الله ﷻ فهي وصية الله لجميع خلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ﴾[الحج: ١]، ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها، لما حضرت أبا بكر الوفاة دعا عمر رضي الله عنهما فوصاه بوصية وأول ما قال له: (اتق الله يا عمر)، وكتب عمر إلى ابنه عبدالله: (أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده)، وكتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين).

معاشر المؤمنين: ما أجمل رمضان ! عندما يكون العبد فيه تائبًا منيبًا إلى مولاه، فهو الشهر الذي تحط فيه الخطايا، وترفع به الدرجات، وتضاعف فيه الحسنات.

المسلمون مهما كثرت ذنوبهم، فهم مدعوون للانضمام إلى قوافل التائبين، يقول الله -تعالى-: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[الزمر: ٥٣_٥٤].

ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن يزيد بن الأصم: كان رجل من أهل الشام، ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ففقده عمر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[غافر: ٣]. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي، وفي رواية: فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمرَ خبرُه قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخًا لكم زلّ زلة فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه.

أيها المسلمون: قال الله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[محمد: ١٩]، وقال -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[النساء: ١٠٦]، وقال -تعالى-: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣ ﴾ [النصر: ٣]، الاستغفار والاعتراف بالتقصير مطلوب في سائر الأحوال وهو مطلوب آكد ومأمور به عند الذنب، فالاستغفار علامة على التوبة والإنابة، قال الله -تعالى- عن آدم وزوجه لما وقعا في المعصية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ ﴾[الأعراف: ٢٣]،

وحين قتل نبي الله موسى عليه السلام رجلًا خطأ لم يؤمر بقتله قال ما ورد في كتاب الله - تعالى-: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]، والاستغفار والاعتراف بالتقصير مطلوبان بعد الطاعة فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا) رواه مسلم، وبعد الفراغ من الحج يأمر الله -سبحانه- عباده بالاستغفار قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩]، والاستغفار مطلوب في الأذكار اليومية، فأدعية الصلاة كثيرًا ما يرد فيها الاستغفار، في دعاء الاستفتاح، وبين السجدتين، وفي الركوع، وفي السجود، والاستغفار، مطلوب في كل وقت وحين، عن الأغر المزني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في المجلس الواحد مائة مرة: (رب اغفر لي، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم) رواه أبو داود والترمذي.

وروى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللهم لك أسلمت، و بك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت)، وإنك لتعجب أشد العجب من رسول الله المغفور له أي خطيئة أسرّها وأعلنها

وقدمها وأخرها؟ ولئن كان -صلوات الله وسلامه عليه- وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وعلا ذكره وارتفعت درجته، يستغفر الله في اليوم مائة مرة بل في المجلس الواحد فكيف بنا معشر المذنبين المقصرين!.

وإذا كان الاستغفار بهذه المنزلة فجدير بنا أن لا يفارقنا في أي مجلس، وأن تلهج ألسنتنا دائمًا وأبدًا بالاستغفار والتوبة كل وقت وحين، ألا تعلم -أيها المسلم الكريم- أن الاستغفار يعجب الرب ﷻ يقول النبي ﷺ: (إن ربك يعجب من عبده إذا قال: (رب اغفر لي ذنوبي وهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري) رواه أبو داود وقال: هذا حديث حسن صحيح.

أيها المسلمون: لقد خلقنا الله ﷻلعبادته كما قال -عز من قائل-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة فحقَّ عليهم الاعتناء بما خلقوا له، والإعراض عن حظوظ الدنيا، فإنها دار نفاد لا محلّ إخلاد، ومركب عبور لا منزل حبور) أ. هـ.

عمر الإنسان هو رأس ماله، هو أنفس من المال وأغلى، تصور أيها المسلم الكريم، أن شخصًا جاءه أجله فلو وضع أمواله جميعًا مع غناه، على أن يزاد في عمره يوم واحد، فهل يحصل له هذا التمديد؟ وهل

يعطى هذه الزيادة؟ كلا !!

عمر الإنسان هو موسم الزرع في هذه الدنيا، أما الحصاد فإنه في الآخرة، فهل يليق بالمسلم أن يضيع أوقاته وينفق رأس ماله فيما لا فائدة فيه أو فيما فيه الضرر؟

الإنسان يعرف نفاسة وقته وقيمة العمل فيه في مواطن معلومة وحينئذ يندم على ما أضاع من أوقاته ولكن ندمه لا ينفعه، فإذا جاء الإنسان أجله واستدبر الدنيا واستقبل الآخرة فإنه يتمنى لو منح مهلة من الزمن وأُخِّر إلى أجل، ليصلح ما أفسد ويتدارك ما فات، وفي الآخرة إذا وُفيت كل نفس ما عملت، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون مرة أخرى إلى الحياة الدنيا، ليبدؤوا عملًا صالحًا من جديد، ولكن هيهات لما يطلبون فقد مضى وانتهى زمن العمل وجاء زمن الجزاء والحساب.

الواجب علينا أن نتخذ من مرور الليالي والأيام عبرة لأنفسنا، وأن نغتنم مواسم الخير، فإن الليل والنهار يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويطويان الأعمار ويشيبان الصغار، ويفنيان الكبار.

سأل الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا فقال له: كم أتت عليك: قال: ستون ! قال فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك توشك أن تبلغ.

وقال الحسن البصري يومًا لأصحابه: يا معشر الشيوخ ماذا ينتظر

بالزرع إذا بلغ؟ قالوا: الحصاد قال: يا معشر الشباب إن الزرع قد تدركه العاهة قبل أن يبلغ، أي قد يصاب بآفة لا ينفع معها علاج !!

فيا أيها المسلم الكريم: استثمر وقتك، واغتنم شرف زمانك، وتعرض لنفحات ربك، فهو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، أجاب دعوة أبيك آدم فتاب عليه وغفر له، ونجى نوحًا عليه السلام لما دعاه وأهلك خصومه، وأنجى خليله من النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه، وأهلك عدوه، النمرود ونجى يونس عليه السلام من الكرب العظيم لما هتف بالكلمة العظيمة: (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

ورد الله يوسف إلى يعقوب - عليهما السلام - بعد ما سأله ودعاه، ولبى دعوة موسى عليه السلام فغفر له ومكن له، وانتقم من عدوه فأغرقه وجعله عبرة للمعتبرين، واستجاب لرسولنا ﷺ في المواقف العظيمة التي بلغت فيها القلوب الحناجر وظُن بالله الظنون، فأعطاه الله ما سأل، وأنجز له وعده، وحقق له مراده، وأعلى كلمته، ورفع منزلته، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده وأظهر الحق، وقمع الباطل، وهو على كل شيء قدير.

أيها المسلم الكريم: استثمر وقتك بما يفيد، ولا تكن كمن إذا جاءه هادم اللذات قال: رب ارجعون، ولماذا يطلب الرجعة هل ليبني داره ويؤثث سكنه ويجتهد في تحسين مزرعته كلا ! قال -تعالى-: ﴿رَبِّ

ﱡ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﱠ[المؤمنون:٩٩-١٠٠].

ولكن الرجعة مستحيلة، والعود بعيد، فاعمل أخي المسلم لهذا اليوم واستعد له، واعلم أنه لن يصوم عنك أحد، ولن يصلي عنك أحد، فاعمل لنفسك.

روى الحاكم وصححه وابن خزيمة وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان أول ليلة من رمضان صُفدت الشياطين ومردةُ الجن)، وفي حديث آخر: (أعطيت أمتي خمس خصال في رمضان لم تعطها أمةٌ قبلهم، وذكر منها: وتصفد فيه مردة الشياطين، فلن يخلصوا فيه إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره)، هذه حال شياطين الجن في هذا الشهر الكريم، ولكن ما حال شياطين الإنس؟ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون قال - تعالى-: ﱡ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﱠ[الأعراف: ٢٨].

إن المسلمين في هذا الشهر المبارك مطالبون بأن يحافظوا على دينهم وأخلاقهم مع أنهم مطالبون بذلك في كل زمان ومكان.

أسأل الله أن يمنَّ علينا بالتوبة والقبول.

***

خطبة عيد الفطر المبارك

الله أكبر: تسع مرات.

(الله أكبر ما فاز الصائمون برضا الرحمن، الله أكبر ما صفت النفوس بالطاعة في رمضان، الله أكبر ما تعاطف المسلمون وتلاقوا بالمحبة والمسرة والمصافحة والسلام، سبحان من خلق الخلق بقدرته، سبحان من دبر شؤونهم بحكمته، سبحان من تفضل على المؤمنين برحمته، سبحان من أوجب الفطر في هذا اليوم وحرّم الصيام، الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن نبينا محمدًا رسول الله البشير النذير، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه مصابيح الظلام، وهداة الأنام، أما بعد:

فاتقوا الله معشر المؤمنين، واعلموا أن يومكم هذا يوم سرور لمن صلحت نيته وقبل صومه. دخل رجل على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يوم عيد فوجده يتناول خبزًا خشنًا، فقال: يا أمير المؤمنين: يوم العيد تأكل خبزًا خشنًا، فقال علي: (اليوم عيد من قبل صومه، وشكر سعيه، وغفر ذنبه، ثم قال: اليوم لنا عيد، وغدًا لنا عيد، وكل يوم لا يعصى الله فيه لنا عيد)، والآن، وقد انتهى شهر الصيام ونرجو الله مخلصين، أن يكون شاهدًا لنا لا علينا تظهر آثار الصيام على عباد الله المؤمنين بإخراج زكاة الفطر الواجبة، لقول

ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من شهر رمضان على الناس صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير، أو صاعًا من أقط على كل حر وعبد، ذكر وأنثى من المسلمين) متفق عليه، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا نخرج زكاة الفطر صاعًا من طعام، أو صاعًا من تمر، أو صاعًا من أقط، أو صاعًا من زبيب) رواه مسلم، فأخرجوها عن أنفسكم وعمن تحت أيديكم من الأولاد والبنات والزوجات لكل واحد صاع، وقد قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه الترمذي، ونحن محتاجون إلى الرحمة في كل وقت، فلنرحم غيرنا، فهنيئًا لمن أخرج زكاة الفطر برحمة الله، لأنه يرحم فيها غيره ويعطف عليه. وقد كان سلفنا الصالح يسألون الرحمة لا سيما في يوم العيد. وقف عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بعد صلاة العيد فقال: (اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فارحمني وان لم أكن من المحسنين، فقد قلت: وكان بالمؤمنين رحيمًا فارحمني وإن لم أكن من المؤمنين، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة فاغفر لي وإن لم أكن مستحقًا بشيء من ذلك، فأنا صاحب مصيبة وقد قلت: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٦ – ١٥٧]، اللهم فارحمني).

وآثار الصيام تظهر من صيام المسلمين ستة أيام من شوال فقد قال ﷺ: (من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر) رواه مسلم، وفسر ذلك بأن صيام رمضان بعشرة أشهر وصيام ستة أيام بشهرين فذلك صيام سنة. وآثار الصيام تظهر بتكبير الله ﷻ حتى انقضاء الصلاة وصفة التكبير: **الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.**

أيها الصائمون: هنيئًا لكم وأنتم في عيدكم هذا تفرحون فيه، والله ﷻ هو الذي عجل لكم الفرحة بهذا العيد، وادخر لكم الأفراح الكثيرة. إنها فرحات عظيمة تستقبل المسلم. فأمامه أربعة مواضع يفرح بها:

الأول: حين يوضع في قبره فيرى مكانه في الجنة، يرى الأنهار والحور والقصور فيفرح، ويقول: رب أقم الساعة حتى أعود إلى أهلي ومالي.

الثاني: حين يناديه الجبار في أرض المحشر والملائكة تقول: يارب سلم سلم، يناديه ربه يا عبد الله فيخرج من بين الصفوف فيعطيه ربه كتابه بيمينه فيرجع إلى الناس فيقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ١٩ – ٢٠]، وحينئذٍ يُنَادي: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢١ – ٢٤].

الثالث: حينما يدخل الجنة، وهو جالس مع الحور العين قال الله

-تعالى-: ﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ص: ٤٩ – ٥٢]، عند ذلك يناديهم ربهم: (عبادي أرضيتم؟ فيقولون: كيف لا نرضى وقد رضيت عنا، فيقول: عندي لكم أكبر من ذلك فيقولون: ماذا فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا) قال الله -تعالى-: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ﴾ [التوبة: ٧٢].

الرابع: يوم يكشف الله عن وجهه الحجاب فينظر عباده إليه قال الله -تعالى-: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٣]. والنظر إلى وجه الرب -جل وعلا- هو الزيادة التي قال الله عنها ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس: ٢٦]. والمقصود بالحسنى: الجنة.

أيتها الأخوات المسلمات:

الإسلام يريد من المرأة أن تبقى كما هي في فطرتها الأصلية، زهرة موقوفة على تعطير بيتها، وجوهرة مصونة في يد زوجها، وما أبلغ تشبيه النبي ﷺ للنساء بالقوارير، ودعوته المباركة للرفق بهن، وفي قولته المشهورة: (رفقًا بالقوارير)، إنها دعوة للرجال بالعطف عليهن، واللطف بهن، وزجر لهم عن إهمالهن، وعدم تربيتهن، ونهي عن إلقائهن في تيارات الفتة وجلب الملاهي لهن، والسماح بمشاهدة الأفلام الخليعة التي تدعو إلى الوقوع في أوحال الجريمة والسماح باستماع الأغاني

الماجنة التي يتكسر فيها المغنون. وهكذا يريد الإسلام للمرأة المسلمة أن تكون ذات دين، ويريدها صالحة الأخلاق لتكون خير متاع لزوجها، وأفضل معلمة لولدها.

فيا معشر النساء المسلمات: إن الله -سبحانه وتعالى- شرفكن بالإسلام، وفضلكن به على سائر نساء الأنام، فالمرأة بدينها وأخلاقها، لا بزيها وجمالها، فلا تنخدعن بالدعاة إلى النار، وحذار حذار أن تكنّ من نساء أهل النار اللاتي وصفهن رسول الهدى ﷺ بأنهن الكاسيات العاريات.

أيها الناس: في هذا اليوم المبارك، يباهي الله بعباده المؤمنين الملائكة، ويستجيب الدعاء يقول ﷺ: (إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق، فنادوا: اغدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم، يمنُّ بالخير ثم يثيب عليه الجزيل، لقد أمرتم بصيام النهار فصمتم، وأمرتم بقيام الليل فقمتم، وأطعتم ربكم، فاقبضوا جوائزكم، فإذا صلوا نادى منادي: ألا إن ربكم قد غفر لكم فارجعوا راشدين إلى رحالكم) رواه الإمام أحمد. ألا فاتقوا الله عباد الله، وأخلصوا أعمالكم لله.

***

الحـــج

فضل الأيام المعلومات

أيها المسلمون:

للأيام التي نستقبلها، ويستقبلها جميع المسلمين مكانةٌ شريفة، ولها منزلة رفيعة، فهي فرص جديرة بالاغتنام والاستثمار، فهل نغتنمها ونستثمرها؟ هذا هو المأمول.

إذا أقبلت العشر الأوائل من ذي الحجة طاب الحديث عن فضلها، وفضل العمل الصالح فيها.

إلا أنه رغم كثرة الحديث عن هذه العشر، ومزية العمل فيها فالبعض من المسلمين لا يلقي لها بالًا، ولا يوليها عنايةً، ولا رعاية ولا اهتمامًا. وقد لا يكتفي بذلك بل يجعلها فرصة للرحلة والاستجمام

ولا شك أن ذلك من المباحات التي لا يستطيع أيُّ إنسان أن يمنعها أو يحرمها، ولكن الإشكالَ والحرجَ أن يرافق الرحلة التفريط في الأعمال الصالحة، أو اشتمال الرحلة على منكرات من الأقوال أو الأعمال.

فعلى المسلم العاقل أن يحفظ نفسه، وأن يبتعد عما نهى الله عنه في كل وقت، ولا سيما في الأوقات الفاضلة، تلك الأوقات التي يشتغل فيها المسلمون بالأعمال الصالحات، ويتسابقون فيها إلى القربات.

وفرق شاسع بين المستيقظ والغافل، وبين المقصر والمفرط، ولكنّ

ذلك الفرق لا يتضح جليًا إلا في يوم العرض الأكبر على الله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وعندئذ يندم المفرط ولات ساعة مندم!! وفي عشر ذي الحجة يشرع للمسلمين الحج إلى بيت الله الحرام، قال الله -تعالى-: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧]، ومع تأمين سبل الحج، وتطور وسائل النقل، أصبح المسلمون يحجون بيت ربهم من أقصى مشرق الأرض، وأقصى مغربها، جنسياتهم كثيرة، ولغاتهم مختلفة، وحداؤهم واحد: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

والحج واجب في العمر مرة واحدة فحمدًا لله على يسر الإسلام وسماحته، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم)، ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) رواه مسلم.

وفي فضل الحج وردت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله ﷺ أيُّ العمل أفضل؟ قال: (إيمان

بالله ورسوله، قيل ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌّ مبرور) رواه البخاري ومسلم.

إن على المسلم الذي يريد أن يؤدي هذه الفريضة العظيمة، أن يحرص على أن تكون الأعمال والأقوال، التي يقوم بها ويقولها، موافقة لأعمال النبي ﷺ وأقواله، فقد ثبت عنه -صلوات الله وسلامه عليه- أنه قال في حجة الوداع: (خذوا عني مناسككم) رواه مسلم.

وجميع أنواع العبادة من حج وغيره لا يكون مقبولًا إلا إذا توفرت في العمل متابعة رسول الله ﷺ، بالإضافة إلى إخلاص العمل لله وحده.

وعلى الحاج أن يبتعد عن كل ما نهاه الله عنه، ليكون حجه مقبولًا، وسعيه مشكورًا، وذنبه مغفورًا، فهذا هو الهدف، وذلك هو القصد، فليس المقصود السفر، والتنقل، والتعب كلا! فالقبول هو قصد المسلم الحاج، وهو الرجاء والأمل، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧]، ويقول -صلوات الله وسلامه عليه-: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) رواه البخاري.

إن مشهد الحجاج وهم في فجاج مكة، تاركين وراءهم أهليهم، وبلادهم، وأموالهم، وقد اختلفت ألسنتهم، وتفاوتت مداركهم، وعقولهم، وألوانهم، مشهد مؤثر ينبغي أن يأخذ منه المسلم عظة وعبرة، وذلك بتذكر يوم القيامة وما فيه من أهوال وحشر ونشر.

فإن هذا التجمع اليسير في الحج، يشبه إلى حد ما التجمع عند خروج الناس من قبورهم.

ثم إن الحاج بإمكانه وهو في المشاعر، أن يستظل بخيمة، أو يحظى بشجرة لتقيه حر الشمس وتقلبات الجو، ويجد من يبيع له الأطعمة والمشروبات، بأسعار معتدلة، ويجد المركز الصحي عند الحاجة إليه، ليأخذ دواء يخفف من تعبه وصداعه، ولكن هذه الأشياء غير ممكنة في يوم شديد الحر، عظيم الكرب، إلا لمن يظلّه الله تحت ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه.

في ذلك اليوم العظيم الذي يحشر فيه الناس على قدر أعمالهم، وتدنو الشمس منهم فيكثر عرقهم، حيث يقول النبي ﷺ: (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعًا وإنه يلجمهم حتى يبلغ آذانهم) رواه البخاري ومسلم.

جدير بالمسلم أن يتزود بالتقوى لذلك اليوم العظيم، وأن يأخذ من حجه العبر والدروس والمواعظ، فيحرص أن لا يظلم أحدًا، ولا يرتكب محرمًا، ولا يقر منكرًا، ولا يهمل معروفًا، ولا يتهم بريئًا.

إن على الحاج وغيره أن يتأمل تلك الملابس التي يرتديها الحجاج، فهي تذكّر بأمور منها: الأكفان التي سيلفُّ فيها الإنسان، في يوم من الأيام، فالعاقل هو الذي يتذكر على الدوام ذلك اليوم، وماذا أعدّ له ولما بعده، يقول رسول الله ﷺ: (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) رواه الترمذي، والكيس يعني العاقل.

وملابس الإحرام تذكّر المسلم بأنه سيترك ماله الذي تعب في جمعه، فليس له من ماله إلا ما قدّم.

وملابس الإحرام تذكّر المسلم، بأنه خلّف وراءه بيته أيّاً كان هذا البيت قصرًا، أو عمارة، أو منزلًا عاديًا، وخلف مركبة من سيارة ونحوها، وخلّف وراءه ولده، وعماله وخدمه وحشمه، فلم يعد ينفعه مال ولا بنون، ولا نسب، ولا منصب، ولا خدم ولا حشم؛ ولا سكن مهما كان راقيًا، ولا مركب مهما كان مريحًا، إلا أن يتغمده الله برحمته.

ملابس الإحرام التي يلبسها الحاج، يشترك فيها كلُّ حاج كبيرًا كان أو صغيرًا، ذا منصب وجاه، أو فقيرًا لا شك أن بين الحجاج تماثلًا من جهة اللباس، إلا أن التماثل غير موجود من جهة المسكن أو المركب، فالناس يوم القيامة متماثلون في كل شيء، فلا يوجد ما يميّز شخصًا عن غيره، فلا فرق بين أعظم ملك، وأفقر إنسان، فكل الناس كبارًا وصغارًا، ذكورًا وإناثًا، أصحاب ثروات ومناصب وفقراء لا عمل لهم، الكل يأتي حافيًا عاريًا، والكل خائف من هول ذلك الموقف الرهيب: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

أيها المسلمون: ليحرص الحاج وغيره أن يحقق الحج في نفسه وضميره، تقوى الله ﷻ التي تردعه عن كل منكر، وتزجره عن كل فجور، وتحثّه على كل فضيلة، وتذكره بالدار الآخرة.

على الحاج أن يتذكر دائمًا وأبدًا كلّما حدثته نفسه بمعصية من نظر محرم أو منكر من القول أو الفعل، عليه أن يتذكر قول النبي ﷺ: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) رواه البخاري.

من غير اللائق أن يقصّر الحاج في فهم معاني الحج السامية، التي شرع الحج من أجلها، فليس الحج كما يظن البعض مجال صراع، البقاء فيه للقوي، فلا ترحم امرأة ضعيفة، ولا يرحم شيخ كبير، ويصبح الهمّ إنهاء أعمال الحج بأسرع وقت، وعلى أية طريقة كلا!!. ولابد من التذكير بأنه ينبغي أن يكون إيمان الحاج بعد أدائه لفريضة الحج أقوى، وأن يكون زاده إلى الدار الآخرة أكثر، وأعماله الصالحة متنوعة، قال الله -تعالى-: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

أيها المسلمون:

من أفضل الأعمال في عشر ذي الحجة:

الحج والعمرة، ومن الأعمال الصالحة صيام الأيام التسعة، أو ما تيسر منها، وبخاصة اليوم التاسع وهو يوم عرفة، عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ دلني على عمل أدخل به الجنة، قال: (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) رواه النسائي والحاكم بسند صحيح.

ومن العمل الصالح في أيام العشر: التكبير وذكر الله ﷻ، يقول الله -تعالى-: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧]، قيل إنها أيام العشر، والتكبير يكون بصوت مرتفع في المساجد، والأسواق، والطرقات، والمنازل، ليلًا ونهارًا.

ومن العمل الصالح: الصدقة: إن الكثير من الناس تتحرك هممهم للصدقة في رمضان فأين المتصدقون في هذه العشر؟ مع أنها توازي في الفضل العشر الأخيرة من رمضان.

ومن العمل الصالح: صلة الرحم، والتوبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقراءة القرآن، والاستغفار، وإصلاح ذات البين، وزيارة المرضى، ومعاملة الناس بالحسنى، ونوافل الصلاة، والدعوة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من صنوف العبادة، والعمل الصالح.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (القلب لا يصلح ولا يفلح، ولا يتنعم، ولا يسر، ولا يلتذ ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده) انتهى.

وأعظم أنواع العبادة: أداء ما فرض الله ﷻ، كما قال ﷻ في الحديث القدسي: (وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضته عليه) رواه البخاري، والعبادة مفهومها شامل، ومعناها واسع، فليست مقصورة على شعائر التعبد كالصلاة والصيام وقراءة القرآن مثلًا.

فقصر العبادة على الشعائر التعبدية خطأ ظاهر، وفهم سقيم، وبسبب

هذا الفهم القاصر، وُجد المصلي الصائم، الحاج القارئ للقرآن، غير المتورع عن الغش، والربا، ووجدت المرأة المصلية، الصائمة، وهي لا تتورع عن مخالفة الشرع بسفور، أو اختلاط، أو تبرج، أو غيبة.

إن المفهوم الواسع للعبادة، والتصور الشامل للعمل الصالح، يجعل المسلم ينبوعًا يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، فتقوى عزيمته على العبادة بأنواعها، ويحس بحاجة إخوانه المسلمين، فيمسح دمعة محزون، ويخفف كربة مكروب، ويضمّد جراح منكوب، ويسد رمق محروم، ويشد أزر مظلوم، يقيل عثرة، ويقضي دين غارم، يهدي حائرًا، يعلم جاهلًا، يدفع شرًا عن مخلوق، ويرفع أذى عن طريق.

إن المسلم يستطيع في وقت قليل، أن يضع لبنات صالحة في بناء الأمة، ويضيف إلى ميزان حسناته أعمالًا صالحة يثقل بها الميزان، وإن بدت في عينه هيّنة، يقول نبينا – صلوات الله وسلامه عليه –: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إصلاح ذات البين) رواه أبو داود، والمقصود صوم وصلاة وصدقة النافلة، وفي صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: (عرضت عليّ أعمال أمتي حسنُها وسيئُها فوجدت في محاسن أعمالها: الأذى يماط عن الطريق) رواه مسلم.

ويقول –صلوات الله وسلامه عليه–: (من عاد مريضًا أو زار أخًا له في الله ناداه منادٍ: أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلًا) رواه الترمذي.

أيها المسلمون:

إن حصر العمل الصالح في عبادات خاصة جعل بعض العباد يشغلون أوقاتهم بتكرير أعمال محدودة، كأنهم لا يرون غيرها وسيلة إلى مرضاة الله، مع أن الوسائل عديدة، وفضل الله واسع.

وأخيرًا: ليحذر كل مسلم يحب أن يُدخل الجنة ويُزحزح عن النار، ما يبطل عبادته، أو يذهب بثوابها كظلم الناس، والتعدي على أعراضهم، وأموالهم، ودمائهم، فإن مَنْ هذا وصفه يأتي يوم القيامة مفلسًا، كما ورد في صحيح مسلم: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة....) إلخ الحديث.

وأخرج ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأسًا فيهوي بها في نار جهنم سبعين خريفًا).

***

دروس من الحج

أيها المسلمون:

لقد انقضى موسم الحج، ومضت أيامه المباركات، مضت عشر ذي الحجة، ومنها يوم عرفة، ومضى يوم النحر، ومضت أيام التشريق، كما مضت قبل ذلك أيام وسنين.

والسعيد من أودع في أيامه أعمالًا صالحة، واغتنم الفرص المتاحة، وقدّم الزاد لنفسه ليوم هو في أشد الحاجة إليه.

والمغبون من لم يعرف لوقته قدرًا، ولم يرفع للأيام الفاضلة رأسًا.

لقد عاد الحجاج إلى أوطانهم ورأوا بأعينهم تلك الجهود العظيمة التي بذلت من أجلهم.

ولا سيما تلك التوسعة الهائلة في مواضع رمي الجمرات، حيث كان الرمي سهلًا وميسورًا، بتوفيق الله ﷻ ثم بتلك التوسعة العظيمة، التي سيكتبها التاريخ لولاة الأمر في هذه البلاد بمداد من نور، على صفحات من ذهب، فجزى الله ولاة أمرنا كل خير على هذه الجهود المباركة، من توسعة وتنظيم وعناية ورعاية وتقبل الله منهم ومن جميع المسلمين.

ثم إن على الحاج الكريم أن يأخذ من حجه دروسًا تفيده وتنفعه في سيره إلى الله - تعالى-، ومن هذه الدروس:

- أهمية التوحيد فليستمر الحاج على توحيده وإخلاصه.

فلقد جرّد الحاج في حجه توحيده لله رب العالمين، فتلبيته توحيد، وطوافه توحيد، وسعيه توحيد، ووقوفه في يوم عرفة توحيد، ومبيته بمزدلفة توحيد، ورميه الجمرات توحيد، وحلقه توحيد، ونحره توحيد، وإفاضته توحيد، وتصعيده توحيد، ووداعه توحيد، فهو يعلن بكل قوة وفتوّة أنه لا يعبد إلا الله، ولا يخضع لأحد سواه، ولا يدعو إلا ربه، ولا يذبح إلا له، ولا يقسم إلا به فليستمر على توحيده، وليحذر كل ما ينقصه، من ترك واجب أو فعل محرم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]،

- استمرار المتابعة لرسول الله ﷺ في أداء العبادات عمومًا، لأن الحاج حريص على متابعة نبيه ﷺ في حجه، فليحرص على أن تكون كل عبادة يأتي بها بعد ذلك موافقة لما جاء عن رسول الله ﷺ، يقول الله -تعالى-: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]،

ويقول نبينا ﷺ في الحديث الصحيح: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) رواه البخاري ومسلم. أي: مردود على صاحبه.

- استشعار الأخوّة الإسلامية على الدوام، فقد شاهد جموع الحجاج الجموع الذين اختلفت لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم.

حيث يعانق في المشاعر المقدسة المسلم العربي أخاه المسلم الأفريقي، والآسيوي، والأوربي، وقد تناسى الجميع كافة الوثائق الرسمية وانصهروا في بوتقة إسلامية جامعة، هتافهم واحد، وغايتهم واحدة.

فلا مجال لعصبيات أرضية، ولا لشعارات قومية، بل إن قيمة الإنسان ترتفع بمقدار تمسكه بالإسلام واعتزازه بقيمه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى) رواه الإمام أحمد.

- اليقين بأن الطريق الوحيد لوحدة الأمة إنما ينطلق من شعاب مكة، وأرض عرفات، فهي وحدة لا تبنى على مصلحة شخصية، ولا حزبية جاهلية، وهذا هو الذي قام به رسول الله ﷺ حيث تمكن من بناء الأمة بعد ما كان الناس تسودهم الحروب الدموية، والعصبيات القبلية، فإذا بالوحدة الإسلامية تختصر جميع المسافات، لتصنع ملحمة التوحيد، وتقيم جدار الإيمان، في زمن يشبه الخيال، وبجهد يشبه المعجزات،وإذا أراد المسلمون العزة والنصر والتمكين، فعليهم أن يسلكوا ذلك الطريق ولا يحيدوا عنه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

***

دروس من الحج

أيها المسلمون:

لقد امتنَّ الله ﷻ على بعض المسلمين بأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، كما وفق الله بعض من لم يحج باستثمار أيام العشر، وذبح الأضاحي، فليحمد المسلمُ ربَّه على هذه النعمة العظيمة، فهو -سبحانه- وحده الذي يستحق الحمد والشكر والثناء والمدح: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، لقد رأى الحاج هناك في المشاعر والحرم، ذلك الاجتماع الهائل الذي يمثل الأمة المسلمة على اختلاف فئاتها الكبيرِ والصغيرِ والغنيّ والفقير، لقد أقام المسلم الحاج في رعاية ربه فهو يشعر أنه في حمى الله الأمين، وفي ضيافة رب العالمين؛ لقد كانت أيام الحج الأيام الماضية فرصةً لكل مسلم، تنبه من غَفَل، وتوقظ من رَقَد، وهي بمثابة شجرة عظيمة، يأوي المؤمنون إلى ظلها الوارف.

إن في الحج دروسًا عظيمة، فمن هذه الدروس،: ينبغي لمن لبّى نداء الله أن لا يلبي بعد تلبية الله أيَّ دعوة تناهض دين الله ﷻ ، وأن لا يستجيب الحاج بعد حجه لأي نداء من نداءات الجاهلية، التي وضعها رسول الله ﷺ تحت قدميه يقول ﷺ: (ألا وإن كلَّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله) رواه البخاري ومسلم، والجاهلية كل ما خالف

الإسلام، ومنها العصبية لغير الدين وظن السوء بالله - تعالى - إلى غير ذلك مما نهى الله عنه.

ويقول -عليه الصلاة والسلام-: (ليس منا من دعا إلى عصبية) رواه أبو داوود. لقد محا -عليه الصلاة والسلام- العصبية الجاهلية، وقوّض أركانها، وهدم بنيانها، سواء كانت هذه العصبية للغة أو دم أو تراب أو وطن أو جنس أو نسب فتلكم حمية الجاهلية التي وصف الله -تعالى- بها مشركي مكة: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

إن الاجتماع حياة الأمة، وقوام الشعوب، وأساس العمران، وأما التحزب والتفرق فإنهما مدعاة للخراب والدمار، لقد جعل الله الرابطة الدينية رابطةً قوية، وصلةً متينة، بين أفراد المسلمين على اختلاف أجناسهم، وتباعد أوطانهم، يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وجعل معيار التفاضل التقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنه لا يليق بالمسلم أن يهجر أخاه المسلم، أو يعاديه بسبب أي رابطة من تراب، أو جنس إلا رابطة الدين إذا اقترف المسلم ما يدعو إخوانه إلى هجرانه وتركه.

- ومن دروس الحج: درس يؤخذ من رمي الجمرات، فلقد رمى الحاج الجمرات، كناية عن رميه الشيطان، ورجمه رجمًا حسيًا فمما يوجه إليه الحاج أن يرجم الشيطان رجمًا معنويًا، فلا يطعه، إنه لا يكفي أن يرجم الحاج مواضع الرمي، بحصيات ولا يرجم بعد ذلك

الشيطان بالابتعاد عما يسخط الله ﷻ ، فعلى المسلم الحاج وغيره أن يرجم الشيطان في بيته، وذلك بتوجيه أهله إلى الخير وإبعاد ما يفسد دينهم وأخلاقهم، وليرجمه من ناحية ما يتلفظ به فيبتعد عن الغيبة والنميمة والسخرية وعيب الآخرين وقول الزور، وليرجمه بتقوية العلاقة مع زوجته ورحمتها والوصية بها، فلقد قال - عليه الصلاة والسلام - في حجة الوداع: (ألا واستوصوا بالنساء خيرًا فإنما هنَّ عوانٍ عندكم) رواه الترمذي. ومعنى: عوان أي: أسيرات. وكانت هذه وصية رسول الله ﷺ وهو يفارق الحياة حيث قال: (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعْم أنت) رواه مسلم.

وإذا كان الحاج حريصًا على رمي الشيطان رميًا حسيًا بمنى، وقد يختار الحجارة الكبيرة، أو الأحذية إظهارًا لعداوة الشيطان وإغاظته، فإن كل مسلم مأمور برمي الشيطان رميًا معنويًا، وإن من رميه التوبة من المعاصي والإنابة، فإن ذلك مما يغيظ الشيطان ويغضبه، وقد أمر الله ﷻ بالتوبة حيث يقول -تعالى-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ويقول -سبحانه- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

- ومن دروس الحج: أن الحج يدرب على ترك المباحات، كالطيب وما يقع بين الزوجين، وتقليم الأظافر، وحلق الشعر، واستعمال المخيط، وتغطية الرأس، فإذا استطاع المسلم أن يعوّد نفسه على ترك المباحات، فليحرص على أن يبتعد عن فعل المحرمات بعد نهاية الحج، لقد امتنع الحاج عن المباح من أجل الله تعالى، فامتناعه عن الحرام من باب أولى؛ الإسلام يريد من الحج أن يخرج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، لقد آن للحاج أن يحاسب نفسه، وأن يعودها على العمل الصالح والقيام بما أمر الله به والبعد عما نهى الله ﷻ عنه.
- ومن دروس الحج: أنه دعوة للعمل للدنيا والعمل للآخرة بجد، واجتهاد، وكفاح، يقول الله -تعالى-: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾[البقرة: ١٩٨].

لقد جمعت الآية الكريمة بين طلب الرزق وذكر الله تعالى، مما يدل بوضوح على أن الإسلام دين جامع بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، يدل على هذا التكامل الدعاء الذي تعلمه المسلمون من كتاب ربهم حيث يقول -تعالى-: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ

﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٢٠٢﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢]، والمطلوب أن لا يطغى العمل للدنيا على العمل للآخرة.

- ومن دروس الحج: أن آيات الحج جعلت تحقيق المصالح الاقتصادية هدفًا للحج يقول الله -تعالى-: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨]، إن موسم الحج فيه ربح دنيوي، وربح أخروي، وعلى المسلمين أن يحرصوا على الربح الأخروي، ولا يهملوا الربح الدنيوي.
- ومن دروس الحج: أنه دورة تدريبية على تحمل المشاق، فهو تدريب على مفارقة الأهل والوطن، والتضحية بالراحة والدعة، ولم يشأ الله ﷻ أن يجعل هذه الرحلة إلى بلدٍ يتخذه الناس مصيفًا أو مشتى، ولكن شاء الله أن يكون الحج إلى وادٍ غير ذي زرع، لا يصلح مصطافًا ولا متربعًا، وفي ذلك تربيةٌ للمسلم على احتمال الشدائد، والصبر على المكاره، ومواجهة الحياة كما أرادها الله ﷻ بأزهارها وأشواكها، بحرِّها وبردِها، بحلوها ومرها.

***

من آثار الحج ودروسه

أيها المسلمون:

لقد امتن الله -سبحانه- على بعض المسلمين بالمشاركة بالحج، تلكم الرحلةِ الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين، ويتنقل فيه بين الأماكن المشهودة، والمشاعر المشهورة، الكعبة والصفا والمروة وعرفات ومزدلفة ومنى وغيرها، لقد رأى الحاج هذه البقاع كما رأى تلك المجهودات الضخمة المتنوعة التي يقدمها ولاة الأمر في هذه البلاد فجزاهم الله خيرًا وبارك فيهم.

إن المقصد المهمَّ في العبادات كلِّها هو الامتثالُ لله، والوفاءُ بحقه تعالى، ومع هذا فإن وراء العبادات آثارًا طيبة، ومنافع جمةً في حياة الفرد والجماعة قال الله -تعالى-: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨]، إن الحج محطةٌ روحية، تقوّي الإيمانَ حيث يعزم المسلم على الطاعة، ويندم على المعصية، إن الحاج بعد تأديته لهذه الشعيرة العظيمة يعود من رحلته، أصفى قلبًا، وأقوى عزيمةً على الخير، وأصلبَ عودًا أمام المغريات والملهيات، وكلما كان حجه مبرورًا خالصًا لله كان أثره في حياته المستقبلية أكثرَ وضوحًا، روى البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ قال (من حج فلم

يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

إن الحج اجتماع سنوي إسلامي عظيم، لم تدعُ له هيئة ولا حكومة، ولم يدع إليه ملك أو رئيس بل دعا إليه الرب العظيم، العلي الكبير، الذي فرض إقامته كلّ عام على المسلمين حيث يتوافدون من جميع القارات على اختلاف الألوان والأقاليم واللغات:

فانظر إلى عرفات الله كيف غدت   و تضم أرجاؤها عربًا وأعجاما
تُمثِّلُ الوحدة الكبرى التي افتخرت   بها الحنيفية الغراءُ أعواما

إن هذا التجمع العظيم يحيي في المسلم الأمل، ويطردُ عنه عواملَ اليأس، ويبعث الهمة، ويشحذ العزائم؛ التجمع يوحي دائمًا بالقوة. فهذا التجمع أعظم مذكر بأخوّة الإسلام، ورابطة الإيمان؛ ولذلك فإن خصوم الإسلام عرفوا أهمية هذا التجمع وكرهوه ولكن، يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

أيها المسلمون:

إن الحج له فوائد متنوعة، فمن فوائده العظيمة: أن الحاج يلبس ذلك اللباس الذي أشبهُ ما يكون بأكفان الموتى، يلبسه الغني والكبير، الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وفي الحج نرى معنى الوحدة جليًّا كالشمس، وواضحًا كالقمر: الوحدةُ في المشاعر، والشعائر، والهدف، و العمل، والقول، لا إقليميةً، ولا عنصرية، ولا عصبية.

إن الإسلام لم يعط الفوارق القومية، ولا الميزاتِ الأقليمية أيةَ قيمة، في المفاضلة بين الناس لأن التفاضل بالتقوى. ولقد نهى رسول الله ﷺ أشدَّ النهي عن الفخر بالأنساب، وحقّر العصبية أشد التحقير، وضرب لتلك الدعوات العصبيةِ أحقرَ الأمثال، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن النبي ﷺ قال: (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهونَ على الله ﷻ من الجُعْل الذي يدهده الخُرءَ بأنفه، إن الله أذهب عنكم عُبيّة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدمُ خلق من تراب) رواه الترمذي.

إن الذين يريدون إثارة العصبية والنعراتِ الإقليمية بين المسلمين يزعمون أن بعض المسلمين خير من بعض، لمجرد أن هؤلاء ولدتهم أمهاتهم في أرض، وأولئك ولدوا في أرض أخرى، إن هؤلاء يرفعون رايات جاهليةً حذر منها الإسلام وأهان أهلها، وهم يصطدمون في دعواتهم هذه بالقرآن والسنة قال الله – تعالى –: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول رسول الله ﷺ: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم) رواه الإمام أحمد وأبو داود.

مدرسة الحج ما زالت عامرةً مفتحة الأبواب لكل المسلمين،

ليتعلموا فيها بشكل عملي، أنه لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

أيها المسلمون:

من المسلمين من لا يستفيد من هذه الحكم والأسرار، إن القلب ليعتصر ألمًا لما يراه من واقع بعض المسلمين، وعدم استفادتهم من هذا الدرس وإلا فما هذه الخلافات والخصومات التي مزقت أمة الإسلام؟ وما هذه الصراعات التي سالت بسببها دماءُ المسلمين أنهارًا؟ ما أحوج مسلمي العالم اليوم أن يتعلموا من الحج درسَ الوحدة والأخوّة الإسلامية بشكل عملي تطبيقي قال الله -تعالى-: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، ومن مقتضيات هذه الأخوة، أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه من الخير والسعادة والإيمان والاستقامة والهداية، ولا يكون إيمان الإنسان كاملًا إلا إذا كان ذلك سلوكًا عمليًا واقعيًا يقول رسول الله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

ومن المبادئ التي دعا الإسلام إليها: السلام فالحج طريقة فذة لتدريب المسلم على السلام، إن منطقة الحج منطقة أمان، ليس للإنسان فحسب ! بل الأمن والأمان شامل للطير في الجو، والصيد في البر،

والنبات في الأرض فمنطقة الحرم لا يصاد صيدها، ولا يروع طيرها، ولا حيوانها، ولا يقطع شجرها، ولا تقتلع حشائشها، فهل رأت الدنيا بأسرها تطبيقًا عمليًا قريبًا للسلام من هذا؟ إن الحج رحلة السلام إلى أرض السلام، في زمن السلام، لقد اختار الله ﷻ أرضًا مباركة مكة، وأعلنها حرمًا آمنًا، أي أرضًا منزوعة الأذى والعنف، وليست منزوعة السلاح فحسب، قال الله -تعالى-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، لقد حرم الله ﷻ في هذا الحرم الآمن القتلَ والاعتداءَ والأذى وكلَّ مظاهر العنف.

إنه سلام حقيقي لا سلام مزيف، سلام كامل شامل، يتعلم المسلم فيه احترامَ حقِّ الحياة لكل حي مهما كانت درجةُ حياته لتتأصل في نفس المسلم معاني السلام فلا يتعدى على أحد ولا يظلم أحدًا، ولا يبغي على أحد، تقبل الله من الجميع صالح أعمالهم.

***

عبر ودروس من الحج

أيها المسلمون:

روى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند صحيح، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (إني لقائم أنتظر أمتي تعبر الصراط، إذ جاءني عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يشتكون، أو قال: يجتمعون إليك يدعون الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفرق جمع الأمم إلى حيث يشاء لغمِّ ما هم فيه والخلق ملجمون في العرق، وأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فذهب نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قام تحت العرش فلقي ما لم يلق مَلَكٌ مقرب، ولا نبيٌ مرسل فأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى جبريل: اذهب إلى محمد فقل له: ارفع رأسك سل تعط، واشفع. تشفع قال: فَشَفَعْتُ في أمتي).

أيها المؤمنون:

إن يوم القيامة يوم عظيم، فيه يقوم الناس لرب العالمين، ولن يخلّص الإنسانَ من أهواله ومخاطره سوى ما يقوم به من عمل صالح بعد رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ ، فلقد أرشد نبينا -صلوات الله وسلامه عليه- إلى اغتنام هذه الحياة بالعمل الصالح، حيث ورد في مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعظ شابًا فقال له: (اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك،

وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك)

تذكروا - معشر المؤمنين - بجمعكم هذا يومَ الجمع الأكبر، حين تقومون يوم القيامة من قبوركم لرب العالمين، حافيةً أقدامكم عاريةً أجسادكم شاخصةً أبصاركم: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: ٢]، ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] يوم توضع الموازين ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٥].

أيها المسلمون:

بعد أربعة أيام يأتي المسلمين يومُ عرفة، واعلموا رحمكم الله أن يومَ عرفةَ يومٌ من مفاخر الإسلام؛ لأن المسلمين لا يمكن أن يحتشدوا في مكان مثل احتشادهم في عرفة. إنه يومُ مغفرةِ الذنوب، وورد في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: (ما من يوم أكثرَ من أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهي بهم الملائكة فيقول تعالى: ما أراد هؤلاء؟)، وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ

قال: (إن الله يباهي ملائكته عشيةَ عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا)؛ ولقد وقف ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعرفة في إحدى حجاته، يفسر للحجاج سورة البقرة حيث فسرها كاملة.

قيل حتى صلاة العصر، يقول الراوي: فوالله ما تلعثم في آية ولا نسي آية. قال أبو وائل: والذي نفسي بيده لو سمعه اليهود والنصارى لأسلموا عن بكرة أبيهم. ويقول عبدالله بن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تذرفان فقلت له: (من أسوأ هذا الجمع حالًا؟ قال الذي يظن أن الله لا يغفر له) رواه مسلم.

وفي فضل هذا اليوم العظيم ورد قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أفضل الدعاء، دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) رواه مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الموطأ، وجاء في بعض الآثار: (إذا وقف الحجاج بعرفات وضجت الأصوات بالحاجات، باهى الله -سبحانه وتعالى- بهم ملائكته، ويقول:يا ملائكتي، وسكان سماواتي، أما ترون إلى عبادي أتوني من كل فج عميق شعثًا غبرًا قد أنفقوا الأموال، وأتعبوا الأبدان، فوعزتي وجلالي وكرمي، لأهبن مسيئهم لمحسنهم، ولأخرجنهم من الذنوب كيومَ ولدتهم أمهاتهم).

أيها المسلمون:

لقد شرع للمسلم غير الحاج، أن يصوم هذا اليوم العظيم فقد سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة قال: (يكفّر السنة الماضية والباقية) رواه مسلم، (وبعد خمسة أيام) يحتفل العالم الإسلامي كلُّه بعيد الأضحى المبارك، حيث تعم البهجةُ، وينتشرُ السرورُ، وتسودُ الفرحةُ، ويزدادُ الإخاء بين المسلمين، وتوصلُ الأرحام، وتُقدمُ الصدقات والهدايا، والتبرعات والهبات، والمجتمع السعيد هو الذي تسمو أخلاقُ أفراده في العيد إلى أرفع مكانة، ويمتدُّ شعورهم إلى أبعد مدى، وذلك حين يبدو متماسكًا متراحمًا مترابطًا.

إن علينا معشرَ المسلمين أن نتذكر إخواننا في مواسم الأعياد وغيرها ففي أنحاء من وطننا الإسلامي هدمت البيوت، وشتت الأسر، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها المسلمون:

لقد شرع الله في عيد الأضحى: صلاةَ العيد والأضاحي يقول عز من قائل: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ [الكوثر: ٢] قال أهل التفسير: المراد بالصلاة صلاة العيد، ويقول -تعالى-: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٩٢]، وبعد صلاة العيد تذبح الأضاحي، وهناك تنبيه يتعلق بصلاة العيد وهو أن من أدرك التشهد مع

الإمام وهو يصلي صلاة العيد فإنه يتم الصلاة على صفتها ركعتين يكبّر في الأولى ستًا من غير تكبيرة الإحرام، وفي الثانية خمسًا من غير تكبيرة القيام من السجود، وإذا أدرك الركعة الأخيرة قضى الأولى على صفتها، أما من جاء والإمام يخطب فعليه أن يجلس ثم إن شاء قضى الصلاة بعد ذلك، وذلك أن من فاتته صلاة العيد فهو مخيرٌ إن شاء قضاها وإن شاء لم يقضها.

وأما الأضاحي فهي سنة أبينا إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - وهي رمزٌ للتضحية والفداء، وشعيرة من شعائر الإسلام العظيمة يقول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢]، قال العلماء: تعظيم الأضاحي معناه: اختيارها حسانًا سمانًا غالية الأثمان.

أيها الإخوة المؤمنون: إذا ضحى المسلم بشاة من الضأن، أو المعز أجزأت عنه، وعن أهل بيته، وعن أقربائه من الأحياء والأموات فقد كان الرجل من الصحابة يضحي بالشاة عن نفسه، وعن أهل بيته؛ فهي سنة كفاية إذا قام بها المسؤول عن الأسرة أجزأت عن البقية من الأولاد والبنات والزوجات، يقول الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (تجزئ الأضحية الواحدة عن أهل البيت ولو كانوا مائة نفس)، وروى ابن ماجه والترمذي أن أبا أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان الرجل في عهد النبي ﷺ

ليضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهي الناس فصار كما ترى)، فليحذر المسلم الرياء والمباهاة والمفاخرة سواءً أكان ذلك في الحج، أو الأضاحي، أو غيرهما من سائر الأعمال، تقبل الله منا ومنكم، وختم لنا ولكم بخير.

***

تضحية إبراهيم الخليل عليه السلام

أيها المسلمون:

الحديث عن الأضاحي يذكرنا بمن سنّها، وهو أبونا إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - فقد ضحى بتضحيات كثيرة: الأولى من تضحياته: تضحيته بروحه عندما كسّر أصنام المشركين، ليقيم عليهم الحجة العملية، لما لم تفد معهم الحجة القولية، فقررت الوثنية إحراقه بالنار، وعندما كان في وسطها قال كلمة التوحيد: (حسبنا الله ونعم الوكيل) فقال الله -تعالى- للنار: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

جبريل لما أن أتى لخليله	والنار تضرم والعباد شهود
ناداه هل تفضي إلي بحاجة	فأنا وسيط والوسيط يفيد
ما زاد إبراهيم إلا قوله	أيغيب عني واحد معبود
فإذا بقولك وهو حكم جازم	-يا نار كوني- ويحه النمرود
من ظنّ غيرك فارجاً لكروبه	فهو الغبي التائه المطرود

إنها لقصة عظيمة، تعطي الأجيال المؤمنة دروسًا، بأن النصر للمؤمنين فإن الله الذي نجى فردًا من المؤمنين من النار، سينجي عباده المؤمنين من شر أعدائهم إذا صدقوا مع الله وأخلصوا له يقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

والتضحية الثانية:

عندما أمره الله ﷻ أن يذهب بزوجه وطفلها من جنان الشام، ويضعهما بين جبال الحجاز التي لا يوجد فيها ماء ولا ثمر، ولا تعيش بها الطيور؛ وبعدما رجع عنها قالت زوجته: يا إبراهيم كيف تذهب عنا في هذا المكان؟ فلا يجيبها، فقالت له: (آلله أمرك بهذا). قال: نعم. قالت: (إذن لا يضيعنا)، وكان من بركة هذه التضحية، أن أنبع الله نبعًا مباركًا فيه الري والغذاء النافع، هو بئر زمزم، التي بقيت معجزةً خالدة مدى الدهر يشرب منها ملايين البشر ويتوضئون ويغتسلون ويتزودون إلى بلادهم، فلا ينقص فضلًا عن أن ينضب.

التضحية الثالثة:

تضحيته بابنه إسماعيل عليه السلام ولقد رحمه الله ﷻ بثلاث رحمات:

أولًا: استجابة ولده السريعة: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ثانيًا: نزع الله من السكين خاصية القطع فلم تقطع كما نزع من النار خاصية الحرق.

ثالثًا: فداه بذبح عظيم وهو الكبش، قال الله -تعالى-: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ

يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ٩٩_١١٠].

أيها المسلمون:

إن قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل -عليهما السلام-، قصة عظيمة تفجع الوالد بولده، وليس له غيره، وتفجع الأم بولدها وليس لها سواه، وتفجع الولد بنفسه وهي أعزُّ شيء عليه في هذه الحياة، ولكنه الابتلاء والامتحان ولكنها النبوة. لقد قضى الخليل زهرة حياته، وهو عقيم لم يرزق بولد فلما ترك وطنه وذهب إلى الشام، وكان غريبًا شعر بحاجته إلى الولد، يؤنس وحشته، ويخفف غربته، وسرعان ما التجأ إلى ربه في ذلة وضراعة: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠] فمنحه الله ما كان يحلم به: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١] ولقد بلغ إسماعيلُ السعيَ مع أبيه، وكاد الهلال أن يكون بدرًا، وأوشك الشبل أن يكون أسدًا فما الذي حدث؟ لقد أُمر إبراهيمُ بذبح ابنه ابتلاءً واختبارًا فماذا قال الخليل؟ لنرجع إلى تاريخ حياته فلقد ضحى بنفسه عندما كان شابًا يافعًا فكيف لا يضحي بابنه وقد مالت شمس حياته إلى المغيب، لقد كبرَ سنه، ورقّ عظمه، واقترب رحيله إلى الدار الآخرة. كان إبراهيم

يعلم أن في الله عوضًا عن كل فائت، وغناءً عن كل موجود. فأقبل على ولده يشاوره، ويختبره في رزانة الأنبياء، وحلم المرسلين: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢] رؤيا النبيين وحي من الله ﷻ، فلا يجوز لأحد يرى في المنام أنه يذبح ولده أن يذبحه. فالفرق عظيم بين رؤيا الأنبياء ورؤيا غيرهم، سبحان الله أيساوم الإنسان على حياته؟ ولكنها النبوة !! فماذا قال الشاب اليافع؟ لقد كان خير مساعد لأبيه على تنفيذ أمر الله -تعالى-، فكانت القطرة من بحرها، والوردة من بستانها، والجوهر الغالي من معدنه. فإذا كان إبراهيم قد ذرف دموعَه وهي حارةٌ بيضاء في ذلك الامتحان العصيب، فإن إسماعيلَ قد تبرع بدمائه ساخنةً حمراء.

وإذا كان إبراهيم قد ضحى بحاضره وما يحتويه، فإن إسماعيل قد ضحى بحاضره وبمستقبله وما ينتظره، فقال كلمته الخالدة التي حكاها الله عنه: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) وماذا عن التنفيذ؟ لقد خرج إبراهيم عليه السلام إلى منى لكي يذبحَ ابنه فلقيه الشيطان وحاول أن يثنيه عما عزم عليه، فكان الخليل يقول له اخسأ إنما أنت الشيطان تكرر ذلك ثلاث مرات، والخليل يرميه بالحجارة، وبعد ذلك جاءت اللحظة الحاسمة فأقبل الحبيب يذبح حبيبه، فتمالك أعصابه ونسي أبوّته، وجنّد إيمانه، واستصرخ عزيمته، وعند ذلك ضجت

الأرض، واهتزت السماء، وصاحت الملائكة، وصمت إبليس وحينئذ خرج النداء من اللطيف الخبير: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات: ١٠٤ – ١٠٥] فارفع عن ولدك، فقد أخلصت النية، وخلّدت العبرة، وأقمت على الوفاء أصدق دليل، وأسطع برهان، والتفت إبراهيم فإذا بجانبه كبش عظيم، فذبحه بالسكين نفسها فداءً لابنه قال تعالى: (وفديناه بذبح عظيم).

لقد نجح إبراهيم عليه السلام في أخطر امتحان، ونجى الله نبيّه إسماعيل عليه السلام، فكانت نجاته نجاةً لحفيده نبينا محمد بن عبدالله ﷺ فقد ورد عنه -صلوات الله وسلامه عليه- قوله: (أنا ابن الذبيحين) رواه الحاكم في المستدرك، أي: إسماعيل، و والد رسول الله ﷺ عبدالله بن عبدالمطلب وكان نجاة إسماعيل بشارةً بأخيه إسحاق، فسلام على إبراهيم مع أبيه مجاهدًا، وسلام على إبراهيم مع ولده صابرًا متجلدًا، وسلام على إبراهيم مع ربه خليلًا وفيًّا، ونبيًا صفيًا ورسولًا كريمًا.

***

ألا بذكر الله تطمئن القلوب

أيها المسلمون:

قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام: ١٩٢]، حياة المسلم كلُّها لله ﷻ وهذه ميزةٌ كبرى امتاز بها الإسلام فهو يصبغ المسلم بصبغته، ويرافقه في طعامه وشرابه، وفي جلوسه وقيامه، وفي يقظته ومنامه، وفي كل حالة من حالاته، وكلِّ أمر من أموره، لكي يشعر المسلم في كل ساعة من ساعات عمره، بهذه الصلة التي تصله بربه، وبهذه الرابطة التي تربطه بخالقه، لذا شرع الله -سبحانه- الذكر في كل حالات الإنسان، وجعله عنوانًا على حياته؛ يقول رسول الله ﷺ: (مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكر ربّه مثلُ الحي والميت) رواه البخاري ومسلم. أرأيتم أيها المسلمون هذا الفرق العظيم والبون الشاسع بين الذاكر وغيره، ومما لا شك فيه أن كل واحد منا يطلب من ربه المغفرة والرحمة، ويسأله أن يجعله من أهل الجنة، ولكن الهمم أصبحت فاترة وأصبح انصراف بعضنا إلى أمور الدنيا لا يترك وقتًا للاستعداد للآخرة، ولكن هناك أعمالٌ لا مشقة فيها، وإذا عوّد الإنسان نفسه ووطنها عليها، صارت له عادة ونال بسببها الثواب من ربه، ومن ذلك تحريك اللسان بالذكر في ساعات الفراغ، وعند النوم، وعند الركوب، وفي الصباح والمساء، وغير ذلك.

وقد أمر الله ﷻ بذكره ولا سيما في هذه الأيام التي نعيشها قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، قال بعض العلماء: هي ثلاثة أيام بعد النحر وتسمى أيام التشريق وقد ورد في صحيح مسلم قول النبي ﷺ: (أيام منى أيامُ أكل وشرب وذكر لله ﷻ)، وفي رواية: (أيام أكل وشرب وصلاة).

عباد الله: إننا نعيش أيام التشريق الفاضلةَ الشريفة؛ وقد أمر الله ﷻ بذكره في هذه الأيام المباركة كما سبق، وذكر الله أشرف الكلام وأفضل ما نطق به اللسان، وقد رفع الله ﷻ شأن ذكره فجعله سببًا لذكره لعبده فطوبى لعبدٍ ذكر ربه، وهنيئًا له لأن من ذكره ربه كان ذلك دليلًا على قبوله وغفرانه له قال الله -تعالى-: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إن ذكر الله مفتاح الرحمات، ومذهب السيئات، وماحي الخطيئات، وهو المقرب إلى جنات ربِّ الأرضين والسموات، وذكر الله ﷻ طبُّ القلوب ودواؤها، وشفاء النفوس وجلاؤها، وصحة الأجسام من عللها وأدوائها.

أمةَ الإسلام: ذكر الله المطلوب في هذه الأيام أنواع متعددة منها:

- ذكره عقب الصلوات المكتوبات بالتكبير بعد الصلوات وذلك من فجر يوم عرفة إلى آخر اليوم الثالث من أيام التشريق مع بقاء الذكر المطلق كذلك، وصفته: أن يقول المسلم: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا

الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

- ومن ذكر الله ﷻ في هذه الأيام، ذكره بالتسمية والتكبير عند ذبح النسك من الهدي والأضاحي، فإن ذبح الأضاحي سنة مؤكدة سنّها إبراهيم الخليل عليه السلام ويمتد وقت الذبح إلى غروب الشمس من اليوم الثالث عشر من ذي الحجة وأفضل الأضاحي الحسان السمان غالية الأثمان قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].
- الذكر عند الأكل والشرب، وذلك أن يسمي الله في أوله ويحمده في آخره: (إن الله ﷻ يرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليه ويشرب الشربة فيحمده عليها).

أمة الإسلام:

إن ذكر الله ﷻ أكبر من كل شيء، حيث يقول -تعالى-: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهو أفضل الطاعات وهو مصاحبٌ لجميع الأعمال الصالحة ومقترن بها فقد قرنه الله -سبحانه- بالصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]، وهو روح الحج ولبّه ومقصوده حيث يقول رسول الله ﷺ: (إنما جعل الطواف بالبيت والسعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله) رواه أبوداود، وهو الذي يؤمر به

المجاهدون لكي يتقووا بالذكر على العدو قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقد جعله تعالى ختام الصيام: ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختامَ الحج: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ ٢٠٠ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وختامَ الصلاة: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ ﴾ [النساء: ١٠٣]، وختامَ الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ [الجمعة: ١٠]، بل الذكر ختامُ الدنيا كلِّها فقد روى أبو داود والحاكم بسند صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)، وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله).

عباد الله: اعلموا أن ذكر الله هو غراس الجنة، كما روى الترمذي بسند حسن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أسري بي فقال: يا محمد. أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن

غراسها: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)، وذكر الله حصن حصين يحرز به المسلم نفسه من الشيطان حيث يقول رسول الهدى ﷺ: (وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثلُ رجل خرج العدو في أثره سراعًا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) رواه الإمام أحمد.

أيها المسلم الكريم: ألا تحب أن ترى ميزانك يوم القيامة وهو مملوء بالطاعة مثقل بالعمل الصالح فعليك إذًا بذكر الله فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض) رواه الإمام مسلم.

ويكفي شرفًا للذكر: أن البيت الذي يذكر الله فيه بمنزلة الحي، والبيت الذي لا يذكر الله فيه بمنزلة الميت، ففي صحيح مسلم يقول رسول الله ﷺ: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت).

عباد الله: الذكر علاج للأمراض، ودواء للأسقام، وشفاء للقلوب والأبدان، قد يمرض المسلم ولا يدري كم من الخير سيحصل له بسبب مرضه:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... ونترك الذكر أحيانًا فتنتكس

المريض في أعطاف النعمة يتقلب، وفي بحبوحة رضوان الله يحيا وينعم، المرض يكفّر السيئات ويضاعف الله بسببه الحسنات، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله تعالى الحفظة اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل مادام محبوسًا في وثاقي) رواه الحاكم بسند صحيح، وروى مسلم من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة). ألا فليحرص المريض المسلم على ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في حال مرضه وليكثر اللجوء إلى خالقه، فرحمة الله منه قريبة، ودعاؤه مستجاب.

أيها المسلمون:

قد يصعب على الإنسان تتبع طرق الخير لكثرتها فيبحث عن شيء يتمسك به وهو عليه سهل فلا شيء غير ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ عن عبدالله بن بسر قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به قال: (لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد. بهذه الكلمة المختصرة أجاب النبي ﷺ هذا السائل الذي بين أنه يشق عليه تتبع طرق الخير لكثرتها حيث أجابه بأن يلازم ذكر الله تعالى ويشغل لسانه به، إن الأعضاء تتعب مع الحركة أما اللسان بحمد الله فهو لا يتعب مهما أكثر الإنسان من

تحريكه، وهو صغير يستطيع الإنسان بحفظه أن يصل إلى المراتب العليا والمنازل الشريفة، وبالمقابل فهو يورد الإنسان المهالك إذا حركه بما يسخط الله تعالى.

أيها المسلمون:

إن من يحب الله ﷻ يكثر من ذكره ولا ينساه، وتتضح محبة العبد لربه إذا كان ذاكرًا له وذلك في مواضع أربعة: عندما يريد النوم فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه. والموضع الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه.

والموضع الثالث: عند دخوله في الصلاة فإنها ميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل فهي محل المناجاة والقربة. والموضع الرابع: عند الشدائد والأهوال فإن القلب في هذه المواطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أخذ النبي ﷺ بنتًا له تقضي - أي تموت - فاحتضنها فوضعها بين ثدييه فماتت وهي بين ثدييه فصاحت أم أيمن، فقيل: أتبكين عند رسول الله ﷺ؟ قالت: ألست أراك تبكي يا رسول الله؟ قال: لست أبكي، إنما هي رحمة، إن المؤمن بكل خير على كل حال، إن نفسه تخرج من بين جنبيه وهو يحمد ﷻ) رواه الإمام أحمد والبزار بسند صحيح.

***

خطبة عيد النحر

الله أكبر عدد ما أحرم الحجاج من الميقات، الله أكبر عدد ما لبُّوا وزيد في الحسنات، الله أكبر عدد ما دخلوا فجاج مكة آمنين، الله أكبر عدد ما طافوا بالبيت الحرام مسبحين، الله أكبر عدد ما سعوا بين الصفا والمروة ذاكرين مكبرين، الله أكبر عدد ما خرجوا إلى منى مستغفرين، الله أكبر عدد ما وقفوا بعرفة خاضعين مخبتين منيبين إلى ربهم ومهللين، الله أكبر عدد ما وقفوا بالمشعر الحرام طالبين راغبين، الله أكبر عدد ما عادوا إلى منى، وعدد ما رموا الجمرات، الله أكبر عدد ما أراقوا من الدماء وحلقوا رؤوسهم وقصّرُوا تعظيمًا لرب الأرض والسموات، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

الحمد لله الذي خلق آدم بيده من صلصال كالفخار، وأسجد له ملائكته المقربين الأطهار، فسجدوا إلا إبليس أبى فباء باللعنة والصغار، مسح ربنا تبارك وتعالى ظهر آدم بيده فاستخرج ذريته كالذر ونفّذ فيهم الأقدار، قبض قبضة إلى الجنة وقبض قبضة إلى النار، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، بل هو النافع الضار.

أحمده - سبحانه - على نعمه الغزار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أفضلُ من صلى ونحر وحج واعتمر، وجاهد المنافقين والكفار صلى الله عليه وعلى آله

وأصحابه البررة الأخيار، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

هذا اليومُ يومٌ عظيمٌ مبارك فهو يوم النحر ويوم الحج الأكبر، وهو أفضل أيام العام يقول رسول الله ﷺ: (إن أعظم الأيام عند الله تعالى يومُ النحر) أخرجه أبو داود بإسناد جيد.

في هذا اليوم والثلاثة الأيام بعده شرعت الأضاحي حيث يبدأ ويمتد ذبح الأضاحي من بعد صلاة العيد والأفضل بعد الخطبة إلى غروب الشمس من ثالث أيام التشريق يقول الله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾ [الكوثر: ٢]، يقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (أقام النبي ﷺ بالمدينة عشرَ سنين يضحي) رواه الإمام أحمد، ويسن أن يأكلَ المسلمُ من أضحيته، وأن يهديَ لأقاربه وجيرانه، من أهدى إليه منهم ومن لم يُهد، ويتصدق منها على الفقراء، ويجوز أن يعطي غير المسلم من الأضحية لتأليف قلبه، أو لفقره.

والأضحية في الأصل مطلوبة من الحي، عن نفسه وله أن يشرّك في ثوابها من شاء من الأحياء والأموات، فإن فضل الله واسع، ومن الخطأ أن يضحيَّ عن ميته ويترك نفسَه وأهلَ بيته؛ وليحذر المسلم من التباهي والإعجاب بالنفس والتفاخر بالأضحية فإنها نعمة يجب أن يشكر الله على تشريعها وتيسيرها، فكم من مسلم لا يستطيع أن يضحي،

والأضحية أفضل الأعمال التي يقوم بها المسلم يوم النحر.

روى ابن ماجه والحاكم والترمذي عن أم المؤمنين عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: (ما عمل آدمي من عمل يوم النحر أحبُّ إلى الله من إهراق الدم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفسًا). إنه ليس المقصود من الأضحية مجردَ إهراق الدم وإنما المراد ما يكون لله ﷻ من الإخلاص والإنابة والطاعة والتعبد. ومن السنة أن يشهد المسلم أضحيته عند تهيئتها، لما ينبعث في نفسه حينئذ من إحساس بتكريم الله - تعالى - حيث أقدره على الإحسان، ثم إحساسه بالعبرة حين يشهد لحظةَ مفارقة الحي للحياة وهي لحظة تعين العبد على الإقبال على ربه وزهده بالملذات فإنه لن يعمر في هذه الحياة.

فما الدنيا بباقية لحيٍّ ... وما حيٌّ على الدنيا بباقي

أيها المسلمون: إن الأيام الثلاثة التي تلي يوم العيد تسمى بأيام التشريق وهي أيام فاضلة شريفة لا يجوز صيامها، قال عنها رسول الله ﷺ: (أيام منى أيامُ أكل وشرب وذكر الله ﷻ) رواه مسلم. يجتمع للمسلمين في هذه الأيام الثلاثة نعيمُ أبدانهم بأكل اللحوم والشرب، ونعيمُ قلوبهم بالذكر والشكر، وهي الأيام المعدودات التي قال الله ﷻ عنها: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، والذكر المأمور

به في هذه الأيام المباركة أنواع كثيرة: منها الذكر عقب الصلوات المكتوبة بالتكبير في أدبارها إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو قول: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، ويجزي من التكبير مرة واحدة وإن زاد فلا بأس وإن كرره ثلاثًا فحسن والنساء يكبرن في بيوتهن، ومن الذكر ذكر الله ﷻ بالتسمية والتكبير عند ذبح الأضاحي، وذكره عند الأكل والشرب، ودخول المنزل والخروج منه، ومن الذكر دعاء الله ﷻ واستغفاره فإن الإكثار من ذلك مأمورٌ به في هذه الأيام الفاضلة؛ قال عكرمة: كان يستحب أن يقال في أيام التشريق: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

وفي هذه الأيام الفاضلة تشرع التوبة، وهي واجبة في كل وقت ولكنها في الأوقات الفاضلة أوجب، وقد جعلها الله - سبحانه - ملاذًا مكينًا وملجأً حصينًا، يمحو الله بها الخطايا والآثام، مهما كانت عظيمة حتى ولو كان صاحبها كافرًا قال الله -تعالى-: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولقد جعل الله -تبارك وتعالى- من الأعمال الصالحة كفارات للخطايا، وبفضله وكرمه وجوده يبدل السيئات إلى حسنات: يريد التخفيف على عباده وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ

﴿ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: ٢٧ - ٢٨]، إن التوبة والاستغفار من الخطايا والذنوب سببٌ لتكفيرها وحصولِ المغفرة والرحمة يقول الله -تعالى-: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠]، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة: ٧٤]، ومن ظن أن ذنبًا لا يسعه عفوُ الله فقد ظن بربه ظن السوء، وقد ورد في الحديث: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه) رواه مسلم، وأخرج الحاكم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: (أحدنا يذنب قال: يُكتبُ عليه. قال: ثم يستغفر منه. قال: يُغفرُ له، ويثابُ عليه. قال: فيعود فيذنب. قال: يُكتبُ عليه. قال: ثم يستغفر منه، ويتوب. قال: يغفر له، ويثاب عليه، ولا يملَّ الله حتى تملوا).

ومما يشرع في هذه الأيام: التكبير ويُرفع به الصوت للرجال في المساجد والأسواق والتجمعات والطرق والبيوت قال الله -تعالى-: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، وقد فسرت بأنها: أيام العشر.

وصفته: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد. وإن زاد الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله بكرة وأصيلًا، كان حسنًا، ويجوز بما تيسر من التكبير والتحميد والتهليل قال الله -تعالى-:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [التوبة: ١٨٥]، فلنحرص على التكبير في كل وقت ولنتواصَ به فإنه من الشعائر والعبادات التي يغفل الناس عنها. إن الذكر من الشعائر العظيمة والله -سبحانه- يقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، ومما يشرع: كثرة الأعمال الصالحة من نوافل العبادات كالصلاة والصدقة وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام وسائر أبواب الخير، فإن ثواب الأعمال الصالحة يضاعف في هذه الأيام فالعمل فيها وإن كان مفضولًا فإنه يكون أفضل وأحب إلى الله من العمل في غيرها وإن كان فاضلًا حتى الجهاد الذي هو من أفضل الأعمال إلا من عُقر جواده وأُهريق دمه.

أيها المسلمون: إن أنسب وقت للمسلم كي يتناسى خصوماته وعداواته وهجرانه لإخوانه المسلمين، هو هذه الأيام: أيام العيد، فما أحرى المسلمين أن تصفو قلوبهم، وتتعمق صِلاتهم فيما بينهم، فاحرصوا -رحمكم الله- على بر الوالدين، وصلة الأرحام، واحذروا قطيعتها واحرصوا على إسداء الجميل، ومحبة الخير للناس، والصفح عن هفواتهم وزلاتهم.

أيها المسلمون:

إن هذا اليوم الأغر هو يوم عيد للأمة الإسلامية في مشارق الأرض

ومغاربها، فما أحرانا أن نتوجه إلى الله ﷻ بقلوب صادقة خاشعة، حامدين له شاكرين على نعمة الإسلام والإيمان، وأوصيكم بصلة الرحم فإن الله تبارك وتعالى لعن قاطعي الأرحام فقال -عز من قائل-: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥]، ويقول جل ذكره: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

هذه الأيام أيها المؤمنون من أعظم الفرص للعودة للحي القيوم، فمن لم يعد إلى مولاه فما استفاد من هذه الأيام، ومن لم يتفقد أرحامه بالصلة والزيارة فما استفاد منها والله المستعان، وكل عام وأنتم بخير، وأعاد علينا وعليكم هذه المناسبة باليُمن والخيرات والبركات.

***

التفسير

وقفات مع فاتحة الكتاب

أيها المسلمون:

كان رسول الله ﷺ حريصًا على أمته، فقد قال: (لكل نبي دعوةٌ مستجابة فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) رواه البخاري ومسلم. ومن حرصه على أن تستقيم أمته توجيهاته العظيمة، قال عزّ من قائل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣_٤]، ولنقف هذا اليوم مع بعض توجيهاته ووصاياه، حول سورة عظيمة من كتاب الله - تعالى -، يرددها المسلم في اليوم والليلة سبع عشرة مرة إنها سورة الفاتحة. فعن أبي سعيد بن المعلي رضي الله عنه قال: كنت أصلي بالمسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله تعالى: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم)، ثم قال ﷺ: (لأعلمنك سورةً هي أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد) فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج، قلت: يارسول الله. قلتَ: لأعلمنك أعظمَ سورة في القرآن قال: (الحمد لله رب العالمين)، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته)رواه البخاري. إن هذه السورة لها أسماء كثيرة فهي تُسمّى السبعِ المثاني؛ لأن آياتها سبع، وتُثنى وتُكرر في الصلاة، وتُسمّى الفاتحة؛ لأنها فاتحة القرآن أي أوله، أو لأنها أول ما نزل منه. ولقد

سماها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أساس القرآن، وسماها يحيى بن كثير: بالكافية، لأنها تكفي عن غيرها، وغيرُها لا يكفي عنها، وتُسمّى: بالشافية، روى أصحاب السنن، أن أبا سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مع بعض أصحابه في سفر، وقد نفذ ما معهم من الطعام، فمرّوا على قوم قد لُدِغ كبيرهم، فطلبوا منهم علاجًا فقال أبو سعيد: إن جعلتم لنا جُعلًا من الماشية أعطيناكم ما عندنا من الدواء، قالوا: نعم فذهب أبو سعيد إلى الرجل المُصاب وقرأ عليه فاتحة الكتاب، فقام الملدوغ وليس به شيء، فلما قدم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على رسول الله أخبروه عن قصتهم، وعن أخذهم الماشية قال: (ما أدراكم أنها رقية)، وقال فيما أخذوه من الأجر: (اجعلوا لي سهمًا معكم). الصلاة لا تصح بغير قراءة هذه السورة العظيمة؛ روى البخاري ومسلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)، وروى أبو داود أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلُها؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كيف تقرؤ في الصلاة؟ قال: فقرأ أمّ القرآن، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلَها)، وتُسمّى سورة الفاتحة بالصلاة، حيث يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يقول

الله تعالى: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: الحمدُ لله رب العالمين، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمنِ الرحيم، قال: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يومِ الدين، قال: مجّدني عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضآلين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) رواه مسلم.

وإذا كانت الفاتحة بهذه المكانة العظيمة، والمنزلة الرفيعة، فلنقف قليلًا على آياتها السبع من أجل بيانها وإيضاحها، فقوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين): معنى ذلك: الشكر لله خالصًا دون سائر ما يعبد من دونه، وهو سبحانه الجدير بالحمد، لأن النعم منه سبحانه وتعالى وإليه. وفي الحديث: (أفضل الدعاء الحمد لله) رواه الترمذي، وروى الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إنّ الله تعالى يقول: ياعبادي كلكم مُذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له كن فيكون)، والمقصود بالرب: المالك المتصرف، والعالمين: جميع الناس وغيرهم، والرحمن: المنعم بجلائل النعم، والعاطف، على البر والفاجر من خلقه، والرحيم: أي رحمة خاصة بالمؤمنين، والرحمن: اسم خاص بالله لايُسمّى به غيره، والمقصود

بيوم الدين: يومُ الجزاء والحساب، أي يوم يدين الله العباد بأعمالهم، ويجازى كل شخص بما كسب؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار) رواه البخاري ومسلم، وقوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾: أي: لا نعبد غيرك ولا نستعين إلا بك فنحن نخصك ياربنا بالعبادة والاستعانة، فكل عبادة لغيرك تكون شركًا، وقد جاء قوله -تعالى-: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بعد: الرحمن الرحيم: ليكون الترهيب بعد الترغيب. كقوله -سبحانه-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]: أي: وجهناوأرشدنا إلى الدين الحق الواضح، (صراطَ الذين أنعمت عليهم): أي: غير الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق ثم عدلوا عنه، وغير الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلال، والمراد بهم اليهود والنصارى، ومن سلك مسلكهم. لقد اشتملت هذه السورة، وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد العباد على سؤاله والتضرع إليه والتبرء من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية، تبارك وتعالى وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالِهم إياه الهداية إلى الصراط

المستقيم، وتثبيتهم عليه حتى يقضَى لهم بذلك إلى جواز الصراط المستقيم يوم القيامة الموصلِ إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كما اشتملت السورة على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة.

قد اشتملت السورة على التوحيد، وعلى العبادة، وعلى الوعد والوعيد، وعلى طريق السعادة وعلى القصص والأخبار، عمّن مضى من الأمم المطيعة لربها والعاصية له. ويستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين: ومعناه: اللهم استجب وقيل معناه: لاتخيب رجاءنا، وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال: (إنهم لن يحسدونا على شيء، كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)، وفي رواية: (ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول آمين، فأكثروا من قول آمين)، وفي الحديث الصحيح: (إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه) قيل: وافقه في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص.

فلنحرص أيها الإخوة على تفهم هذه السورة العظيمة، وعلى تدبر معانيها، فهي سورة عظيمة فسرها بعضهم في مجلد كامل.

أيها المسلمون:

إن الابتهال إلى الله -تعالى- كلَّ يوم سبع عشر مرة، بإياك نعبد وإياك نستعين: يستلزم من المسلم تجديد حياته كل وقت، بمراقبة الله وخشيته، والرجوع إليه بالاستغفار والتوبة والإنابة، وإليكم واحدًا من الأئمة الذين وصلوا بإيمانهم وإنابتهم إلى مكانة رفيعة عالية، إنه الإمام مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لقد كان لا وزن له، ولكنه بالإنابة والتوبة تحوّل حتى صار فقيه المدينة وعالمها فكيف تحوّل إلى الهداية والعلم؟ لقد رأى يومًا شخصًا غنيًا وهو يتكبر أمام فقير حيث يطلب الفقير منه حقه، ويقول له: أعطني مالي لاتدع بنياتي يمتن هذه الليلة من الجوع، يقول مالك: فقلت له: أعطه حقه وألحيّت عليه فأعطاه دراهمه، فقلت للفقير: إذا تعشت بناتك الليلة فليدعين لمالك بن دينار؛ ولم يكن مالك متزوجًا فقذف الله في قلبه حب الزواج، فاشترى جارية مؤمنة أعتقها ثم تزوجها، وكانت نعمة المرأة كما يقول مالك عنها حيث كانت تعينه على الخير وأنجبت له بنتًا أحبها حبًا عظيمًا فلما كانت في سنتها الرابعة، خرّت البنت بين يديه ميّتة، يقول مالك فحزنت عليها، فلما جاء الليل وأنا أبكي حزينًا مهمومًا وإذا بي أرى في المنام القيامة قد قامت، وكأنني أُطارَد، وإذا أمامي جبل فيه فتحات وإذا ببنيات يقفن بتلك الفتحات فلما رأينني قلن: يا فاطمة أدركي أباك، فجاءت فإذا هي ابنتي، فأشارت إلى الذي يطاردني فوقف، وأشارت إلي فصعدت إليها

وجلست عندها وإذا هي تقول: يا أبتاه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ﴾ [الحديد: ١٦] قالتها ثلاث مرات يقول مالك: فاستيقظت على أذان الفجر وصوتها كأنني أسمعه يردد في أذني الآية، فاستغفرت ربي وتوضأت، وذهبت إلى المسجد فقرأ الشافعي في الصلاة: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، فكأنه يعنيني، فلما أنهى صلاته استدار إلى الناس، وشرح الآيات التي قرأ يقول: إن الله يستحث التوبة في قلوب عباده والخشوع والخشية فقال: ألم يأن: أي ألم يأت أوان الخشية والتوبة؟ ويأن مشتقة من الآن أي كأنه يقول: الآن الآن توبوا. يقول مالك: فصبرت واحتسبت، وقلت لأهلي لنذهب إلى مدينة رسول الله ﷺ فذهبت إليها وطلبت العلم، حتى ضرب الناس إليّ أكباد الإبل يتعلمون، فإن أخذ الله بنيتي فقد رزقني أبناء الناس ينشرون عني العلم في مشارق الأرض ومغاربها.

وهكذا أيها المسلم ثق أن ربك ما أخذ منك إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليعافيك، وما أمرضك إلا ليشافيك ولكنك يا ابن آدم، إذا جاءك عوادك شكوتَ الذي يرحمُ على الذي لا يرحم، فالله المستعان.

***

تفسير سورة الضحى

أيها المسلمون:

ورد في الحديث قوله ﷺ: (فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله ﷻ على خلقه) رواه الترمذي، فلنقف هذا اليوم، مع إحدى سور القرآن القصيرة، كي نتعرف على معانيها، ونتفهم مقاصدها، أسأل الله بأسمائه وصفاته أن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته، وأن يجعلنا ممن يقرأ كلامه، ويفهم معناه، ويعملُ به، فإن هذا هو الأهم، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يقرأون القرآن فلا يتجاوزون منه شيئًا حتى يعرفوا معناه ويعملوا به، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نعرف معناها ونعمل بها فعرفنا القول والعمل).

قال الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾، روى البخاري ومسلم عن جندب رضي الله عنه، قال: اشتكى النبي ﷺ في ليلة أو ليلتين فأتت امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، قيل: إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب، لقد أقسم الله ﷻ بالضحى، وما جعل فيه

من الضياء، وأقسم بالليل إذا سكن فأظلم وادلهم، وهذا دليل ظاهر وواضح على قدرة الخالق تبارك وتعالى، وقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾: أي: ما تركك وما أبغضك، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وللدار الآخرة خير لك من الدار الدنيا، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهدَ الناس في الدنيا.

وأعظمهم لها تركًا، ولما خُيّر -عليه الصلاة والسلام- في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورةِ إلى الله ﷻ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

وروى الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه، وقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا، قال رسول الله ﷺ: (مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾: أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته وفيما أعده له من الكرامة، وفي صحيح مسلم رحمه الله عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله -تعالى- في إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي)، وبكى فقال الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتى جبريل النبي ﷺفسأله فأخبره فقال الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمد فقل له: إن الله يقول لك: (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك).

أيها المسلمون: قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ عدد سبحانه منته على نبيه محمد ﷺ، فلقد مات أبوه وهو حمل في بطن أمه، ثم توفيت أمه وعمره ست سنين، فكفله جده عبدالمطلب سنتين، وبعد ذلك كفله عمه أبو طالب، وله من العمر ثمان سنين، فكان يحوطه، ويرفع من قدره، ويكف أذى قريش عنه، بعد نبوته، وعندما كان - عليه الصلاة والسلام - في المدينة آواه الأنصار، وأحاطوا به، وقاتلوا بين يديه، وكل هذا من حفظ الله له وعنايته به.

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾: قيل: ضالًا في شعاب مكة، فهداك وردك إلى جدك عبدالمطلب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضلَّ النبي ﷺ وهو صغير في شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفًا عن أغنامه فرده إلى جده عبدالمطلب، فمنَّ الله عليه بذلك حين رده إلى جده على يد عدوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾: أي: كنت فقيرًا ذا عيال فأغناك

الله عمن سواه، وفي الحديث: (ليس الغني عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس) رواه البخاري ومسلم، وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه) رواه مسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾: أي: كما كنت يتيمًا فآواك الله، فلا تقهر اليتيم أي لا تذله ولا تهنه، ولكن أحسن إليه وتلطف به، وقال قتادة: كن لليتيم كالأب الرحيم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا شكا إلى النبي ﷺ قسوة قلبه فقال: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك) رواه الطبراني، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله -ﷺ-: (من ضم يتيمًا بين مسلمين في طعامه وشرابه حتى يستغني وجبت له الجنة) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾: أي: السائل في العلم المسترشد، وقيل: المسكين يرد برحمة ولين، والمعنى: (لا تكن جبارًا ولا متكبرًا، ولا فظًا على الضعفاء من عباد الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾: أي: حدّث بنعمة الله عليك، وفي الدعاء المأثور: (واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنيين بها عليك قابليها وأتمها علينا) رواه أبو داوود، والخطاب في الآيات للنبي ﷺ

والحكم عام له ولغيره، وروى النسائي عن مالك بن نفلة الجشمي قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا فرآني رثّ الثياب فقال: (ألك مال؟ قلت: نعم يا رسول الله من كل المال. قال: (إذا آتاك الله مالًا فليُر أثره عليك)، وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يُرى أثرُ نعمته على عبده) رواه مسلم، وفي حديث آخر: (لا يشكر الله من لا يشكر الناس) رواه أبو داوود، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: (من أعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليثن به، فمن أثنى به، فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره) رواه أبوداود.

***

وقفة مع سورة التكاثر

أيها المسلمون:

يقول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ١ – ٨]، المراد: أشغلكم حبُّ الدنيا ونعيمُها وزهرتُها عن طلب الآخرة وابتغائِها وتمادى بكم ذلك، حتى جاءكم الموت وصرتم من أهل المقابر.

عباد الله: روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول العبد مالي مالي، وإنّما له من ماله ثلاثٌ: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، ما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس)، وروى مسلم أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يتبع الميتَ ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله)، وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة الأحنف بن قيس، أنه رأى في يد رجل درهمًا، فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال: الرجل لي فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر، أو ابتغاء شكر، ثم تمثل الأحنف بقول الشاعر:

أنـــت للمـــال إذا أمـــسكته وإذا أنفقتـــه فالمـــال لـــك

- يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ ﴾ [التكاثر: ٢] قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أرى المقابر إلا زيارةً، ما للزائر من بد من أن يرجع إلى منزله. أي: إلى الجنة أو النار، فكأن مكث الإنسان في قبره زيارةٌ حقيقية يعود بعدها إلى داره الأبدية دار النعيم أو الجحيم.
- وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ [التكاثر: ٣ – ٤]: وعيد للناس بعد وعيد، وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ٥ ﴾ [التكاثر: ٥] أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر، ثم قال تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧ ﴾ [التكاثر: ٦-٧]: هذا تفسير وتوضيح لقوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٤ ﴾ [التكاثر: ٣-٤] توعدهم الله عز وجل بهذه الحالة، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرةً واحدةً خرّ كلُّ ملكٍ مقرب، ونبيٍّ مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال كما ورد ذلك في بعض الآثار، ذكره الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]: أي: ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك.

وعن محمود بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لمّا نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾، قالوا: يا رسول الله عن أي نعيم نسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفُنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: أَمَا إن ذلك سيكون، وفي رواية: إن الله أوحى إلى نبيه ﷺ قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم، وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: (ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم): الأمن والصحة، وعن زيد بن أسلم يعني: شبعَ البطون، وباردَ الشراب، وضلالَ المساكن، واعتدالَ الخلق، ولذةَ النوم، وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: النعيم: صحة الأبدان، والأسماع، والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)، والمعنى: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب فهو مغبون: أي: خاسر، وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله ما يكفيني من الدنيا؟ قال: (ماسد جوعتَك، وواري عورتك، وإن

كان لك بيتٌ يُظلك فذاك، وإن كانت لك دابة فبخٍ)، وبخٍ: كلمة مدح.

وعن أبي عسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مولى الرسول ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ليلًا فمر بي، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط أطعمنا، فجاء بعذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، قِبَلَ رسول الله ثم قال: يا رسول الله إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال نعم إلا من ثلاث: (خرقةٍ كف بها عورته، أو كسرةٍ سد بها جوعه، أو جحرٍ يدخل فيه من الحر والقر) رواه الإمام أحمد ورواته ثقات، وعن أبي عبدالرحمن الجُبْلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسأله رجل فقال: (ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأةٌ تأوي إليها؟ قال: نعم؛ قال: ألك مسكنٌ تسكنه؟ قال: نعم قال فأنت من الأغنياء) رواه مسلم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: وأنا والذي نفسي بيده أخرجني الذي أخرجكما قوموا، فقاموا معه، فأتوا رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسول الله ﷺ: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى

رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرمَ أضيافًا مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسرٌ وتمرٌ ورطبٌ، وقال: كلوا وأخذ المدية أي السكين، فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة) رواه مسلم.

اللهم أوزعنا شكر نعمك، اللهم ارزقنا شكرها ياكريم.

***

عبر من قصة أصحاب الفيل

أيها المسلمون:

قال الله -تعالى-: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال -تعالى-: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة: ٦-٨]، وقال -تعالى-: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل: ١٥].

أيها المسلمون: هذه السورة القصيرة تحمل في آياتها القليلة عظات وعبرًا، فلقد أرسل الله -سبحانه- إلى جيش أبرهة طيرًا جماعاتٍ جماعات، وهي على صغرها تحمل الموت الزؤام، لمن أرسلت إليه في مناقيرها وأرجلها، لقد أَهلكت الجبابرة وأرسل الله عليهم سيلًا ذهب بهم وألقاهم في البحر ما عدا سائس الفيل وقائده فقد عاشا بمكة أكثر من خمسين سنة بعد هذه الحادثة لحكمة يعلمها الله ولكنهما عميا، ورأتهما عائشة رضي الله عنها وهما أعميان مقعدان يستطعمان الناس.

إن هذه الحادثة الشهيرة، تؤكد أن القوة لله جميعًا، وأن قوى البشر مهما بلغت تتضاءل أمام قوةِ الله -تعالى-، كما أن هذه الحادثة تكشف ضعفَ البشر، مهما تجبروا وأوتوا من قوة. لقد أرعد وأزبد أبرهة الظالم، وأقسم ليهدمنّ الكعبة، ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد هلك هو وجنده وهلاكهم ليس بواسطة طائرات ولا صواريخ، ولكن بواسطة طيور صغيرة تحمل معها طينًا ولم يكن هلاكهم بداية الهلاك للأمم والقوى الظالمة، فقد سبقتها قوىً حطمت: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

إن هذه الحادثة لا تعني أن يترك المسلمون فعل الأسباب المشروعة، كلا ! فلقد أمر الله المسلمين بإعداد القوة فقال -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ولكن هذه الحادثة تؤكد عدمَ الاستسلام للباطل مهما انتفش أصحابه، وتؤكد عدمَ اليأس من نصر الله -تعالى- حين يُستضعف المسلمون، وتؤكد عدمَ الإحباط عند رؤية القوى الكبرى تبطش وتقهر وتحل وتعقد، فالله يمهل ولا يهمل، وأخذه أليم شديد، وهو للظالمين بالمرصاد، وهو واهب القوى، والقادر على نزعها.

ومما تدل عليه هذه الحادثةُ: أن الاعتقاد بدوام قوةٍ وخلودِها مهما

بلغت اعتقاد خاطئ، يكذّبه الواقع فأين عاد؟ وأين ثمود؟ وأين فرعون؟ وأين قارون؟ وأين جحافل التتار؟ وأين الصليبيون؟ وأين زعماء الحربين العالميتين؟ وأين زعماء الشيوعية الحمراء؟ إن تاريخ القوى الظالمة التي سقطت عبر القرون يؤكد حقيقةً مفادها أن الملك لله والتفردَ له وكلما زاد الظلم سارع في السقوط، ومما تدل عليه الحادثة: أن العرب بلا إسلامٍ لا يستطيعون مواجهة أعدائهم.

فهم لم يستطيعوا حماية بيت الله ولم يشأ الله أن يحميَ بيته المشركون ولكنّه شاء أن يبعث رسول الله ﷺ ليقوم المسلمون بالدفاع عن أنفسهم ومقدساتهم. وإذا كان العرب قديمًا لا شأن لهم ولا دورَ على مستوى العالم. فإن العرب بخاصة والمسلمين بعامة لهم شأن عظيم جدًا إذا ما تمسكوا بكتاب ربهم، وحكموا دينه، وشريعة نبيهم فالذي دفع أصحاب الفيل وردّهم خاسئين قادر سبحانه على دفع غيرهم من الأمم الكافرة، ولم يكن أصحاب الفيل هم القوةَ الأولى ولا الأخيرةَ في هذا الكون ممن دمرهم الله وأهلكهم بظلمهم، فسيظل الهلاك والتدمير لكل من عتى وتسلط وظلم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤_٤٥].

***

من قصص داود وسليمان عليهما السلام

أيها المسلمون:

القصة محببة للنفوس، أثيرة عند الناس، يصغون إليها ويحبونها، وأحسن القصص قصص القرآن الكريم، ثم قصص الحديث النبوي، فذلك القصص حق كلّه، وصدق كلّه، فهو يحكي أخباراً وقعت لا يوجد فيها زيادة ولا نقص، وقد أُمِر نبي الله ﷺ بأن يقص على الناس ما يعلمه، لعل الناس يتفكرون في أحوال الماضين، ليأخذوا العبر لأنفسهم ويعملوا للدارين، يقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١].

قال أحد السلف: (القصص جند من جنود الله يثبت بها الله من يشاء من عباده).

الحياةُ الإنسانيةُ فوق الأرض قديمًا وحديثًا، متشابهة في الاستقامة والانحراف، والمستقيمون من البشر أو المنحرفون نماذج متكررة توجد قديمًا كما أنها توجد حديثًا.

فالقرآن الكريم والحديث النبوي يحدثنا كل منهما أحاديث نجد فيها أنفسنا، أو نجد فيها أناسًا من حولنا، فكأن النصوص وهي تروي قصة فلان أو فلان تحدثنا عما يعانيه البعض في العصر الحاضر من بلاء، أو ينعم به من رخاء، وكأنها تتحدث عن شخص عادل أو ظالم،

أو إنسان أمين أو خائن، أو صادق أو كاذب.

والمقصود أخذ الموعظة والعبرة مما يسمعه الإنسان من قصص، أو يمر به من مواقف، فما أكثر ما يمر بالإنسان من العبر! والمطلوب الاعتبار، فما أكثر العبر وأقل الاعتبار!

أيها المسلم المبارك:

إليك هذه القصة التي تظهر عبقرية نبي الله سليمان عليه السلام، في إظهار الحق وذلك في خصومة خلت من الأدلة التي تدل على صاحب الحق، فالله عز وجل يعطي الفهم من شاء من خلقه، لقد أظهر سليمان أنه يريد قتل الطفل المتنازع عليه وهو لن يقتله، كما سيأتي في الحديث الصحيح.

وبعدما استمعت المرأتان إلى كلامه ظهرت أمه الحقيقية التي جادت بولدها للأخرى حفاظًا على حياته حتى ولو تعرض للأذى، وأما الكاذبة فقد قبلت أن يشقه سليمان نصفين لتأخذ نصفًا وتأخذ أمه الحقيقية النصف الآخر، وإليكم نص الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى:

لا تفعل -رحمك الله- هو ابنها فقضى به للصغرى) رواه البخاري ومسلم.

هذه القصة العجيبة وقعت في عهد نبي الله داود - عليه الصلاة والسلام -، فقد تحاكمت إليه امرأتان، ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا في الولد الآخر كل واحدة تدعي أنه ولدُها، فاجتهد نبي الله داود في الحكم بينهما، فحكم به للكبرى منهما بدلائل استدل بها، ولاشك أن أحد الخصمين قد تكون حجته أقوى من الآخر، وإن كان الحق ليس معه، والقاضي ليس له إلا الظاهر فالغيب لا يعلمه إلا الله، فلما خرجتا من عند داود مارتين بنبي الله سليمان، وقد علم ما حكم به والده رأى سليمان أن يستخدم طريقة ذكية يستطيع أن يعرف من خلالها الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يحضروا له سكينًا ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطي كل واحدة منهما نصفًا، وبهذا يعدل بينهما في الحكم حينما ساوى بينهما في مقدار نصيب كل واحدة منهما، وقد ظنت المرأتان أن سليمان جاد في كلامه، عازم على فعله، فهو نبي من أنبياء الله، ولن يقول إلا الحق، فظهر رد فعل كل واحدة منهما، فالأم الحقيقية جزعت من ذلك؛ لأن فيه هلاك ولدها وهي تنظر، فطابت نفسها بولدها للأخرى؛ لأن في ذلك بقاءه وحياته وإن كان في ذلك حرمانها من تربيته ورعايته، وقد يحصل الضرر له أيضًا من هذه المرأة الحاسدة، ولكن بعض الشر أهون من بعض، هذا هو الذي فكرت به الأم الحقيقية واجتهدت في أن يكون الحكم على هذه الطريقة التي

رأتها، وأما الأخرى التي لا تربطها بالطفل رابطة الأمومة ولكن الحسد أكل قلبها، حيث أكل الذئب ابنها، ولم يأكل ابن المرأة الأخرى لذا قبلت بالحكم الذي أظهره سليمان، لتكون المرأة الأخرى مثلها في المصيبة فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم بالطفل للصغرى مع إقرارها بأنه للأخرى (الكبرى).

يقول الإمام النووي رحمه الله:

(لم يكن مراد سليمان – عليه السلام – أن يقطعه حقيقة، وإنما أراد اختبار شفقتهما لتتميز له الأم فلما تميزت بما ذَكَرَت عرفها) ا.هـ

وهذا الذكاء الذي أظهر لسليمان الحق حيث تبين واتضح بما لا يدع مجالًا للشك هو نوع من الفراسة والاستدلال بالعلامات، وقد لجأ القضاة المسلمون إلى استخراج الحق بأنواع لطيفة من الدلائل، التي لا ينتبه لها إلا من كان نبيهًا فطنًا.

وممن اشتهر بذلك من القضاة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والقاضي شريح، والقاضي إياس، وغيرهم كثير.

أيها المسلمون:

لنقف قليلًا مع حديث المرأتين اللتين خطف الذئب ابن إحدهما فهو حديث جليل يشتمل على عدة فوائد منها:

- مكانة نبي الله سليمان وفضله، وما آتاه الله من الفهم والقدرة على استخراج الحكم، وقد جاء في الحديث أن سليمان دعا ربه أن يهبه

حكمًا يوافق حكم الله فأوتيه، وهذا لا يعني التقليل من شأن والده داود، عليه السلام فقد أثنى الله عليهما معًا ولم يَلُمْ داود لعدم إصابة الحق فيما حكم به، فالحاكم العالم مثاب أصاب أو أخطأ قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

- ومن فوائد الحديث: أن للحاكم أو القاضي أن يظهر للخصوم فعل ما لا يريد أن يفعله، فقد طلب سليمان عليه السلام السكين لشق الولد نصفين، وهو لا يريد ذلك بل كان قصده أن يظهر الحق وأن تتضح الأم الحقيقية.
- ومن الفوائد: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يحكمون باجتهادهم، فيما يعرض عليهم من القضايا، ولذلك اختلف حكم داود وسليمان - عليهما السلام - ولو حكموا بالوحي لما اختلفوا، ولذا فقد حكم النبي ﷺ لغير صاحب الحق كما ورد في بعض الأحاديث.
- ومن فوائد الحديث: قساوة بعض النفوس، وامتلاء بعض القلوب بالحسد الذي يأكلها، والحقد الذي يسري في نياطها، فهذه المرأة التي افترس الذئب ابنها لم تجد مانعًا من شق ابن المرأة الأخرى بالسكين نصفين، وهو منظر مفزع ولاشك، ولكن لحقدها وحسدها وافقت على ذلك ولم تمانع، وإلا فما الذي تستفيده من نصف الجثة إذا أخذته؟ إلا أن الشر والحسد ملأ قلبها، فرأت أن هذا الأمر سهل، وأن المهم أن تحرم المرأة الصغيرة من ولدها، كما حرمت هي لتساويها بالمصيبة.

***

السيرة

بنيت بالعفو مجدًا

أيها المسلمون:

مرت الأيام القليلة الماضية، وكثير من المسلمين مشغولون بإقامة احتفالات يسمونها احتفالات دينية، حيث إنها توافق مولد رسول الله ﷺ في نظرهم، ولابد من الوقوف قليلًا حول هذا الأمر، وذلك أن اختراع مناسبات دينيةٍ متكررةٍ ابتداعٌ في الدين، ومن ذلك تلك المناسبة فلم يكن - صلوات الله وسلامه عليه - يحتفل بمولده، ولم يكن أصحابه من بعده يحتفلون بذلك، ولم يكن سلفنا الصالح الذين أخذوا عن الصحابة علمهم يحتفلون بالمولد، بل إن هذه الاحتفالات البدعيةَ وُجدت بعد القرون المفضلة التي هي خيرُ قرونِ الأمة وأفضلُها وأزكاها، يقول رسول الله ﷺ: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) رواه البخاري، وبالإضافة إلى أن أصل تلك الاحتفالات من الأمور المبتدعة، فإنه يقع فيها من المعاصي، ومخالفة الشريعة الشيء الكثير كالسفور، والاختلاط، والتبرج، وما يتبع ذلك من أمور محرمة، قد تقع كترك صلاة الجماعة مثلًا.

أيها المسلمون: إن مولد رسول الله ﷺ لم يكن محددًا بتاريخ معين متفق عليه عند المؤرخين وعلماء السيرة، فإن منهم من يرى أن ولادته كانت في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول، وعلى هذا ففي تحديد يوم

المولد باليوم الثاني عشر خطأ تاريخيٌ، بالإضافة إلى الخطأ العقدي الذي سبقت الإشارة إليه.

إنّ سؤالًا مهمًا يمكن أن يطرح أثناء الحديث عن هذا الأمر وملخصه: هل كان رسول الله ﷺ بحاجة إلى تخليد ذكرى مولده عليه الصلاة والسلام بعد أن شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره؟ فما يؤذن مؤذن، ولا يقيم مقيم، ولا يتشهد متشهد إلا ويذكر رسول الله ﷺ مع ذكر الله - تعالى -، بل إنّ الصلاة على رسول الله ﷺ ركن من أركان الصلاة التي لا تصح بدونها، فلا صلاة لمن لم يصل على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير عند بعض أهل العلم.

إنّ نبي الله - صلوات الله وسلامه عليه - ليس بحاجة إلى تخليد ذكرى ولادته، بعد أن زكى الله بصره، وعقله، ولسانه، وجليسه، بل زكاه كله في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وإذا كان - صلوات الله وسلامه عليه - ليس بحاجة إلى أن تخلد ذكرى ولادته، فإن المسلمين بحاجة ماسة إلى أن يتأسوا بنبيهم، ويقتدوا بأخلاقه، ويتمثلوه في عبادتهم لربهم، يقول الله تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وحاجتهم لذلك في كل وقت وليس يومًا في السنة.

إنّ المسلمين بحاجة إلى أن يتشبهوا بنبيهم في شفقته على الأمة ورحمته بها، فإن رحمتَه وشفقتَه لا يمكن لإنسان أن يصف مقدارهما. عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تلا قول الله ﷻ في إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربُّك أعلم فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل - عليه الصلاة والسلام -، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: (إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك) رواه مسلم، وهكذا بكى ﷺ رحمةً بأمته وشفقةً عليها.

إن المسلمين بحاجة إلى أن يتأسوا برسول الله ﷺ في عفوه وحلمه وصفحه، فقد كان يعفو كثيرًا ويتجاوز آلامه، وما يعتلج في نفسه من الأسى والمرارة، على أمل أنْ يهتديَ الناس، وأنْ يُخرجَ الله من أصلابهم من يعبد الله ؛ وذلكم قمة العفو، أخرج الإمام البغوي وغيرُه أن زيدَ بن سعنةَ وهو رجل من اليهود جاء قبل إسلامه يطلب النبيَّ ﷺ دينًا كان له عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له،

ثم قال: إنكم يا بني عبدالمطلب قوم مطل، فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم، فقال رسول الله ﷺ: أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوجَ منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي ؛ ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث (يعني ثلاث ليال) وأمر عمرَ أن يقضيَه ماله ويزيده عشرين صاعاً لما روّعه فكان ذلك سببَ إسلامه، يقول زيد ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدُة الجهل إلا حلماً؛ فاختبرته بهذا، فوجدته كما وصف. لقد كان هدف زيدٍ التثبت والاختبار؛ ولذلك أغلظ في القول، ثم كانت مطالبته قبل الموعد، ومع ذلك يسعه حلم النبي ﷺ، ويأمر له بتعويض مقابل ما أصابه من قول عمر رضي الله عنه.

وهذا مثال آخر: يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ، وثبْتُ إليه فقلت: يا رسول الله أتصلي على ابن أبيّ؟! فتبسم رسول الله ﷺ وقال: (أخّر عني يا عمر) فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ؛ قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤] قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم) رواه البخاري.

ولكي نتعرف على معرفة حجم عفوه ﷺ عن زعيم المنافقين، ينبغي أن نتذكر مواقفه المخزية، خلال تسع سنوات خَلَتْ ابتداءًا؟ من هجرته ﷺ إلى وفاة ابن أبيّ في أواخر السنة التاسعة.

إنّ عبدالله بن أبي لم يدخر جهدًا طوال حياته مع رسول ﷺ في إثارة الفتن، والتعاون مع اليهود، ومع المشركين في الصد عن سبيل الله، وإيذاء النبي ﷺ؛ إنه لم يترك طريقًا فيه إيذاء للرسول ﷺ إلا سلكه، وما حديث الإفك واتهامُه لأمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفاحشة بخاف على أحد، وما رجوعه يومَ أحد بثلث الجيش المسلم بالأمر الهين، وما قوله في غزوة بني المصطلق: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ) بالخطب اليسير؛ إن هذه الأفعال الخبيثة والأقوال الدنيئة ليست بأقل من صريح الكفر.

إن سجلِّ ابنِ أبيّ حافلٌ بالمخازي التي لقي فيها نبي الله ﷺ وأصحابه التعب والعناء والأذى، ومع كل هذا يعفو عنه ﷺ وينسى هذه الأمور كلها، وهي لا تنسى ويصلي عليه، ويقول وهو حريص على نجاته: لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ؛ إن

عفوه ﷺ عن ابن أبيّ بعد موته لا يتوقع منه مكافأة، فهو لا يريد - صلوات الله وسلامه عليه - منه جزاءً ولا شكورًا بل لقد كان حريصًا على نجاته من النار، ولكن سبق في علم الله أنه قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء: ١٤٥]، وذلك جزاء ما اقترفت أيديهم، ولا يظلم ربك أحدًا. وإذا عرفنا اتصاف النبي ﷺ بهذه الصفة العظيمة وهي صفة العفو فالمسلمون بحاجة إلى التأسي بنبيهم فيعفون عمن ظلمهم، ولكن كيف يتصف الإنسان بهذه الصفة.

إن أولَ الخطوات لاتصاف الإنسان بصفة العفو، ضبطُ النفس عند الغضب، فلقد كانت وصيةُ رسول الله ﷺ للرجل الذي قال للنبي ﷺ أوصني أن قال له: (لا تغضب. فردد مرارًا قال: لا تغضب) رواه البخاري. وهذا الغضب المنهي عنه هو ما كان لأمور الدنيا، أو من أجل الانتقام الشخصي، وأما الغضب في ذات الله تعالى، فقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - يغضب ويحمرُّ وجهه، ولكنّ غضبه هذا ليس من أجل الدنيا ولا لأمر يخص نفسه، وكم يجني الغضب على أصحابه من مآس ومصائب.

أيها المسلمون:

إن المسلمين بحاجة إلى أن يتأسوا بنبيهم ﷺ في ورعه، عن أنس رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ بتمرة في الطريق فقال: (لو لا أني أخاف أن

تكون من الصدقة (لأكلتها) رواه البخاري ومسلم، يعني: من الزكاة، والزكاة محرمة عليه صلوات الله وسلامه عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها) رواه البخاري ومسلم، وفي الحديث: أن امرأة دعت رسول الله ﷺ إلى طعام، فجاء وجيء بالطعام فوضع يده، ثم وضع القوم أيديهم، فأكلوا فنظروا إلى رسول الله ﷺ يلوك لقمةً في فمه ثم قال: (أجد لحم شاة أخذت بغير إذن أهلها)، فقالت المرأة: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع يُشترى لي شاة فلم أجد، فأرسلت إلى جارٍ لي قد اشترى شاةً: أن أرسل إليّ بها بثمنها ؛ فلم يوجد فأرسلتُ إلى امرأته فأرسلتْ إليّ بها فقال رسول الله ﷺ: (أطعميه الأسارى) رواه أبو داود. هكذا كان ورعه - صلوات الله وسلامه - عليه بينما يوجد من الناس من لا يجد حرجًا من أن يأكل المال الحرام، عن طريق ربا أو غش أو كذب أو تحايل ؛ ألا فليحرص المسلم على الحلال: (فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا).

المسلمون بحاجة إلى أن يتأسوا بنبيهم ﷺ في خوفه من الله - تعالى -: عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: (كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ، ففزع فأخطأ بدرع أُدرك بردائه بعد ذلك) رواه مسلم، وهذا من شدة سرعته

واهتمامه أخذ درع أهل بيته - ودرع المرأة: قميصها - أخذه سهوًا حتى أدركوه وأعطوه رداءه ﷺ، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء – وهي السحابة التي يكون فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة – أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهُه، فإذا أمطرت سُري عنه – أي: زال خوفه – قالت عائشة فسألته، فقال: ما أدري لعله يا عائشة، كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] رواه البخاري.

وجاء في كتب السيرة عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبي ﷺ: (ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءني شيء قضيته - والمعنى اشتر حاجتك، وأنا أسدد عنك القيمة فيما بعد –، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبيُّ ﷺ قولَ عمر. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالًا، فتبسم رسول الله ﷺ وعُرف البشر في وجهه بقول الأنصاري، ثم قال: (بهذا أُمرت) رواه الترمذي، وأحياناً كان – صلوات الله وسلامه عليه – يشتري الحاجة من صاحبها ثم يهديها إليه؛ فقد اشترى رسول الله ﷺ جملًا من جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو عائد من غزوة تبوك على أن يسلّمه له في المدينة، فجاء جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه جمله فنقده رسول الله الثمن وزاده قيراطًا، ثم خرج رسول الله ﷺ ينظر إلى الجمل، ثم

قال لجابر: (الثمن والجمل لك) رواه البخاري ومسلم.

إنّ المسلمين بحاجة إلى أن يتأسوا بنبيهم في تواضعه، فلم يكن - صلوات الله وسلامه عليه - متميزًا عن أصحابه، فكان داخلُ المسجد لا يعرفه حتى يسأل فيقول: (أيّكم محمد)؟ رواه البخاري.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (ما رأيت رجلًا التقم أُذنَ رسولِ الله ﷺ فينحِّي رأسه حتى يكونَ الرجلُ هو الذي ينحِّي رأسَه، وما رأيت رجلًا أخذ بيده فترك يده، حتى يكون الرجلُ هو الذي يدع يده) رواه أبو داود، وعن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ فكلمه، فجعل - يعني: الرجل - ترعد فرائصه، فقال ﷺ: (هوّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأةٍ تأكل القديد) أخرجه ابن ماجه.

***

بعثت بالحنفية السمحة

أيها المسلمون: يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يخبر - تعالى - عن نبيه محمد ﷺ أن رسالته رحمة للبشرية، مؤمنها وكافرها، فهو رحمة للمؤمنين، وذلك بإسعادهم في الدارين، وللكافرين بتأخير العذاب عنهم.

ويقول عز من قائل: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يخبر المولى - تبارك وتعالى - عن نبيه أيضًا أنه - صلوات الله وسلامه عليه - رسول من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، ولا خلقًا آخر من غير البشر، يشق عليه ويحرجه كلُّ أمرٍ يشق على أمته أو يحرجها، وهو حريص على جلب المصالح لأمته، وحريص على دفع المساوئ والمفاسد عنها، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم. لقد أراد الله ﷻ لعباده بإرسال رسوله اليسر والتخفيف ورفع الحرج عنهم، ولم يكلّفهم -سبحانه- ما يشق عليهم، ولا ما يوقعهم في الحرج؛ لأن الدين يسر، يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٨].

روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) رواه البخاري ومسلم.

ويقول رسول الله ﷺ: (بعثت بالحنفية السمحة) رواه الإمام أحمد، ويقول ﷺ: (إن الله شرع الدين فجعله سهلًا سمحًا واسعًا ولم يجعله ضيقًا) رواه الطبراني .

إن الكتاب العزيز والسنة المطهرة، مملوءان بالأدلة التي تدل على الأمر باليسر وترك التشديد، والذي ينظر إلى سيرة صفوة الخلق، يرى أن الله بعثه رحمة وهدى، وسع خلقه الناس سهولة ورفقًا، ونضحت يداه بالعطايا كرمًا وجودًا، وكانت هذه الخصال العظيمة تلازمه في كل حالاته، حتى في الظروف الحرجة، ففي غزوة أحد وقد شج المشركون رأسه، وكسروا رَبَاعيته قيل له: ألا تدعو على المشركين؟ فما هو إلا أن

تدفق رفقًا وصبرًا، ورقةً وحلمًا، وفاضت طبيعته العظيمة، وسجيته الكريمة بما يلتمس فيه العذر لهؤلاء الظالمين، فكان مما قال وهو يحكي نبيًا من الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليه – ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) رواه البخاري ومسلم، قال ابن حبان معناه: (اللهم اغفر لقومي ذنبهم من الشج لوجهي، لا أنه دعاء للكفار بالمغفرة)، وقال عليه الصلاة والسلام في مقام آخر: (إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة) رواه مسلم.

نعم، أيها المسلمون: فالقلوب الكبيرة لا تستجيشها دوافع القسوة على التعقل والحلم، بل هي إلى العفو والصفح أقرب منها إلى الانتقام

والبطش. العظماء كلما ارتفعوا إلى آفاق الكمال، اتسعت صدورهم، والتمسوا للناس الأعذار، وأخذوهم بالرفق واللين. والعقلاء من الناس، هم الذين يقبلون الميسور من أخلاق الآخرين، ويرضون بالظاهر من أحوالهم، ويكلون سرائرهم إلى الله، ويحملون الناس على حسن النيات، إذا وقعت الأخطاء أو الزلات أو الهفوات، فليس من الأدب الرفيع في شيء، وليس من الخلق الحسن المسارعة إلى هتك الستر، والتعجل بالكشف عما خفي.

قال بعضهم: (اجتهدوا في ستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام).

إنه لا يليق بمسلم أن يتشاغل بالبحث عن عيوب الناس بل لعله يخفي ما يعلم من صالح أقوالهم وأعمالهم، ومتى كانت وظيفة المسلم أن يلوك أخطاء الناس ويتتبع عثراتهم، ويعمى أن يرى حسناتهم؟! مع أن في عيوبه ما يشغله عن عيوب الناس:

عجبت لمن يبكي على فقدِ غيرهِ زمانًا ولا يبكي على فقده دَمَا
وأعجب من ذا أن يرى عيبَ غيرِه عظيمًا وفي عينيه عن عيبه عَمَى

إن المسلم الناصح شفوق على إخوانه، رفيق بهم، يحب لهم الخير، كما يحبه لنفسه ويجتهد لهم في النصح كما يجتهد لنفسه، وأما القساة غلاظ القلوب، فقد جرت سنة الله تعالى أن ينفر الناس منهم، فلا يقبلوا منهم دعوة، ولا يسمعوا منهم توجيهًا، ولا يرتاح لهم جليس، قال

تعـــالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وعلى قدر ما يتجاوز الإنسان عن الهفوات، ويقيل من العثرات، تدوم مودته ويأنس الناس به، وهذا أمر مشاهد محسوس.

إن المخلصين في مودتهم، الصادقين في محبتهم، لا يرون لأنفسهم زيادة فضل على غيرهم، ولا يكونون أعوانًا للشيطان على إخوانهم المقصرين. مر أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رجل قد أصاب ذنبًا، والناس يسبونه، فقال: (أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم).

أيها المسلمون:

إن من الأمور التي نهى عنها الشارع الحكيم التشدد، وهو على صور عدة فمنه التشدد في العقائد: قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أقل الناس تكلفًا، وأحسنَهم هديًا، فكانوا يسمعون القرآن والحديث ويؤمنون بهما إيمانًا تامًّا دون حرج ولا تردد، وكانوا يحسنون الظن بغيرهم فلا يتهمون أعمال الناس، فضلًا عن اتهام نياتهم.

إن اتهام الناس في عقائدهم، والتشكيك بما يضمرونه، أو حمل

كلامهم على المحامل السيئة؛ مسلك خطير، فالأصل في المسلم السلامة والعدالة، فإذا ظهر منه ما يخالف ذلك من سوء فعل أو اعتقاد أو قول عومل به بحسبه، ولم يؤمر أحد بالتنقيب عن قلوب الناس، ولا بالشق عن قلوبهم، وفي الحديث: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله عز وجل) رواه البخاري.

ومن التشدد في العقيدة: المبالغة في تضخيم بعض الأمور الجانبية على حساب الأمور الأساسية حتى أُدخلت قضايا لا علاقة لها بالاعتقاد، فأصبحت ضمن الأشياء التي يوالى فيها ويعادى، بل ويُكَفَّر مخالفها أو يُضلل أو يُبّدع حتى أصبح التكفير والتضليل والتبديع كالكلاء المباح المتاح لكل أحد، فغدا البعض وكأنه موكّل بالخلق، وبالجنة والنار، فليس له من عمل سوى إصدار الأحكام على الناس واتهامهم؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن صور التشدد:

التشدد في المعاملات: حيث إن البعض يحاسب المجتمع بمقتضى تشديدات راجت فأصبحت منهجًا له ينفرد به عن الناس، فمن لم يوافقه تركه، وأعرض عنه بل وأساء الظن فيه، ووقع في عرضه وكم يُرى في أرض الله تعالى من أقوام مقطبي الجباه، مكفهري الوجوه، لا تُرى أسنانهم وهم يبتسمون؟ ولا يعرفون الملاطفة ولا الممازحة ولا المباسطة، اللهم إلا مع خواصهم، وتزداد القسوة والشدة عندما تكون

المعاملة مع الفساق والمخطئين مع أنهم من أحوج الناس إلى العطف واللطف واللين؛ لتأليف قلوبهم على الخير والهداية، وترغيب نفوسهم، وحثهم على التوبة والاستقامة، ومما لا يخفى ما كان يتصف به نبي الله ﷺ من البشر والبشاشة، والانبساط مع الناس.

ومن صور التشدد:

التشدد في العبادات: من الصلاة والطهارة والصيام وغير ذلك، وقد يدخل الوسواس على المتعبد فيشك في وضوئه أو في صلاته، وهذا شأن الشيطان أعاذنا الله منه يريد أن يشق على الإنسان، ويبطل عبادته، ويفسدها عليه، وهو يزيّن المكروه للإنسان بشكل أو بآخر كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

إن الشيطان عدو الله إذا عجز عن الإنسان عن طريق الشهوات والإغراءات، أفسد عبادته عن طريق الشبهات أو التشديد على النفس، حتى تكون عبادته عديمة الجدوى قليلة الفائدة، وقد حذرنا منه عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦].

أيها المسلمون:

إن الأسباب المؤدية إلى التشدد كثيرة من أهمها: الطبيعة البشرية عند بعض الناس فقد خلق الله الخلق متفاوتين فيما بينهم تفاوتًا عظيمًا في الأخلاق والعقول والطبائع، فمن الناس من يكون ليّن الجانب هادئ الطبع بشوشًا بسامًا مقبلًا على الناس محسنًا إليهم، ومنهم الغليظ

الجافي البعيد عن الناس المسيء الظن بهم، وكأنه ينفق عليهم، ولو طمع أن يمنع الهواء عنهم لمنعه.

ومن الأسباب: ضيق عقول بعض الناس، وتشبعهم بطرق معينة، وانغلاقهم عما عداها، فيظن الواحد منهم أن الحق محصور لديه، ويجعل من نفسه وصيًا على الشرع، وكأنه هو الوحيد الذي ينافح ويكافح عن الشريعة والعقيدة، وأما الآخرون فهم مقصرون حتى لو سمع عن عالم جليل أمرًا يخالف ما عنده، لم يجد حرجًا في لمز هذا العالم وعيبه واتهامه، ويردد بينه وبين نفسه: نسأل الله حسن الخاتمة، ثم إن هذا الإنسان المتشدد لا يقدر على سماع ما عند الآخرين؛ لاعتقاده ببطلانه من أصله، فوقته أغلى من أن يضيعه بسماع وجهات نظر تختلف عن وجهة نظره، ولكن لابد أن نعلم جيدًا أن صاحب الحق لا يخاف من سماع ما عند الآخرين، وأما الذي يخاف فهو صاحب الباطل، لأنه يخشى أن يفتضح ما لديه من باطل، وينكشف ما عنده من ضلال.

ومن أسباب التشدد: الجهل بالدين حيث يظن البعض، أن الحماس كافٍ عن العلم وهذا غير صحيح، فالذي يريد الاستقامة على السنة، لا يكفيه في ذلك أن يكون متحمسًا للدين، فلابد أن يكون عالمًا بالله وبشرعه ولما سمع عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن بعض المتعبدين المجتهدين قيامهم بعبادات على غير الطريقة الصحيحة قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كم من مريد للخير لم يبلغه) رواه الدارمي وغيره.

إنّ مجردَ الغيرة وتعظيم الحرمات، لا تكفيان من غير توفر العلم الشرعي، فقد تصل الغيرة بالإنسان إلى الغلو وتحريم الحلال، نظرًا لجهله وقلة علمه، وقد يفتي بمسألة لو وقعت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمع لها أهل بدر، لاستشارتهم في هذه المسألة.

ومن أسباب التشدد: اتباع الهوى فإن أهواء الناس تختلف، فقد يدعو الهوى إلى الانحراف؛ لأن هوى ذلك الإنسان الفساد والانحلال، وقد يدعو الهوى إلى التشدد في العبادة؛ لأن هوى ذلك الإنسان الشدة والقسوة والغلظة والجفاء.

إنه لا يشفع للإنسان أن يكون غيورًا فحسب، فلابد أن يكون وقافًا عند حدود الله مستعدًا لمخالفة هوى نفسه، انقيادًا للشرع المطهر وإذعانًا له، فإن الإيمان لا يكمل حتى يكون الهوى تابعًا لما جاء عن رسول الله ﷺ كما ورد في الحديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به) رواه البيهقي والبغوي.

أيها المسلمون: لقد كان نبينا - صلوات الله وسلامه عليه - يحذر أمته، تحذيرًا شديدًا من الغلو والتنطع في الدين، وفي الحديث: (من يحرم الرفق يحرم الخير كله) رواه البخاري.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يعطي نماذج حية لما يأمر به، روى البخاري ومسلم أن اليهود كانوا يأتون إلى النبي ﷺ ويقولون: (السام عليك يا محمد)، ويعنون بالسام: الموت، فكأنهم يظهرون السلام عليه وهم يدعون

عليه بالموت، فغضبت عائشة ﵂ وقالت لهم: وعليكم السام واللعنة، فقال لها رسول الله ﷺ: (يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه)، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رجل يا رسول الله: إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم مار ايته غضب في موضع كان أشد غضبا منه يومئذ ثم قال:

يا أيها الناس إن منكم متفرين فمن أَمَّ الناس فليتجوز فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة رواه البخاري.

وكان ﷺ من شدة شفقته ورحمته، يترك الأمر مخافة أن يشق على الأمة، يقول ﷺ: (لولا أن أشق على أمتي، ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل) رواه البخاري، ويقول ﷺ: (لولا أن أشق على المؤمنين)، وفي رواية: (على أمتي؛ لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) رواه مسلم.

***

ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا

أيها المسلمون:

القصة أثيرة عند الناس، يصغون إليها، ويحبونها، وأحسن القصص قصص القرآن والسنة، فهي قصص حق وصدق، يقول أحد السلف: القصص جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

معشر الإخوة: حياة الإنسان فوق هذه الأرض متشابهة في القديم والحديث، في الاستقامة والانحراف، والعدل والظلم، والرحمة والقسوة. والمستقيمون من البشر، والمنحرفون نماذج متكررة. وجدت قديمًا، وتوجد حديثًا، وكأن القصص الواردة في القرآن والسنة تحدث عما يعانيه البعض من بلاء، أو ما ينعم به من رفاء.

وكأنها تتحدث عن شخص عادل أو ظالم، أمين أو خائن، صادق أو كاذب، فالمقصود إذن من القصة أخذ العظة والعبرة مما يسمعه الإنسان، يقول الله - تعالى -:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقول رسول الله ﷺ لابن عمه عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

إليكم هذه القصة التي أورد أصلها الإمام البخاري في صحيحه، ففيها دروس، وفيها عبر: امرأة تسكن في مسجد رسول الله ﷺ: تتردد على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتدخل عليها في حجرتها دائمًا، تستفيد من توجيهاتها وأخلاقها وعلومها، وكانت هذه المرأة تردد بيتًا من الشعر دائمًا، على مسمع من عائشة رضي الله عنها وهو قولها:

ويومُ الوشاح من أعاجيب ربنا ... ألا إنه من بلدة الكفر نجاني

فعجبت عائشة من إنشاد هذا البيت وتكراره، فما يوم الوشاح؟

وما تلك الأعجوبة التي أثّرت في نفس هذه المرأة؟

وأخذت تتذكرها في كل مجلس تجلسه مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

فقالت لها عائشة:

ما شأنك لا تقعدين مقعدًا إلا قلت ذلك؟

فقصت المرأة قصتها، وحكت خبر ذلك اليوم العجيب، فقد كانت المرأة مملوكةً لأناس في أطراف مكة، فأعتقوها ونالت حريتها، ولكنها بقيت بين ظهرانيهم تقوم بخدمتهم، أمة ضعيفة في حال رقها وبعد عتقها، فلا أهل، ولا معارف، ولا أقارب، ولا أرحام.

وفي يوم من الأيام خرجت فتاةٌ من فتيات هؤلاء القوم الذين تسكن عندهم هذه الأمة وكانت الفتاةُ حديثة عهد بزواج وقد اتّشحت على صدرها بوشاح أحمر، (والوشاح: شيء يصنع من جلد وربما رصع بالجواهر تجعله المرأة على صدرها تتزين به).

وأرادت الفتاة أن تدخل مكان قضاء الحاجة، فوضعت الوشاح خارجه حيث ألقته على الأرض، فمرت به حدأة وهو ملقى فخطفته، وطارت به في الجو.

ولما خرجت الفتاة لم تجد الوشاح، فتوقعت أنه قد سرق، وأخبرت أهلها فبحثوا عنه، فلم يجدوه، فاتهموا به هذه المرأة المسكينة، وأنها هي التي قد سرقته فليس في البيوت أحد سواها، فعذبوها كي تقرّ بأخذه، وفتشوها حتى عورتها المغلظة، فأصيبت المرأة بحالة انهيار وتعب، وأحست بالظلم والمهانة.

فأين عشرة تلك السنوات؟! لقد ضاقت بها الحيل، فلم تشفع لها تلك السنوات التي قضتها بين ظهرانيهم، وانقطعت بها السبل، واشتد بها الكرب.

فأين القوة التي تأخذ حقّها، وتدافع عنها وترد كرامتها؟ فلا نسب ولا حسب ولا جاه ولا قرابة ولا عارف ولا معروف، وربما أنها توجهت إلى الخالق - جل وعلا -؛ ليكشف كربها، فلقد تركت دعاء آلهةِ قومها و معبوداتهم، وهي لا تعرف الإسلام فأجابها الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، فجاءها الفرج أسرع مما أملت، وألطف مما قدرت.

فإذا بالحدأة التي خطفت الوشاح تقبل تحلّق في الجو، وهم لا يزالون قيامًا حولها وقعود، وهي في كربها وشدتها، وضيق حيلتها، وهوانها عليهم، فدارت الحدأة في السماء. فلما حاذت رؤوسهم ألقت بالوشاح بينهم فأخذوه فإذا هو وشاح الفتاة الذي يبحثون عنه.

فظهرت براءتها، وانكشف كربُها، وعلموا صدقها وأمانتها ونزاهتها.

وبعد ذلك ندموا على ما صنعوه بها، وكيف أنهم انساقوا وراء هذه التهمة، وهم يعلمون أمانتها وصدقها وإخلاصها منذ سنوات.

وبعد هذه الحادثة المؤلمة بالنسبة لها، طابت نفسها من المقام عندهم، فطلبت منهم أن يأذنوا لها بأن تغادرهم، وتتجه إلى المدينة.

لقد كرهت أن يحسنوا إليها بعد هذا الاتهام الخطير، والبحث الدقيق مع استعدادهم للإحسان تكفيرًا عما قاموا به من إهانتها وإذلالها.

فاتجهت بالفعل إلى ناحية المدينة فلما وصلتها وجدت الإسلام فيها قد ضرب أطنابه وانتشر في نواحيها.

فدخلت في دين الله ﷻ مختارة منقادة، أسلمت وسكنت بناحية من نواحي المسجد وأنست بحديث عائشةَ الفذ، فأخذت تتردد عليها دائمًا وأبدًا.

لقد وجدت سكينة نفسها بالهداية، ووجدت كرامتها في أخوة لها مؤمنين وأخوات مؤمنات.

وأصبح بيت النبي ﷺ مأوى لها؛ ومستراحًا لنفسها، لقد نذرت نفسها لخدمة بيت الله ﷻ، وتنظيفه والعناية به.

ولعلها هي المرأة التي ورد ذكرها في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها بعد أيام فقيل له: إنها ماتت، فقال: أفلا

آذنتموني -أي: أعلمتموني- فأتى قبرها فصلى عليها)، وعن أبي سعيد ﵁ قال: كانت سوداء تقم المسجد فتوفيت ليلًا، فلما أصبح رسول الله ﷺ أخبر بها، فقال: (ألا آذنتموني، فخرج بأصحابه فوقف على قبرها فكبّر عليها والناسُ خلفه ودعا لها ثم انصرف) رواه ابن ماجه وابن خزيمة.

أيها المسلمون:

إن خبر هذه المرأة الصحيح يستدعي منا أن نقف تجاهه وقفات سريعة:

أولا: هذه البلية التي ابتليت بها تلك المرأة تحولت في النهاية إلى نعمة عظيمة، فقد كانت سببًا لعودتها إلى صفاء الفطرة و نقاوتها، فقد فطر الله الناس على عقيدة التوحيد فهي الأصل.

لقد عاشت آلام الكرب، وذاقت مرارة الظلم؛ فلم تجد من تشكو إليه مأساتها سوى خالقها، فهو الذي يجيب المضطر، وهو الذي يجيب دعوة المظلوم، ولو كان غير مسلم ! إنها امرأة وحيدة فلا قريب لها تتقرب إليه، ولا قوي لها تتقوى به، وعرفت مستيقنه أن آلهة قومها وأصنامهم، التي يدعونها لن تغني عنها شيئًا، ولن توصل إليها خيراً، ولن تدفع عنها شرًا، فلذلك توجهت إلى الله تشكو إليه ضرها وتنزل به حاجتها. فأجابها سبحانه، وكشف بلواها.

لقد رأت كيف كان فرج الله ﷻ ظاهرًا للجميع الكل رأه وعلمه؛ ولذا هاجرت إلى حيث لا يعبد إلا الله وحده، بعدما علمت أنه لا يكشف الضر إلا الله وحده.

ثانيًا: لما وصلت هذه المرأة إلى المدينة وسكنت، مسجد رسول الله ﷺ لم تجعل نفسها عبئًا على المسلمين، ولكنها بحثت عن دور تقوم به، وعمل تشارك فيه، وكانت خلفيتها المهنية تؤهلها للدور الذي اختارته، ألا وهو خدمة مسجده ﷺ فتعاهدت نظافته، وبذلك أصبح لها دور إيجابي في حياة المسلمين، يحس ويشعر به الذين يفدون إلى مسجده - صلوات الله وسلامه عليه - ويروحون، حيث يجدون فيه من النظافة والعناية والاهتمام ما يليق بمكانته وشرفه.

ثالثًا: لقد كانت مساحةُ اهتمام النبي ﷺ بالناس واسعةً تسعهم كلّهم، بحيث إن ضعفاءهم ومن لا يُؤْبه به يجد مكانه ومكانته في نفس النبي الكريم ﷺ اهتمامًا و رعايةً ورحمة.

فها هو ﷺ يتفقد تلك المرأة حين فقدها، ويسأل عنها عند غيابها، فلما أخبر بموتها عتب على أصحابه، أنهم لم يعلموه بموتها، ثم ها هو يذهب إلى قبرها، فيصلي عليها، ويدعو الله لها.

وهكذا وجد ﷺ مساحة من الوقت ليتعاهد امرأة ضعيفة ماتت وانتهى دورها في هذه الحياة، فلا يرجى منها شيء، وهي امرأة غريبة فلا أقارب يُتقرب إليهم بذكرها.

ولكنه خلق النبي المصطفى ﷺ الذي وسعها في حياتها، ثم بعد مماتها، فرضي الله عن خادمةِ مسجد رسول الله ﷺ وأرضاها، وصلوات الله وسلامه وبركاته على معلم الناس الخير، الذي بُعث من أجل أن

يتمم مكارم الأخلاق. هكذا شأن العظماء تتسع أخلاقهم للناس، ويقومون بخدمة الضعفاء، والعاجزين، ولا يجدون حرجًا في ذلك

رابعًا: كان من دعاء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﵁: (اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخّرت، ولا تأخير ما عجلت) لقد تذوقت هذه المرأة نعيم الهداية بعد الضلال، وعزّ الكرامة بعد الإذلال، ووجدت نفسها معززة مكرمة بعد أن كانت عرضة للتهم، ومقالة السوء.

وَجَدَت أنها تعيش بين المسلمين في المدينة موفورة الكرامة، محفوظة الحقوق. تحس بأخوة الإيمان بين المؤمنين.

وذروةُ هذا الإحساس يتضح حين وجدت نفسها قريبة جدًا من بيت، هو أشرف البيوت وأكرمها ألا وهو بيت رسول الله ﷺ، تتحدث فيه، وتُحدثُ وتستأنس فيه، وتؤانس فيه، فلا عجب أن تسترعي انتباهها المقارنة بين الحالتين، فتتذكر ذلك دائمًا معترفة بفضل الله العظيم، وبعطائه الجزيل.

يقول الله – تعالى –: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

خامسًا: من قصة هذه المرأة يستفيد المسلم، أن عاقبة الظلم وخيمة، فعلى كل مسلم أن يتفقد نفسه، فلا يظلم الناس بلسانه، ولا بيده يقول ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) رواه البخاري، وإن

كان قد وقع منه ظلم على أحد فليتحلله منه ما دام في عمره فسحة، يقول ﷺ:

(من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم، من قبل أن لا يكون دينار ولادرهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) رواه البخاري.

وعن سلمانَ الفارسي رضي الله عنه، وستة من أصحاب النبي ﷺ رضي الله عنهم أنهم قالوا: (إن الرجل لترفعُ له يوم القيامة صحيفته، حتى يرى أنه ناج فما تزال مظالم بني آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة، ويُحمل عليه من سيئاتهم) رواه البيهقي. فأشفقوا على أنفسكم - رحمكم الله - وأنقذوها من النار، فإنكم لن تنجوا منها إلا برحمة الله، ثم بما تقدمونه في هذه الدنيا من عمل صالح، يقول النبي ﷺ لابنته وريحانة فؤاده فاطمة رضي الله عنها: (يافاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية: (يافاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئًا) رواه البخاري في الأدب المفرد.

***

علامات محبة الرسول ﷺ

أيها المسلمون:

يقول الله -تعالى-:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

محبة رسول الله ﷺ ليست دعوى بلا برهان، ولا صورة بلا حقيقة ومن أجل أن تكون المحبة صادقة وصحيحة، فهي بحاجة إلى دليل وبيّنة كما قيل:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بيّنات أصحابها أدعياء

وإذا كانت محبة العبد لنبيّه ﷺ محبة صادقة، فإنها تثمر له ثمرات جليلة، وأعظمُ هذه الثمرات، أن الله - تعالى - يحب عبده ويغفر له ذنوبه (يحببكم الله) وليس بغريب أن يحب العبدُ ربَّه، فهو صاحب الكمال والجود والعظمة، ولكن العجب أن يحبّه الله.

كم من الناس من يتمنى أن الله يحبه؟! إلا أن هذه المنزلة لا تحصل لكل أحد، وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾، وهذه ثمرة أخرى يسعى إليها الجميع بكافة الوسائل، فَمَنْ من الناس لا يحب أن تُغفر ذنوبه، وتُمحى سيئاته؟! فما هي الأسباب التي يستطيع بها الإنسان أن يكسب

محبة ربه، ويتأهل لمغفرة ذنوبه؟

من أسباب محبة الله وغفران الذنوب: شكرُ المنعم - سبحانه - فإن لله نعمًا جليلة لا تعد ولا تحصى، يقول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل: ١٨].

ومن أعظم نعم الله علينا أن الله أكرمنا بإرسال نبيه ﷺ، ليخرجنا من الظلمات إلى النور، فنعمة الإسلام من أجلّ النعم، وأعظمها.

والإسلام الذي جاء به نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، هو الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، فدينهم جميعًا الإسلام؛ إلا أن لكل منهم شريعة خاصة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، وورد في الحديث قوله ﷺ: (الأنبياء إخوة من علّات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد) رواه مسلم. فشبه - عليه الصلاة والسلام - أصل الدين بالأب،وشبه فروعه المختلفة بالأمهات.

يقول الإمام البغوي رحمه الله: (يقال للإخوة بني أب وأم: بنو الأعيان فإن كانوا لأمهات فهم بنو العلات، فإن كانوا لآباء شتى فهم أخياف) ا.هـ.

ومن الأسباب التي تحصل بها محبة الله: التعامل مع الناس بالصدق والنصح.

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: (بايعت رسول الله ﷺ على السمع

والطاعة والنصح لكل مسلم) رواه البخاري ومسلم.

ويقول النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) رواه البخاري ومسلم.

ومن الأسباب التي تحصل بها محبة الله: كثرة ذكره - سبحانه وتعالى -، فإن من أحبّ شيئًا أكثر من ذكره، وقد أمر الله عباده بأن يذكروه ذكرًا كثيرًا قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، ومن الأذكار التي ينبغي أن يحافظ عليها العبد: (أذكار الصباح والمساء، والأذكار عند النوم والاستيقاظ منه، وعند دخول مكان قضاء الحاجة وعند الخروج منه) إلى غير ذلك مما ورد في السنة.

ومن الأسباب التي تحصل بها محبة الله: قراءة القرآن بتدبر، وحضور قلب، والعمل بما ورد فيه من الفرائض والنوافل.

يقول الله - تعالى - في الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه) رواه البخاري.

إن النوافل والقُرُبَات من صلاة، وصيام، وصدقة، وبر، وصلة، ومعروف، وسماحة، وبشاشة، يزيد بها رصيد المؤمن من الحسنات، ويحصل بها على رفعة الدرجات.

أيها المسلمون:

محبة رسول الله ﷺ، منها ما هو واجب، وهو قبول ما جاء به - صلوات الله وسلامه عليه - وتلقيه بالتسليم، ومنها ما هو مستحب، وهو الاقتداء بسنته وأخلاقه، وكلما كان المسلم أكثر تأسيًا بنبيه ﷺ، كلما كان إيمانه أعظمَ وأكمل.

على أن الإيمان لا يكمل إلا إذا قدم المؤمن محبة نبيه ﷺ على محبة نفسه وولده والناس أجمعين، يقول ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده: والناس أجمعين) رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون:

ينقسم الناس في محبة الرسول ﷺ إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الجفاة الغلاظ الذين يحملون في قلوبهم الكراهة لرسول الله ﷺ، ومن هذه الطائفة من يدعي محبة الله وهو لا يتبع الرسول ﷺ.

فقد جاء جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: نحن نحب الله ولكن لا نتبعك فأنزل الله - تعالى -: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

والطائفة الثانية: طائفة رفعوا نبي الله ﷺ فوق منزلته وغلوا فيه

وابتدعوا في ذلك بدعًا لم يشرعها الله ورسوله ﷺ؛ وقد نهى الرسول ﷺ عن مدحه فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله) رواه الشيخان، وعندما قدم وفد عامر بن صعصعة على رسول الله ﷺ قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولًا.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

(أيها الناس قولوا ببعض قولكم ولا يستجرينّكم الشيطان، إنما أنا عبد الله ورسوله قولوا: عبد الله ورسوله) رواه الإمام أحمد، ولما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، كره ذلك وقال: (أجعلتني لله عدلًا؟ بل ماشاء الله وحده) رواه الإمام أحمد.

وأما الطائفة الثالثة: فهي الطائفة المستقيمة على الحق، وهي وسط بين الجفاة والغلاة؛ أفراد هذه الطائفة المستقيمة، يحبون نبيهم حبًّا صادقًا مطبوعًا في قلوبهم يجعلهم يتبعونه، في كل ما يأمر به، ويطيعونه من غير جدل ولا مناقشة، بل يسلّمون الأمر لله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥].

من محبة النبي ﷺ، حبُّ ذاته ﷺ:

فالمؤمن هو الذي لا تغيب عن خاطره شخصية محبوبه، عليه الصلاة والسلام، بل إنه يتمنى لو أنفق جميع ماله وأهله في سبيل رؤية نبيه ﷺ، روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (من أشدّ أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي، يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله):

أفَلَت شموس العالمين وشمسنا   أبـدًا علـى أفـق العـلا لا تغـرب

ذكر ابن كثير في تفسيره عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى الرسول ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: (يا فلان مالي أراك محزونًا؟) فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال: (وما هو؟) قال: نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئًا فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فبعث النبي ﷺ إلى الرجل فبشره.

والعلامة الثانية التي تقاس بها محبةُ النبي ﷺ: كثرة الصلاة والسلام عليه: فإن ذلك يشرح الصدر ويزيل منه الوحشة، ويرفع الدرجات، ويكفر السيئات، وبه تنال الشفاعة، ويحصل المصلي عليه على الأجر، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله

عليه عشر صلوات، وحط عنه بها عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات) رواه الإمام أحمد والنسائي.

وتتأكد الصلاة عليه في مواضع منها: عند ذكره عليه الصلاة والسلام، وعند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعند سماع المؤذن، لقوله - عليه الصلاة والسلام -: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي) رواه مسلم.

وتتأكد الصلاة على النبي ﷺ، في يوم الجمعة لقوله ﷺ: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ) رواه النسائي.

والعلامة الثالثة: التي تقاس بها محبة النبي ﷺ: الاقتداء بشخصيته في الحياة الخاصة والعامة يقول الله - تعالى -: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومن الأمثلة على الاقتداء به: قيام الليل، وصلاة الضحى، وصوم الإثنين والخميس، وصوم ثلاثة أيام من كل شهر، والدعاء عند النوم، والاستيقاظ، والأذكار بعد الصلوات، وفي الصباح والمساء، والدعاء عند الخروج من البيت، وعند اللبس، يقول ﷺ: (من لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه) رواه الترمذي، والدعاء عند الطعام

والشراب. إلى غير ذلك من الأدعية والأذكار التي ورد النص عليها في السنة النبوية الشريفة.

أيها المسلمون:

سيرة النبي المصطفى ﷺ روضة غناء، وحديقة يانعة، ينبغي أن يستفيد منها المسلمون أدبًا وسلوكًا وتعاملًا وعبادة، فكم نحن بحاجة ماسة إلى دراستها وفهمها، وأخذ الفوائد منها، والنهل من معينها العذب الصافي!!

***

معاملة النبي ﷺ مع الصغار

أيها المسلمون:

إليكم طرفًا من معاملته - صلوات الله وسلامه عليه - مع الصغار وكيف كانت محبته العظيمة لهم؟

فصل الصيف في المدينة النبوية حار لا يكاد يخرج أحد من منزله بعد الظهر من حرارة الشمس؛ ولكنه خرج -صلوات الله وسلامه عليه- ذات يوم بعد الظهر يرافقه أبو هريرة رضي الله عنه وهو لا يدري إلى أين سيذهب مع رسول الله وهابه أن يسأله، سار -عليه الصلاة والسلام- حتى وصل إلى منزل ابنته فاطمة رضي الله عنها فنادى:

أين لكع؟ أين لكع؟ أين لكع؟ إنه ينادي حفيدَه ابن بنته فاطمةَ الحسنَ بنَ علي نداء تمليح؛ سمعت فاطمةُ نداء أبيها وسمعه الحسن، فأراد أن يخرج إلى جدِه ولكن أمّه أمسكت به لتهيئته لمقابلة أبيها، فَغَسَلت وجهه وألبسته، فخرج مسرعًا إلى جدّه فلما رآه ﷺ، جلس له ومد يديه فتجاوب الحسن معه وهو من بعيد فمد يديه وألقى بنفسه على الصدر الرؤوف الرحيم، فتعانقا وجعل النبي ﷺ يشمه ويقبله ثم قال: (اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه) رواه البخاري.. نسأل الله أن يرزقنا حبّ الحسن، وأن يحشرنا في زمرته، وزمرة جده ﷺ.

وهكذا فحقوق الأسرة تأخذ مكانها الكامل في حياته - عليه الصلاة والسلام -، حيث خرج في شدة حرارة الشمس لرؤية الحسن رضي الله عنه ثم أعلن عن حبه له وبسط يديه ليحتضنه وعانقه وقبّله وشمّه، إن إغراق الإرواء العاطفي على الأطفال يجعلهم يعيشون بنفوس سوية؛ وفي ذهابه ﷺ لبيت علي وابنته فاطمة، لم يدخل - عليه الصلاة والسلام - المنزل لأن هدفه محدد ومنحصر في السلام على الحسن رضي الله عنه، حيث وقف عند الباب، وذلك له وقعه الجميل عند فاطمة رضي الله عنها، التي ترى مكانة ابنها عند أبيها سيد الخلق صلى الله عليه وسلم.

إن الحفاوة بالأبناء حفاوةٌ بآبائهم وأمهاتهم، وهي طريق مختصر لإدخال السرور على قلوبهم والفرح إلى نفوسهم. ومجيء الحسن مسرعًا مادًا ذراعيه إلى جَدّه - صلى الله عليه وآله وسلم -، يدل على خلفية طويلة في بناء العلاقة العاطفية بين الوالد والحفيد.

فلقد عهد الحسنُ رضي الله عنه ألوانًا من العطف وصنوفًا من الرحمة، ألم يقطع رسول الله ﷺ خطبته في يوم من الأيام لما رأى الحسن والحسين رضي الله عنهما حيث أقبل عليهما وحملهما بين يديه وهو يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥] رأيتهما فلم أصبر، ثم أتمَّ خطبته والحديث رواه أبو داوود.

وصلى عليه الصلاة والسلام في الناس يومًا فأطال السجود، فلما قضى صلاته سألوه عن سبب طول سجوده فقال: (إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجّله حتى يقضي حاجته) رواه النسائي والحاكم.

فهذا العطاء العاطفي منه ﷺ كان متواصلًا ولم يكن لفتة عابرة، ولذا أنتج هذا الشوق العظيم والتعلق المتبادل بين الحسن رضي الله عنه وجده ﷺ.

وفي حديث ذهابه عليه الصلاة والسلام لرؤية الحسن بن علي رضي الله عنهما من الفوائد: حنانه على أبناء بنته: وكيف كان ﷺ يعاملهم بهذا الحنان والحب، ويناديهما بالأبوة فيقول عن الحسن والحسين رضي الله عنهما: (هذان ابناي وابنا بنتي) رواه الترمذي يعني فاطمة بنت محمد ويقول عنهما هما: (ريحانتاي في الدنيا) رواه البخاري، وفي يوم من الأيام خرج أبو بكر رضي الله عنه من المسجد بعد ما ولي الخلافة فرأى الحسنَ رضي الله عنه يلعب مع الصبيان فأقبل عليه واحتمله على عاتقه وأنشد:

إني أرى شبه النبي * ليس شبيهًا بعلي

وعلي يمشي إلى جانبه، وهو يضحك مسرورًا بصنيع الصديق رضي الله عنه بابنه الحسن رضي الله عنه وعن أبيه.

أيها المسلمون:

لقد كان من هديه عليه الصلاة والسلام ممازحةُ الصغار: (فقد كان

يتوضأ في يوم من الأيام فأقبل إليه محمود بن الربيع وكان طفلًا لا يتجاوز عمره خمس سنوات، فجعل عليه الصلاة والسلام في فمه ماءً ثم مجّه في وجهه يمازحه) رواه البخاري.

فهنيئًا ثم هنيئًا لمن استقبل هذه المجّة الطاهرة من ذلك الفم الطاهر، فقد كان الصحابة يتبركون بلباسه وجسمه وريقه وشعره ﷺ.

إن المزاح مع الصغار وإدخال السرور عليهم، وإشعارهم بأهميتهم، وتشجيعهم تجعلهم يحترمون الكبار ويشعرون بقيمتهم.

ولكن البعض من الناس يغفلون عن جوانب مهمة، ويرون أنه لا داعي لها؛ تأملوا مشهد الآباء مثلًا عندما يأتون إلى أخذ أطفالهم من المدارس.

إنها مشاهد مختلفة، وكل منها له أثره على الطفل ذكرًا كان أو أنثى.

فهذا أب مملوء بالرحمة والأدب والذوق، متحفز ينتظر خروج ابنته الصغيرة مثلًا من المدرسة فما أن يتحقق من خروجها إلا ويقبل عليها فيأخذ حقيبتها ليحملها، ويضع يده على كتفها، ويقبل رأسها ويسيران معا إلى السيارة، إنه مشهد قصير في وقته ولكنه عظيم في دلالته ومضمونه، ولكم أن تقارنوا بين هذا الشخص وغيره؛ فمن الناس من ينتظر داخل سيارته، حتى تجيء ابنته الصغيرة إليه، ومنهم من ينزل من السيارة لتتبعه ابنته من غير سلام ولا كلام، ولا سؤال ولا تشجيع.

ومن الناس من ينشغل بإعداد وتهيئة كلمات العتاب، التي سوف يوجهها لابنته لتأخرها في نظره مع أن الوقت الذي خرجت فيه هو وقت خروجها، وليس بيدها أن تتقدم قبل موعد الخروج؛ ومن الناس من لا يأتي أصلًا وإنما يوكل ذلك إلى السائق الذي قد يكون مسلمًا وقد يكون غير مسلم، وقد يكون الأب فارغًا لا عمل يشغله في الوقت.

إن النموذج الأول والذي رأينا فيه شفقة الوالد على ابنته وحنانه عليها، قد أشبعها عاطفة وحبًّا فلن تجد في نفسها - والعلم عند الله - فيما تستقبله من عمرها فراغًا عاطفيًا تحاول توفيره يمينًا أو شمالًا، حين تبحث عن أحد يملأ ذلك الفراغ، حتى وإن كان ذلك عبر تواصل محرم.

لأنها تملك من الاستقرار والسعادة قدرًا كافيًا، إلى أن يأتي اليوم الذي ييسر الله لها فيه الزوج الصالح والذرية الطيبة.

إن كثيرًا من الانحرافات التي تقع من الأبناء والبنات إنما وقعت بسبب الفراغ العاطفي؛ فاحرص أيها الوالد الكريم، على إسعاد أولادك وإدخال السرور عليهم.

فهل نُسمع صغيراتنا شيئًا من عبارات العطف والحنان والتشجيع؟ مثل: يا بنيتي، أنت رائعة، أنت ممتازة، وأنا أبوك، ونحو ذلك، وقد تصعب هذه الألفاظ ونحوها لعدم الاعتياد.

وفي المقابل قد تتوفر لدى البعض من الآباء والأمهات عبارات: يا غبية، أنت فاشلة أنت بليدة، يا كسلانة، وقد يكون ذلك التحطيم بمحضر

من الناس، وبعد ذلك قد يستغرب الأب أو الأم من حالات بدأت تمر بها ابنتهم: إخفاق في الدراسة وتعثر، انطواء على النفس وغموض.

وقد يقول الأب كيف حصل ذلك مع أني وفرت لأولادي من بنين وبنات، كل شيء من المأكل والمشرب والملبس؟ ولكن ليعلم هؤلاء الآباء، أن في قلوب الصغار فراغًا لا يملأه أن تحضر لهم الدنيا بحذافيرها؛ ولكنهم بحاجة ماسة إلى وجود شيء من الحب والرحمة ينبعثان من القلب.

وليحذر المسلم الكريم أن يكون ممن عرف الحق وحاد عنه، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال لذلك الأب الذي له عشرة من الأولاد، وما قبّل واحدًا منهم:

(أوَ أملك إن كان الله نزع من قلبك الرحمة، إنه من لا يرحم لا يرحم) رواه مسلم.

أيها المسلم الكريم:

إنّ بإمكانك أن تلاحظ أنواع الناس في التعامل مع الصغار، عندما يدخل رجل إلى مجلس عام ويمر بالحاضرين، مصافحًا لهم وابنه الصغير من خلفه يفعل كفعل أبيه فمن الناس من يتغافل عن ذلك الصغير، فيترك السلام عليه احتقارًا له، ومنهم من يصافحه بطرف يده، ولكن منهم من يهز يده مبتسمًا في وجهه مرددًا أهلًا بالبطل عساك بخير.

فهذا هو الذي تنطبع محبته في قلب ذلك الصغير، بل وفي قلب أبويه.

فالإحسان إلى الصغار وإظهار محبتهم، والتبسم في وجوههم، طريق إلى التأثير ليس فيهم فحسب، بل في آبائهم وأهليهم، وطريق إلى كسب محبتهم جميعًا. قال أحدهم: أكرم صغارهم يكرمك كبارهم وينشأ على محبتك صغارهم.

بالإضافة إلى الاستماع إلى أحاديثهم العذبة، وإن كانت في أحيان كثيرة غير مهمة؛ ولكن من المهم الاستماع إليها وإظهار المحبة لهم.

فلقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - يظهر للصغار محبته لهم.

فعندما وصل مهاجرًا إلى المدينة خرجت جَوارٍ من بني النجار، يضربن بالدفوف وهن يقلن:

نحن جوار من بني النجار   يا حبذا محمد من جار

فخرج إليهن رسول الله ﷺ وقال: (أتحبونني؟ فقلن: إي والله يا رسول الله فقال: الله يعلم إني لأحبكن) رواه ابن ماجه.

***

ولد الهدى فالكائنات ضياء

أيها المسلمون:

لقد امتن الله ﷻ على عباده، بإرسال رسوله محمد ﷺ، يقول الله – سبحانه –: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩].

كان الناس قبل بعثته – صلوات الله وسلامه عليه – في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، يعبدون الأصنام، وينصبون الأوثان، فالأصنام تحيط بالكعبة من كل جهة؛ وليست عبادة الأصنام مقصورة على أهل مكة، بل إن كل قبيلة اتخذت لنفسها صنمًا أقامته في أرضها وعكفت على عبادته، فاتخذت هذيل (سواعًا)، واتخذت همدان باليمن (ودًا)، واتخذت مذحج (يعوق)، واتخذت حمير (نسرًا).

بالإضافة إلى (العزى) لأهل مكة، (واللات) لأهل الطائف، (ومناة) لأهل المدينة.

بل كانوا يحملون معهم الأحجار لعبادتها، فإذا لم يجدوا حجرًا جمعوا حثوة من التراب وحلبوا عليه شاة، ثم يطوفون به بعد ذلك. ياللعقول وزيغة الأذهان!

لقد بعث الله رسولنا محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، على فترة من الرسل بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلغ الرسالة،

وأدى الأمانـة، ونـصح الأمـة، جمـع الله -تعـالى- فيـه جميـع صـفات الكمال، فهو أكمل الخلق وأفضلهم، وخير الرسل وأشرفهم، نبي الرحمة، وهـادي الأمـة، وكاشـف الغمـة، وصـاحب الـشفاعة والمقـام المحمـود، والحـوض المـورود، وآدم فمـن دونـه تحـت لوائه يـوم القيامة، انشق القمر بإشارته، ونبع الماء من يده، وحنّ الجذع شوقًا إليه، ونطق الحيوان شهادة لـه، وكلمـه الـشجر، وسـلم عليـه الحجـر، أخـضرّت بـه الـصحراء القاحلـة، وأصـبح الكـون بـسببه يـسوده الربيـع، ومنـه تلقـت الـدنيا دروس الأخـوة والمحبـة، والمـودة والرحمـة، والمـساواة البـشرية، والوحـدة الإنـسانية، وبـه عرف الإنسان ماله من كرامة، وسمو، وشرف، وعلو مكانة عند الله – تعالى -، كانت الدنيا من قبله في ظلمات متراكمة، ومتكاثفة، وبعد ذلك:

ولـد الهـدى فالكائنـات ضـياء　　　وفـم الزمـان تبـسم وثنـاء

إنـه ﷺ عظـيم جـدًا، ولـيست عظمتـه عظمـة جوفـاء، ولكنهـا عظمـة حقيقيـة أصـيلة صـادقة، صـافية خالـدة باقيـة، ولا تـسأل عـن مـدى عظمتـه ﷺ، فشذاها يضوع ويفوح، وشمسها تلمع وتشرق. فقطع الله ألسنة من ناله بسوء، وشلّت يد من صوّره آثمًا ظالمًا.

إذا وصـف الطـائي بالبخـل مـادر　　　وعيّـر قـسًّا بالفهاهـة باقـل

وقـال الـسهى للشمس أنـت خفيـة　　　وقال الدجى: يا صبح لونك حائل

فيـا مـوت زر إن الحيـاة ذميمـة　　　ويا نفس جدي إن دهـرك هـازل

رسولُ الهدى خيرُ الأنام فهل لهم   بإخفاء شمس ضوءُها متكامل

ومن المعلوم أنه لا يجوز للمسلم أن يتمنى الموت: فيا موت زر..لكن هل يضر البحر حجر ألقي فيه؟ اللهم لا!!

لا يضر البحرَ أمسى زاخرًا   أن رمي فيه غلام بحجر

أو هل يضر السحاب من يرفع صوته نحوه وهو ملتصق بالتراب؟!

وهل يضر الجبل إذا نطحه الحيوان؟ كلا!!

فالخطر على الحيوان نفسِه؛

يا ناطحَ الجبلَ العالي ليثلمه   أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

رسول الهدى - صلوات الله وسلامه عليه -، منصور من جهة ربه، ولن تضرّه تلك الرسوم الظالمة بأي حال من الأحوال.

يقول الله - تعالى - وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ٩٥]، ويقول: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، ويقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: (قاتل رسول الله ﷺ محارب خَصَفَة - وهي إحدى القبائل المعروفة - فرأوا من المسلمين غِرّةً فجاء رجل يقال له غورث بن الحارث، حتى قام على رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: (الله) فسقط السيف من يده فأخذه النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فقال النبي ﷺ قل: (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال الرجل: لا! ولكني أعاهدك

أن لا أقاتلك، ولا أكونَ مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله فرجع فقال: جئتكم من عند خير الناس) رواه الحاكم وصححه.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان رجل نصراني فأسلم، وكان يقرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا وكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا:

هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له وأعمقوا فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا هذا من فعل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا؛ فحفروا له ما استطاعوا، فأصبحوا وقد لفظته الأرض فعلموا أنه ليس من الناس) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

لا تقلقوا ولا تحزنوا بسبب الهجوم على الإسلام ورسوله والمسلمين في العصر الحاضر، فشدة الهجوم مع ضعف المسلمين دليل على قوة الإسلام.

وهذا الهجوم لا يليق أن يدعو إلى اليأس والقنوط، ولكنه يدعو إلى الفأل، وترقب النصر وحسن الظن بالله - تعالى - وبذل المستطاع لنصرة الدين.

إن التطاول على مقام النبوة والرسالة معجل بالنصر، ومؤذن بمستقبل مشرق للمسلمين إذا قاموا بأسباب النصر ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ الشعراء: ٢٢٧.

***

ليلة من ليالي نبي اللّه ﷺ

أيها المسلمون:

في هذا اليوم المبارك نعيش ليلة مباركة، من ليالي نبي الله ﷺ، وكأننا بين يديه، ننظر إلى ما يقوم به من عمل خلال ليلة كاملة، من المغرب حتى الفجر، ينقل لنا هذه الصورة البديعة والمضيئة والمشرقة، حبر الأمة وترجمان القرآن، الذي دعا له رسول الله ﷺ بقوله: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) عبدالله بن العباس وهو ابن عم النبي ﷺ، ذلك: أن والده العباس رضي الله عنهما أرسله في حاجة إلى نبي الله فلما وصل إليه قبل المغرب، وجده مشغولًا مع أصحابه، يقضي حوائجهم ويجيب عن أسئلتهم، فلما صلى المغرب أخذ يصلي نافلة حتى صلاة العشاء، فلما صلى العشاء تنفل بتسليمتين طويلتين يدل على طولهما أن جميع من في المسجد قد خرجوا، ثم توجه ﷺ إلى بيته، فذهب معه ابن عباس وكانت ليلة خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها، فطلب منه - عليه الصلاة والسلام - المبيت عنده قائلًا: يا بني بت عندنا الليلة، فوافق ذلك مرادًا ورغبة عند ابن عباس رضي الله عنهما، حيث رغب في عرض النبي ﷺ المبيت عنده فهو بين ابن عمه وعم الرجل: مثل أبيه، وخالته: والخالة بمنزلة الأم، يقول ابن عباس: فنام رسول الله ﷺ. وخالتي في

طول الوسادة ونمت في عرضها، وكان ابن عباس حريصًا أن لا ينام لينظر إلى عمل النبي ﷺ خلال الليل، وكان يظهر أنه نائم يقول: فاستيقظ رسول الله في منتصف الليل، وذكر الله وذهب إلى قربة معلقة في الغرفة فحلّ وكاءها، ثم توضأ وضوءً خفيفًا، وقام يصلي فتمطى ابن عباس كأنه قائم من النوم، وذهب إلى القربة وتوضأ منها، ثم أتى على يسار النبي ﷺ فصف للصلاة، فتناوله - عليه الصلاة والسلام - بيده، وأداره من خلفه، فجعله عن يمينه ﷺ ، وأخذ -عليه الصلاة والسلام- يتعاهد ذلك الغلام لإدخال السرور والبهجة عليه، فتارة يضع يده على رأسه وتارة يفتل شحمة أذنه، فالصلاة طويلة، والبرد قارس، والليل مظلم، يقول ابن عباس: فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، فكان جملة ماصلى ثلاث عشرة ركعة، وقد قدر ابن عباس وقت صلاة الليل تلك فقال: إنها استغرقت ثلث الليل، فلما سلم -عليه الصلاة والسلام- من صلاته، وضع رأسه على الوسادة واستغرق في نومه، يقول ابن عباس: إلى أن أذن بلال لصلاة الفجر، فقام من نومه وصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج للصلاة في المسجد.

وهكذا سمعنا كل ما قام به رسول الله ﷺ في هذه الليلة وذلك عن طريق هذا الغلام الذي لم يتجاوز سنه في تلك الليلة اثنتي عشر سنة وكانت الحادثة في السنة التاسعة، وقد ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات.

كم سيسعد العباس والده، إذا أخبره ابنه بما صنعه تلك الليلة، وما صنعه معه نبي الله ﷺ لا شك أن العباس سوف يبتهج ويُسر، وقد كان يجلّ رسول الله ﷺ ويحترمه حتى إنه سئل ذات يوم: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ ؟ فقال العباس: (هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله)، فمن أدبه أنه لم يقل عن نفسه بأنه أكبر من رسول الله مع أنه أكبر سنًا منه بثلاث سنوات، فقال: (هو أكبر مني وأنا ولدت قبله) وفي رواية أنه قال:(هو أكبر مني وأنا أسن منه) فكم نحن بحاجة ماسة إلى أن يسود الاحترام والتقدير صفوف المجتمع، وفي الحديث: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه) رواه أبو داوود والترمذي.

من هذه القصة الطريفة، ومما حدث في هذه الليلة المباركة نأخذ فوائد وعبرًا كثيرة فمن ذلك:

مكانة الصلاة عند رسول الله ﷺ، وحرصه على الإكثار منها وإطالة النافلة، ولما قال ربيعة بن كعب رضي الله عنه: أسألك مرافقتك في الجنة، قال له -صلوات الله وسلامه عليه-: (أعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم.

ويقول ﷺ: (حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة) رواه الحاكم في المستدرك، ويقول ﷺ: (أرحنا بها يا بلال) يعني: الصلاة، رواه الطبراني في المعجم الكبير.

قصة زواج عجيبة

عباد الله:

قال الله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠].

نتعرف هذا اليوم على قصة زواج تاريخية، أما والد الزوجة: فهو صفوة الخلق ﷺ، وأما والدتها، فهي سيدة نساء العالمين، خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأما الزوج: فهو أبو العاص بن الربيع، والزوجة زينب بنت رسول الله ﷺ أكبر بناته الأربع، وكان الزواج قبل بعثة رسول الله ﷺ.

وقد يكون الزوج أسرَّ بحبه زينب إلى خالتها أخت خديجة، ثم إن خديجة أخبرت نبي الله ﷺ عن ذلك، فكانت الموافقة على الزواج، من البنت المباركة ومن الأبوين.

كان أبو العاص الخاطب تاجرًا أمينًا، ذا مكانة في قريش، وبعد أسابيع من الخطبة حان وقت الزواج، لقد فكرت والدة الزوجة أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنوع الهدية التي سوف تهديها إلى ابنتها الغالية، في هذه المناسبة السعيدة، فلم تجد أعز وأغلا من قلادتها، التي كانت تتزين بها عندما دخل عليها، صفوة الخلق ﷺ لقد ازدانت العروس بهذه القلادة، وانتقلت إلى بيت زوجها الذي أحبها وأحبته، حتى ردد

الناسُ شعره فيها وهم في أسفارهم ومنه:

بنت الأمين جزاها الله صالحة وكلُّ بعل سيثني بالذي علما

إن كل زوج سيجري على لسانه، ما علمه من خصال حميدة، وما عرفه من سجايا كريمة، من شريكة حياته وأم أولاده.

لقد أنجب الزوجان مولودين، وهما عليًا ثم أمامة، وكان - صلوات الله وسلامة عليه - يحب الطفل وأخته، ويأنس بهما.

لقد علمنا أن الزواج قد تم قبل البعثة، فلما جاء عصر النبوة، ونزل الوحي أسلمت خديجة وتبعتها ابنتها زينب وأخواتها، ولقد حملت البنات همّ النبوة، لما علمن أن ورقة بن نوفل خال خديجة وكان على الدين الصحيح قال: (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولتعذبنه ولتأذينه ولتخرج، ولتقاتلنه).

وفي هذه الفترة كان أبو العاص غائبًا، يلاحق تجارته، وكانت زوجته تترقب حضوره، لعله أن يسلم! وكيف ستكون حالُها وحالُه وطفلاهما إذا لم يسلم؟

لقد حضر الزوج وعرضت عليه زينبُ الإسلام، ولكنه أشاح بوجهه، وأعرض وأبى، ولم يقبل الإسلام فبقي على شركه، مع تأصل الحب وتجذره بين قلبي الزوجين، وأخذت تكرر عليه الدعوة ولكن الشيطان وسوس له: وماذا ستقول عنك قريش إذا علمت أنك فارقت دين آبائك وأجدادك إرضاءً لزوجتك؟!

وكان ﷺ حريصًا على هدايته ودعوته إلى الإسلام، ولكنه يبقى صامتًا مطرقًا على الرغم من تكرار دعوته!! وتمضي الأيام، والمشركون يواصلون أذاهم وظلمهم لرسول الله ﷺ والمسلمين، ويمتد أذاهم لأسرة النبي ﷺ فيقولون: لبعضهم إنكم فرّغتم محمدًا من همه فردوا عليه بناته، وأشغلوه بهن واسعوا لطلاقهن من أزواجهن. إنه البلاء والأذى، حتى العلاقة الزوجية سعى الكفار في تخريبها، وقد زينوا لأبي العاصَ فراقَ زينب ورغبوه في طلاقها، وعرضوا عليه أن يزوجوه أيّ فتاه تعجبه إن هو طلقها، إلا أنه كان أكرمَ منهم؛ وكانت علاقته أقوى من الأحداث وقال لهم: (بئس العَرْضُ عرضكم لا والله لن أفارق الحبيبة، ولن أدع الصاحبة، وما أحب أن لي بسواها أيّ امرأةٍ من قريش).

وكان نبيُّ الله ﷺ يثني عليه خيرًا، ولقد ذهبت قريش إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب وطلبت منهما تطليق ابنتي رسول الله رقية وأم كلثوم، واستجاب الشقيان وعادت البنتان إلى بيت النبوة مطلقتين.

وأما زينب وزوجها فقد بقيت الرابطة بينهما قوية، وإن فرقت بينهما الديانة، وكان ذلك جائزًا في أول الإسلام. لقد اشتد البلاء على رسول ﷺ بموت زوجه خديجة، وعمَّه أبي طالب ولقد فقدت زينب أمّها الرؤوم، وبعد ثلاث سنوات من موت خديجة رضي الله عنها هاجر المسلمون إلى المدينة، وكان ذلك مؤلمًا لها، فقد بقيت زينب بمكة تتذكر أيامها

الخوالي، حين كان نبي الرحمة ﷺ على مقربة منها، يلاعب أطفالها، واليوم لا أحد يقف بجانبها لا أبّ ولا أمّ فكانت تتمنى من أعماق قلبها أن يسلم زوجها لتسلم من ذلك العنت والعذاب، ولكن، لكل أجل كتاب.

وتتسابق الأحداث فها هم مشركو مكة يتجهزون لحرب الله ورسوله ﷺ والخروج إلى بدر، وتسمع زينب الخبر وترى زوجها يسرع مع الخارجين، ويتجهز لقتال والدها وصحبه فيتمزق قلبها، وهي تتفكر في لقاء الأحبة بالنسبة لها؛ أبوها وزوجها، ومَن القاتل ومن المقتول؟

إنه اليتم لصغارها، أو الثكل لأبيها، ويغادر الجيش مكة ويغيب عن الأنظار، ولكن قلب زينب يعيش الأسى والألم كيف ستكون المعركة؟

ومن الرابح فيها ومن الخاسر؟

لقد كان تأخر إسلام زوجها مزعجًا لها ولكن ماذا تصنع؟ أخذت تتحسس الأخبار، وتنتظر القادمين بأخبار المعركة إلى مكة.

وأخيرًا جاء من يخبر أهل مكة بهزيمة المشركين الساحقة الماحقة، وصدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥]. ففرحت زينب بانتصار المسلمين، وسلامة والدها، ولكنها تتذكر زوجها ماذا فعل الله به؟ لقد توقعت أنه مقتول فجاءتها البشرى من عمتها عاتكة أنه لم يُقتل، ولكنه وقع أسيرًا بأيدي المسلمين، ووردت إليها الأخبار بأن أهل الأسرى يفدون أسراهم، ويعودون بهم إلى مكة، بعد أن يدفعوا فداءهم

من الأموال إلى المسلمين ولكن أنّى لزينب المال الذي به تستطيع أن تفدي زوجها فماذا تعمل؟ وهي ترى الوفود تذهب إلى المدينة وتعود بأسراها.

لقد هداها تفكيرها إلى أن تدفع أعز ما تملك، فقد وجدت أن أثمن ما لديها تلك الهدية التي تحفظها منذ سنين، والتي تذكرها بأمها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي القلادة التي تزينت بها خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما زُفت إلى صفوة الخلق ﷺ، أخذت تلك الهدية وأعطتها لعمرو بن الربيع أخي زوجها، وقالت: قدّم هذه الصرة إلى رسول الله ﷺ فداء لأخيك، ولما وصل المدينة وسلّم الصرةَ للمسلمين، ظن من رآها أنها دراهم، ولما فتحت إذا بها تلك القلادةُ القديمة، التي كانت لأمها خديجة.

لقد ذكّرت نبي الله ﷺ بأيامه الخوالي، عندما كانت خديجة أمامه تتحرك وفي عنقها هذه القلادة.

فتحركت عواطفه، واهتزت مشاعره، ورقّ قلبه لابنته التي اختارت هذه الهدية فداء لزوجها.

لقد كان الفداءُ قلادةَ الحبيبة، ووزيرةَ الصدق، يوم الضيق خديجة التي كانت أهدتها لابنتها ليلة زفافها؛ وأطرق الحاضرون لروعة الموقف، ورقة المشهد، وذكرى السنين.

فنبيّ الله ﷺ بشر كغيره من البشر، وها هي ابنته في مكة يخفق

قلبها، وتلك زوجته خديجة التي استعاد ذكرها، وكأنها تقول لزوجها: اعطف يا رسول الله، استجب يا نبي الله، إنها هدية بنيّتنا فلا تردها.

وتغلب نبيّ الله ﷺ عواطفَه فيقول في رقة وحنان لأصحابه: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا) إنها أخلاق النبوة!! حتى في هذا الموقف يتلطف مع أصحابه ويرجوهم، أن يفعلوا لقد قالوا: نعم يا رسول الله، وأطلقوا الأسير وردوا إليها قلادتها، واستدعى نبي الله ﷺ زوجها أبا العاص وهمَسَ في أذنه، ولم يعلم الحضور ماذا قال له، وفي مكة التقى الأسيرُ بأطفاله يحمل تلك القلادة الغالية، وأخبر زوجه أن رسول الله ﷺ يدعوها للحضور إلى المدينة.

ففرحت وظنت أن زوجها شرح الله صدره للإسلام، ولكنه أعلمها عن الغرض من إرسالها إلى المدينة، وهو أن الإسلام لا يجيز لها الاستمرار معه، فلابد من رحيلها إلى المدينة طالما أنه على الشرك.

لقد حاولت دعوته للإسلام مرارًا ولكنه لا يزال حائرًا مضطربًا.

وبعد أيام حضر رجلان من المدينة بأمر النبي ﷺ لمرافقة ابنته من مكة إلى المدينة، وجلسا على بعد ثمانية كيلو مترات عن مكة، وصحبها أخو زوجها كنانةُ بن الربيع ليسلمها وطفليها إلى المندوبَين، لأن زوجها لم يطقْ ألمَ الفراق وساعةَ الوداع؛ وسمعت قريش برحيلها فخرج أشقياؤُهم إليها قبل وصولها للمندوبين فروّعوها وألقوها من ظهر البعير

وكانت حاملًا، فطرحت جنينها ونزفت دماؤها، ثم رجعت إلى مكة متعبة. وبعد أيام عزمت على الرحيل مع المندوبَين فلم يعترضها أحد حتى وصلت إلى أبيها.

ولما علم ﷺ بما فعله الأشقياء من ترويعها وإجهاضها غضب وبعث سرية لتأديبهم، وقال: (إن ظفرتم بهبّارٍ - وهو الذي تسبب في ترويعها وسقوطها - فاقتلوه).

لقد بقيت في المدينة وبقي زوجها في مكة، وأشغل نفسه بالسفر للتجارة حتى مضت ست سنوات مليئة بالأحداث الجسام.

لقد طال انتظارها له فكانت تتوقع كثيرًا أن يفد إلى المدينة، ليسلم مع من يأتي ليسلم، ولكن ماذا تصنع؟

وفي إحدى سفرات زوجها إلى الشام وقدومه، اعترض المسلمون تجارته فأخذوها كلها، وهرب هو بنفسه في جنح الظلام فماذا يصنع؟ وقد أُخِذَت أمواله وفيها أمانات لأهل مكة؟ هل يعود إلى مكة! وهو صفرُ اليدين وبضائعهم كانت معه؟ لقد هداه تفكيره إلى أن يلجأ إلى زوجه في المدينة فلديها الأمن والأمان.

وفي ليلة من الليالي دخل المدينة بعدما نام الناس واتجه إلى منزل زوجه زينب، وهمس من خارج الباب باسمها فخفق قلبها، وفتحت له فإذا به حزينًا مكسور الفؤاد، فسألته عن حكايته وهل أسلم؟

فقطع حديثه صوت بلال يؤذن لصلاة الفجر، وبعد ذلك قال: يا زينب لم آت مسلمًا وإنما جئت مستجيرًا فأجيريني، وكان خائفاً يرجف فؤاده فتقول له: لقد أجرتك وتسرع تصرخ جهة المسجد قائلة:

أيها الناس: إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، ويسمع المصلون هذا الصوت وهم لا يزالون في الصلاة. فلما سلّم رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - من الصلاة وأقبل على المصلين قال لهم : هل سمعتم ما سمعت؟

فقالوا: نعم سمعنا الصوت وعرفنا مصدره، وعند ذلك أقسم لهم عليه الصلاة والسلام قائلًا: (أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت).

ثم اتجه نبي الله ﷺ إلى ابنته فقالت متوسلةً: يا رسول الله: إن أبا العاص إن بَعُدَ فابن عم، وإن قَرُبَ فأبو ولد قد أجرته، فيقول نبي الله ﷺ لابنته: (أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له).

وبعد ذلك دعا نبيُّ الله ﷺ الرجالَ الذين أخذوا ماله وقال لهم: (إن رأيتم أن تحسنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك)، وهكذا يتلطف بأصحابه رجاء أن يستجيبوا، ولقد استجابوا ولاسيما وهم يسمعون ثناء نبي الله ﷺ عليه، حيث كان يقول: (حدثني أبو العاص فصدقني،

ووعدني فوفّى لي) لقد عاد أبو العاص بتجارته إلى مكة، وسلم الأمانات إلى أصحابها، حتى إذا أوصل لكل ذي حق حقه قال لهم: اسمعوا يا أهل مكة، ما كنت أحيد عنه، واعلموا بزوال ما ران على قلبي، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله ما منعني أن أعلن إسلامي في المدينة إلا تخوفًا من أن تظنوا أني إنما أردت أكلَ أموالكم، فلما أداها الله إليكم فها أنا أعلن إسلامي وأبرأ منكم ومن الشرك، ثم اتجه إلى المدينة ثم ماذا؟ لقد عادت المياه إلى مجاريها وعاد الصفاء محل الكدر، وحلت زينب لأبي العاص قيل على النكاح السابق، وقيل بنكاح جديد، وعاد إليها السرور، ودرج الطفلان في أحضان والديهما وبعد عام من عودة الحبيب، وإسلام الزوج واجتماع الشمل ما الذي حدث؟ هل يصفو الكأس لشاربه؟ اللهم لا!

لقد مرضت زينب ثم رحلت إلى ربها قريرة العين بإسلام زوجها، ولقد حزن على فراقها أبوها رسول الله ﷺ ولكنه قدر الله ﷻ، وكان يجد في الطفلين العزاء فكان يحمل أمامة وهو في الصلاة فإذا قام حملها وإذا سجد وضعها.

ولقد أردف علياً أخاها معه على راحلته يوم الفتح، ودخل مكة وهو رديف نبي الله ﷺ وعاش أبو العاص بعد زينب أربع سنوات فقط حيث توفي في الثانية عشرة من الهجرة في خلافة الصديق بعد وفاة النبي ﷺ بسنتين.

إن قصة زينب وأبي العاص قصة حب وحكاية زواج ازدانت به كتب التاريخ. فرضي الله عن الحبيبة، وأرضاها كم كابد أبو العاص وعانى؟ ولكنه في النهاية شرف بالإسلام، جمع الله الحبيبين في الجنة وجمعنا بهم في دار كرامته.

أيها المسلمون:

يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي قصة زواج زينب بنت رسول الله ﷺ بأبي العاص فوائد وعبر منها:

حسن معاملته -صلوات الله وسلامه عليه- لزوج ابنته وتلطفه به، فما أحسن وما أجمل أن يقدر والد الزوجة زوج ابنته وأن يكرمه ويحترمه!!

* شفقة النبي ﷺ ورحمته بابنته حيث كان يؤلمه ما يؤلمها، ويسره ما يسرها، ويسعى لإسعادها، وإدخال السرور عليها، فأين هذا ممن ينكد على ابنته ويجرعها الغصص؟ ليأخذ راتبها أو ليهين زوجها.

* محبة النبي ﷺ لأولاد ابنته فقد كان يحب أمامة وعلياً أبناء زينب حبًّا عظيمًا حتى كان يحمل أمامةَ في صلاته، وأردف عليًّا على بعيره عندما فتح مكة ودخلها مما يدل على مكانته عنده ومحبته له.

* وفاء النبي ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها في حياتها وبعد مماتها، ولقد رأينا رغبته بإطلاق سراح أبي العاص لما رأى فداءه من ابنته وكان الفداء عبارة عن عقد كانت تلبسه خديجة رضي الله عنها، وكان يكرم صديقات خديجة، ويذبح الشاة ويبعثها إلى صديقاتها.

* النبي ﷺ لم يغمط أبا العاص حقه فبالرغم (من كفره، إلا أن النبي ﷺ أثنى عليه لصدقه، ووفائه، وهكذا كانت عادته - صلوات الله وسلامه عليه - فعندما بعث كتابًا إلى قيصر قال فيه: من محمد رسول الله إلى قيصر عظيم الروم).

* ملاطفته ﷺ لأصحابه ورقته في طلبه فمع أنه المسؤول الأول، وهو الذي لا يخالف أمره، ولا يُرد طلبه، إلا أنه كان يلاطف أصحابه، ويستميحهم العذر في قبول فداء أبي العاص، وفي رد أمواله إليه من أصحاب السرية الذين اعترضوا قافلته واستاقوها وهرب منهم.

* وفاء الزوجة لزوجها وحرصها على هدايته وهذا ما قامت به زينب، ولقد تم لها ما أرادت وما تمنت، ولم تلبث سوى سنة واحدة بعد هداية زوجها، وقد مكثت سنين في دعوته ولم تيأس من هدايته، فما أجمل أن يحرص كل من الزوجين على الآخر في النصح والتوجيه والبعد عما نهى الله عز وجل عنه!

***

اللهم إني أسألك الثبات في الأمر

أيها المسلمون:

الثبات على دين الله عز وجل، هو الضمان بإذن الله للفوز بدخول الجنة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وكان من دعاء نبي الله ﷺ في صلاته: (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد) رواه الإمام أحمد والنسائي. فهنيئًا لمن رزق الثبات على الطاعة، ولا سيما مع كثرة المباهج والمغريات، وتعاظم كيد الأعداء والشبهات، وتزايد الفتن والملهيات.

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي الرجل مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا).

إن الإنسان في هذه الحياة معرض للفتن، وقد يقوده هواه إلى ما لا تحمد عقباه، وهو لا يرى أنه قد أساء.

وقد جاء في ذكر حوض النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وأنه يمنع منه أناس يتصورون حصولهم عليه ولكنهم يحرمونه.

فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: (أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدأ، وليردنّ علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، فأقول: فإنهم مني، فيقال: فإنك لا

تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقًا لمن بدل).

وروى مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ إذا رأى أناسًا من أمته منعوا من الشرب من الحوض، يقول: (يا رب مني ومن أمتي، فيقال: أما شعرت ما عملوا بعدك، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم، فأقول سحقًا سحقًا).

ومعنى يرجعون على أعقابهم: أنهم لم يثبتوا على الدين، وقد يكون التراجع عن الدين بطيئًا، ولكنه يؤدي إلى الهاوية، وربما يشق الصعود بعد طول الاستدراج.

يقول ابن مليكة أحد رواة هذا الحديث: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا، أو أن نفتن عن ديننا، ولقد أمر نبينا محمد ﷺ بالاستقامة على الدين فقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ [هود: ١١٢]، وأُمِر بالعبادة حتى الممات: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قاربوا وسددوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) رواه مسلم.

أيها المسلمون:

إن علينا جميعاً أن نحذر الفتن، وأن نحذّر منها؛ لأن لها عواقب وخيمة، فهي توقع الفرقة بين المسلمين، وتسبب بغض بعضهم بعضًا،

وحينئذ يضعف التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا به؛ وتقل النصيحة التي هي أصل أصيل في الإسلام، يقول النبي ﷺ: (الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة) رواه مسلم.

والفتن -عياذًا بالله تعالى- تشغل عن طاعة الله حيث تتوتر النفوس، وتصبح القلوب مشحونة، ويصبح الشك والريب، محل الطمأنينة والثقة.

والفتن إذا وقعت في مجتمع المسلمين، أفرحت الأعداء والمتربصين، الذين يستغلون فرصة انشغال المسلمين بما هم فيه من أجواء الفتن.

وإذا حلّت بالمجتمع واستعرت، فإنها تكون مجالًا خصبًا لظهور الحسد والكيد والعدوان والنعرات.

إن الإنسان قد يسهم في إشعال الفتن، من حيث لا يشعر.

يقول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (قصم ظهري رجلان: فاجر متهتك، وجاهل متنسك).

إن التطرف مثلًا بمفهومه الواسع، لا يقف عند حدود: (الغلو في الدين) فهذا وإن كان خطيرًا فإن هناك غلوًا في الجفاء، ومبالغة في الفساد، ومحاولة لإسقاط الآخرين، واعتبار حدود الشريعة قيودًا لابد من الخلاص منها، وهذا ما يطرحه البعض ويقترحه؛ إن ذلك الطرح، يستفز المشاعر، ويوسع دوائر الحريق، وربما دفع من قل فقهه وعلمه إلى تصرفات لا تقبل، ولا تقر، ولا تبرر.

إن المسلمين لابد أن يستشعروا أن التطرف ضد الدين، كالتطرف في الدين كلاهما يضر بالأمن والوحدة، وكلاهما خطير.

وإذا كان المسلمون مجمعين على إدانة الإفساد، وقتل الأنفس المعصومة، والتدمير، والترويع، فلابد من رفض فجور المتهتكين.

أيها المسلمون:

إن دفع الفتن مسؤولية المسلمين جميعًا وذلك: بالحذر، وعدم التعجل فيها، يقول رسول الله ﷺ: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي) رواه البخاري. ومما تدفع به الفتن: التأكيد على أهمية الوحدة والائتلاف لو تنازل الإنسان عن بعض ما يحب، إذا لم يكن حرامًا، وذلك في سبيل توحيد الكلمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الأنبياء: ٩٢]. إن الخلاف شرٌ ولا شك، والشيطان يئس أن يعبده المسلمون في أرضنا، ورضي بالتحريش بينهم.

ومما تدفع به الفتن: الابتعاد عن الذنوب حتى ولو كانت في نظر الإنسان صغيرة، يقول النبي ﷺ: (إياكم ومحقّرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل فيهلكنه) رواه الإمام أحمد، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: (يا عائشة إياكم ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبًا) رواه النسائى وغيره.

معشر الإخوة:

في عصرنا الحاضر أصيبت الأمة بضربات مؤلمة موجعة، والأشد على النفوس أن تكون هذه السهام الموجهة إلى بلاد المسلمين على أيدي بعض أبنائهم:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... وإذا رميت يصيبني سهمي

إن كيد الأعداء، ومكر الخصوم، لا يستنكر ولا يستغرب، ولكن الغريب حقًا أن يحارب ويعادى المسلمون من بعض أبنائهم، والمنتسبين إليهم ممن يدّعون الجهاد والصلاح.

إن المسلم ليتساءل: أمن المعقول أن يكون بين المسلمين من يجعل من نفسه معول هدم وإفساد، لا يقل ضررًا عن معاول أعداء الإسلام الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون؟!

وإلى متى وبعض أبناء المسلمين يصيبون المسلمين في مقتل، وهم يتوهمون أنهم على حق، يا للعقول وزيغة الأذهان؟! وهل لأولئك الشباب المغرر بهم أن يتوقفوا عن الاندفاعات المتهورة؟ والتي يدّعون أنها تفيد الإسلام وأهله، بينما هي في الحقيقة والواقع تخدم الباطل وأتباعه، لقد فجع هؤلاء المتهورون الأهل والأحباب بدعوى الجهاد.

إن مما يؤلم أشد الألم، أن يجعل البعض من أبناء المسلمين ساحة الجهاد بلاد المسلمين، وأن يجعلوا ضحاياهم أقرب الناس إليهم، وأن يجعلوا أعداءهم أهليهم.

فما الهدف الذي ينشده أولئك أهو الجهاد؟ ومتى كان الجهاد بسفك الدماء المعصومة؟ أو بالخروج على الحاكم المسلم؟ وهو مما حرمه الله تحريمًا قاطعًا لا شك فيه؛ فهل تكون طاعة الله في معصيته حتى لو كان القصد من هذه الأعمال الشريرة الثأر من الأعداء على حد زعمهم؟ ولكن هل هم في الحقيقة ثأروا من الأعداء بهذه الأعمال الخطيرة؟ أو أنهم ثأروا لهم!!

لقد خدمت هذه الفئة الضالة أعداء الإسلام، من حيث لم يشعروا وتسببوا بأذى المسلمين، من حيث لم يحتسبوا، وأعطوا الفرصة لأهل الضلال، لكي يطلقوا صيحاتهم المقاومة للدين ودعاته ومؤسساته، وقد منحوا الأعداء ذريعة للتدخل في شؤون المسلمين، بشتى الحجج ومختلف الطرق.

وليس المقصود من ذلك التوقف عن نصرة الدين كلا!! فنصرة دين الله واجبة، ودور الشباب في هذا المجال دور عظيم ومتعدد، يجمع ذلك الدور الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، إلا أن هذا الدور لن يكون إلا بوضع الأيدي بأيدي الولاة والعلماء والدعاة وأهل الخير والحسبة.

إن هذه الفتن والابتلاءات التي تصيب أمتنا حينًا بعد آخر، إنما هي تمحيص واختبار: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

وإن هذه الأحداث التي تتعرض لها بلادنا، حماها الله وحمى بلاد المسلمين، والتي لا يزال مسلسلها مستمرًا، عبر حوادث القتل والتفجير، وما يحصل بسبب ذلك من مآسٍ يندى لها الجبين، إن ذلك كله من الإفساد في الأرض، ومن الباطل الذي لا يرضاه دين ولا عقل، وإن استنكار هذه الحوادث وإدانتها وشجبها والتحذير منها، ومن عواقبها،هو أقل درجة واجبة من درجات إنكار المنكر والوقوف في وجهه، وليس هذا الكلام مجاملة لأحد ولا تزلفًا، ولكنه دين ندين الله تعالى به، فإن النصوص الشرعية مليئة، في بيان حرمة المسلمين، وعصمة دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم، واحترام حق واليهم يقول الله - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول رسول الهدى ﷺ: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، إلا أن يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم: (من أتاكم وأمركم جميعًا على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، ويفرق جماعتكم، فاضربوه بالسيف كائناً من كان).

أيها المسلمون:

إن هؤلاء الأغرار الذين جنّدوا أنفسهم لخدمة الأعداء، وقلّت في نفوسهم هيبة الدم المعصوم، وانتهكوا حرمة المسلمين وعصمتهم،

وكفروهم أو فسقوهم، هم في الحقيقة مخدوعون مغرر بهم.

وإن الواجب على المسلمين بعامة أن يكونوا صفًا واحدًا، وأن لا يرضوا بالمزايدة على أمن بلادهم، وديارهم فهم المستفيدون، من هذا الأمن، إنه لا خير فيمن يخون أمته، ويفرق صفها، ويزعزع أمنها، ويسعى جاهدًا في خدمة أعدائها:

ومن لم تكن أوطانه مفخرًا له   فليس له في موطن المجد مفخر
ومن لم يبن في قومه ناصحًا لهم   فما هو إلا خائن يتستر
ومن كان في أوطانه حاميًا لها   فذكراه مسك في الأنام وعنبر
ومن لم يكن من دون أوطانه حمى   فذاك جبان بل أخسّ وأحقر

***

التربية النبوية.. إبداع وتألق

أيها المسلمون:

رسول الله ﷺ هو المربي العظيم، الذي قام بمهمة التربية خير قيام، فقد أدرك بتوجيه من ربه أهميتها، وأثرها في تكوين الأمة الإسلامية الخيرة فوجه أمته بقوله وفعله.

وهو في تربيته يتبع منهج الأسوة الحسنة، والقدوة الكريمة، فكان المثل الأعلى في التربية والتوجيه والإرشاد والسلوك، ولا غرابة في ذلك ولا عجب، فهو سيد ولد آدم. وقد زكى الله عقله بقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ٢]، وزكى لسانه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣]، وزكى قلبه بقوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١]، وزكاه كله بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وسار على تربيته أصحابه، ومن جاء بعدهم، وهم أفضل هذه الأمة، وخير القرون.

ففي قرن وبعض قرن، وثب المسلمون وثبة عظيمة، ملؤوا بها الأرض قوة وحكمة، وعلمًا ونورًا، وهداية واستقامة، ففرحت بهم الأمم، ودخل الناس في الإسلام الذي سما بأخلاقهم ومعاملاتهم وسلوكهم، ووحّد بينهم فلا عصبية ولا عنصرية ولا فضل لأحد على

أحد إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

لقد غيّر المسلمون بجهودهم وجهادهم، وتربيتهم مجرى التاريخ فسعدت البشرية وارتقت وازدهرت.

وما كانت هذه الإنجازات العظيمة لتحصل؛ وما كان للمسلمين أن يصلوا إلى تلك المقامات العالية.

لولا توفيق الله، ثم العناية بالتربية على الإيمان بالله عز وجل، والجد في العمل والبذل والعطاء والتحمل.

أيها المسلمون:

إن أعظم ركيزة من ركائز التربية التي كان يحرص عليها نبي الله ﷺ، تحقيق توحيد الله ﷻ، ومراقبته، والخوف منه، والإحساس بمعيته، واطّلاعه على عبده.

وإليكم هذا المثال:

عن عبدالله بن دينار قال: خرجت مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى مكة فعرسنا - أي توقفوا عن السير للراحة والنوم - فانحدر علينا راع من الجبل فقال له ابن عمر: أراع؟ قال: نعم، وأراد ابن عمر أن يختبر أمانته فقال له: بعني شاة من الغنم، قال: إني مملوك. قال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال: فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله؟ وبكى ثم اشتراه بعد فأعتقه واشترى له الغنم.

ذكر هذه القصة الحافظ الذهبي، في سير أعلام النبلاء عند ذكر ترجمة عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

إن هذا الشاب الراعي بسبب أمانته أصبحت الشياه كلها ملكًا له، وفوق ذلك كله أصبح حرًّا بعد أن كان مملوكًا: (ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه).

لقد كان هدف ابن عمر أن يمتحنه فاكتشف قوة إيمانه، ومراقبته لله، وخوفه منه، فاشتراه وأعتقه وملّكه سائر القطيع.

وكان - صلوات الله وسلامه عليه - حريصًا في تربية أصحابه على الثبات على المبدأ الحق، وأن يكونوا بعيدين عن التذبذب والتناقض، وقد كان ﷺ ثابتًا على مبدئه، مع حصول الأذى المتنوع عليه وعلى أصحابه.

ذكر ابن إسحاق في كتابه المغازي: أن أبا طالب عمَّ النبيّ ﷺ طلب من ابن أخيه رسول الله ﷺ أن يكف عن دعوة المشركين لكي يسلم منهم؛ لأن الدعوة كانت تضايقهم، فأجابه عليه الصلاة والسلام بقوله:

(والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه).

وقام بعد هذه المقالة مستعبرًا باكيًا، فلما رأى عمه عزمه الصادق وثباته الراسخ، ناداه بقوله: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدًا.

ومن ثمرات التربية النبوية ثالثًا: الشجاعة العظيمة التي تجعل الإنسان يستهين بملذات الحياة ومباهجها ويتوق إلى جنة عرضها السموات والأرض، كأنه يراها بعينه:

إن الشجاعة أن تموت على الظمأ   ليس الشجاعة أن تعبّ الماء

فهذا أنس بن النضر يتقدم يوم أحد، وقد انكشف المسلمون فيستقبله سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فيقول: يا سعد الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد، فيتقدم ويقاتل حتى يخرّ شهيدًا، وإذا إصابات جسمه تصل إلى ثمانين إصابة مابين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم.

وهذا عمير بن الحمام يسمع نبي الله ﷺ يقول:

(قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، فيقول عمير: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض قال: نعم، قال: بخ بخ، فيقول رسول الله: ما يحملك على قول بخ بخ؟!

قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال:

فإنك من أهلها) فأخرج عمير تمرات فجعل يأكل منها، ثم قال:

لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بالتمرات، ثم قاتل حتى قتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهكذا كانوا يتطلعون إلى الجنة فجادوا بأنفسهم، وأرخصوها

إرضاءً لله وطمعًا في جنته.

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: [صوت القعقاع بن عمرو في الجيش خير من ألف رجل]، ولما طلب عمرو بن العاص رضي الله عنه المدد من عمر بن الخطاب لفتح مصر كتب إليه عمر أما بعد: فإني ممدك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد.

أيها المسلمون:

لقد وصل المسلمون بجهادهم، وحسن تعاملهم إلى بلاد الصين شرقًا، وإلى بلاد الأندلس غربًا، وشمل عدلهم مساحات كبيرة من الأرض.

فها هو الخليفة العباسي هارون الرشيد رحمه الله أراد أن يصور للعالم سعة رقعة بلاد المسلمين فلم يجد إلا أن يخاطب السحابة التي تمر به ولا تمطره، بقوله لها: أمطري حيث شئت فإن خراجك سيحمل إلينا.

وهو يقصد أن رقعة المسلمين واسعة، وأن غير المسلمين رضوا بحكم الإسلام مقابل دفع الجزية.

ولقد وقف عقبة بن نافع في أقصى الغرب على شاطئ المحيط الأطلسي وقال - وقد خاض جواده بالماء -:

(اللهم ربّ محمدٍ لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل إعلاء

كلمتك، فاشهد).

وهذا قتيبة بن مسلم الباهلي توغل في أقصى الشرق حتى دخل الصين فقال له أحد أصحابه محذرًا مشفقًا: لقد أوغلت في بلاد الترك يا قتيبة، والحوادث بين أجنحة الدهر، فأجابه قتيبة بقوله: (بثقتي بنصر الله توغلت؛ وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة).

فلما رأى ذلك المحذر عزمه وتضحيته على المضي قُدمًا لإعلاء كلمة الله قال له: (اسلك سبيلك حيث شئت يا قتيبة فهذا عزم لا يفلّه إلا الله).

لقد أنجبت مكة، والمدينة، والقدس، والقاهرة، ودمشق، وبغداد، والقيروان، أنجبت هذه المدن وغيرها هؤلاء العظماء، الذين لم تعرف البشرية أنبل ولا أكرم ولا أرأف ولا أرحم ولا أجلّ ولا أعظم ولا أوفي ولا أعلم منهم: (أولئك آبائي فجئني بهم).

تلك صفحة من الماضي مشرقة، وشجرة من التاريخ مورقة.

رابعًا: ومن ثمرات التربية النبوية المباركة: عفة النفس والأمانة، التي كانت سدًا حائلًا أمام المطامع والشهوات.

لما وصل المسلمون إلى عاصمة الفرس المدائن وجمعوا غنائمها أقبل رجل بصندوق معه مملوء ذهبًا، فدفعه إلى صاحب الأقباض، وهو المسؤول عن جمع الغنائم، فسأل المسؤول ومن معه هذا الرجل، هل أخذت منه شيئًا؟ فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به فقالوا من أنت يرحمك الله؟ فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولكن أحمد الله

وأرضى بثوابه.

لقد عثر هذا الرجل على كنز عظيم من كنوز كسرى، قد تقدر قيمته بالملايين، إلا أن إيمانه أبى عليه وأبت عليه أمانته أن يحوزه لنفسه، رغم أنه لا يراقبه أحد فبإمكانه بكل سهولة أن يستأثر به، لانشغال الناس عنه، ومع ذلك فهو يحمله بكل أمانة إلى حيث يقسم بالعدل ويأبى أن يذكر اسمه مكتفيًا بثناء الله ورضاه، إنها التربية العظيمة التي أولاها رسول الله ﷺ عنايته، وأنفق لها وقته، وبذل من أجلها جهده.

ومن ثمرات التربية النبوية خامسًا: الاستهانة بالمظاهر الجوفاء والزخارف الزائلة.

فهذا ربعي بن عامر رسول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما إلى رستم قائد الجيوش الفارسية، دخل عليه بثياب عادية وربط فرسه ببعض الكراسي المصفوفة، وأقبل على رستم متوكأ على رمحه، وهو بهذا العمل لم يكن مستهترًا ولا ساخرًا، ولكنه أراد أن يلقن المغترين بالزينات والمباهج درسًا، بأن الزينة لا قيمة لها ما دام أن الإنسان يجحد حقّ ربه، إن ربعيًا يريد أن يقول:

إنه لا قيمة للقصور ولا للدور ولا للجواهر ولا للفرش، يوم يهمل أصحابها أمر الله ويكفرون به قال الله - تعالى -:

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٨_٤٩].

إن ملك الفرس بعد هزائمه المتتابعة، استنجد بملك الصين ووصف له المسلمين، فأجابه ملك الصين: إنه يمكنني أن أبعث لك جيشًا أوله في منابت الزيتون - أي الشام - وآخره في الصين، ولكن إن كان هؤلاء القوم كما تقول، فإنه لا يقوم لهم أهل الأرض، فأرى لك أن تصالحهم وتعيش في ظلهم وظل عدلهم.

أيها المسلمون:

لقد دار الزمان دورته، وأصبح المسلمون في وضع حرج، ومع ذلك فهم قادرون - بإذن الله -تعالى- على أن يجعلوا لأنفسهم مكانة بين الأمم، فهم الأعلون وهم الغالبون: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣].

النصر لعباد الله المؤمنين:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

إن من المسلمين الطائفة المنصورة التي لا تزال ظاهرة إلى يوم القيامة، والله ﷻ مولى الذين آمنوا بخلاف الكافرين:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

النصر للمسلمين حتى لو أزيل عن أرضهم شجر الزيتون واستنبت الغرقد، فلن تقوم الساعة حتى ينادي الشجر، أو الحجر: يا مسلم يا عبدالله إن ورائي يهوديًا تعال فاقتله، إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود.

ومن سنن الله في النصر: عدم اعتبار القلة والكثرة، في ميزان النصر:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[البقرة: ٢٤٩].

ومع أن النصر للمؤمنين إلا أنه قد يتأخر، وتحدث قبله جولات وصولات بين معسكر الحق والباطل، ليتبين الصادقون من الكاذبين، ويتميز الطيبون من الخبيثين، ويكرم من يكرم بالشهادة في سبيله.

ومهما تأخر النصر فالظلم له أجل محدود:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ألا ما أحوج المسلمين إلى التوبة أفرادًا وشعوبًا ودولًا، مما يعلمه الناس، ومما لا يعلمه إلا الله ليستحقوا نصره، ومع التوبة فلابد من التضرع واللجوء إلى الله فهو وحده فارج الكربات، وكاشف البليات، ومجيب الدعوات، ومغيث اللهفات، والدعاء من أمضى الأسلحة، ومن أقوى أسباب النصر.

يقول الله -تعالى-: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧].

أيها المسلمون:

نصر المسلمين لا يكفي فيه مجرد الانتساب للإسلام، أو الاعتقاد أن الغلبة للمسلمين، مع الغرق في أوحال المعاصي، فإن من معوقات النصر، ظهور الفساد في البر والبحر بشتى أنواعه وأشكاله، حيث يوجد اليوم فسادٌ في جوانب كثيرة، إلا ما رحم الله.

إن هناك ارتباطًا وثيقًا بين انتشار المنكرات، وبين مصائب الأمة وتسليط الأعداء، وقد جاء في الحديث الصحيح يقول رسول الله ﷺ:

(يا معشر المهاجرين خصال خمس، إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله ورسوله، إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم) رواه ابن ماجه والطبراني في المعجم الأوسط.

إن الواجب على المسلمين أن يعدوا أنفسهم ليستيقنوا أن التعادل الصناعي بين المسلمين وعدوهم ليس شرطًا في النصر، نعم على المسلمين أن يأخذوا بالأسباب المادية، بحسب قدرتهم وما يستطيعونه، فقد أمروا بذلك والشرط الوحيد لنصرهم أن ينصروا ربهم بالأخذ بشرعه، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

***

عجائب من حجة المصطفى ﷺ

أيها المسلمون:

يقول الله -تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]، ويقول -تعالى-: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ويقول رسول الله ﷺ: (أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) رواه مسلم.

أيها المسلمون: الحج أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، جدير بمن لم يحج أن يؤدي هذه الفريضة العظيمة، فإنه لا يدري ماذا يعرض له؟ الحديث عن الحج يذكر بمكة وفتحها، ويذكر بحجة رسول الله ﷺ فلقد كانت مكة في الجاهلية كغيرها تعبد فيها الأصنام، إلى أن يسر الله فتحها على يد نبي الله ﷺ، وكان هذا الفتح العظيم سنة ثمان من هجرة المصطفى ﷺ، وفرض الله الحج إلى بيته الحرام في السنة التاسعة من الهجرة في سنة كانت المدينة تزدحم بالوفود القادمين إليها من كل مكان، مسلمين مختارين. فكان -صلوات الله وسلامه عليه- دائمًا في استقبالهم ليفقههم في دينهم. كان تقاطر الوفود إلى المدينة سببًا في بقائه فيها وعدم مغادرته للحج، يعني في السنة التاسعة بالإضافة إلى أنه -صلوات الله وسلامه عليه- كان يتوقع أن يحج المشركون، وهذا ما

حصل بالفعل فقد شارك المسلمين الكفارُ في حج العام التاسع، ولذلك أخّر النبي ﷺ حجه وأناب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ليحج بالناس.

وأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يؤذن في الناس، أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عريان. وكان الناس في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة ما عدا قريش.

لقد أخّر النبي ﷺ حجه إلى السنة العاشرة ليكون حجًا خاصًا بالمسلمين، فلا يشاركهم فيه أيّ من المشركين، ولما علم المسلمون عن عزم النبي ﷺ على الحج حضروا إلى المدينة كلّهم يلتمس أن يأتم بنبي الله ﷺ ، ويعمل مثل عمله.

حتى النساء الحوامل خرجن معه للحج، فإنهم لما وصلوا ذا الحليفة ميقات أهل المدينة ولدت أسماء بنت عميس رضي الله عنها زوجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولدت محمد بن أبي بكر، وذلك يدل على حرصهم على مرافقة النبي ﷺ في هذه الرحلة المباركة، التي يؤدون فيها فريضة من فرائض الله، وركناً من أركان الإسلام، حتى وإن نالهم تعب ومشقة.

لقد بلغ عدد من حجوا مع رسول الله ﷺ من غير النساء والأطفال مائة وعشرين ألف شخص تقريبًا.

ولقد وقع في حجته -صلوات الله وسلامه عليه- طرائف وعجائب

فمن ذلك:

- أنه خطب -عليه الصلاة والسلام- في هذه الجموع المحتشدة وأسمعهم جميعًا، وهم في أماكنهم، وكأنهم أمامه يخاطبهم، مع علمنا أنه لا يوجد في ذلك الوقت مكبرات للصوت ولا آلات لنقله، ولكنها قدرة الله وتدبيره.
- ومن الطرائف التي وقعت في حجته ﷺ، أنه لما أتى لينحر الإبل، وقد ساق معه ﷺ الهدي، وكان عدد هديه مائة ناقة كما ورد في صحيح مسلم. فلما أخذ الحربة وتقدم باتجاه هذه الإبل لينحرها، أخذت تتسابق إليه أيّتُها يُنحر قبل، وعن عبدالله بن قرط الأزدي رضي الله عنه قال: (وقرّب لرسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست فطفقن يزدلفن إليه بأيّتهن يبدأ) رواه أبو داود.

إنها المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ التي أوجدها الخالق -جل جلاله- في القلوب وفطر عليها مخلوقاته، فليس البشر وحدهم هم الذين يحبونه، بل البهائم تحبه.

- **ومن طرائف حجته -صلوات الله وسلامه عليه-:**

أنه خطب في الحجاج يوم النحر خطبة بليغة، ومما جاء فيها: (لعلّي لا أحج بعد عامي هذا) رواه مسلم، وخطب فيهم وسط أيام التشريق فقال: (إني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا)، لقد ودع رسول الله ﷺ أصحابه في حجته تلك والتي عرفت بحجة الوداع وقد بقي من عمره أسابيع.

- **ومن طرائف حجة النبي ﷺ:**

ما رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: (لما رمى رسول الله ﷺ الجمرة، ونحر نسكه، وحلق ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر، فقال: احلق فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: (اقسمه بين الناس، وفي رواية: أن أبا طلحة بكى فرحًا).

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال للحلاق وهو معمر بن عبدالله وهو قائم على رأسه بالموسى ونظر في وجهه، وقال: (يا معمر أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه وفي يدك الموسى) فقال معمر: أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله عليّ ومنّه، قال: أجل إذًا أقرُّ لك).

لقد بكى أبو طلحة من الفرح لما أعطاه نبيّ الله ﷺ نصف شعره.

أيها المسلمون:

لقد شهد الصادق المصدوق بأن أيام عشر ذي الحجة أفضل أيام الدنيا، وحث على العمل الصالح فيها.

روى الدارمي بسند حسن أن رسول الله ﷺ قال: (ما من عمل أزكى عند الله عز وجل ولا أعظم أجرًا من خير يعمله في عشر الأضحى، قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء).

ومن الأعمال الصالحة: التكبير، والذكر، وقراءة القرآن، ونوافل الصلاة، والصدقة، والصيام، وكذلك صلة الرحم، والبر، والتوبة، إلى

غير ذلك من الأعمال الكثيرة.

إن إدراك هذه العشر نعمة عظيمة من نعم الله -تعالى- على عباده.

ومن هذه الأيام يوم عرفة، الذي هو يوم من مفاخر الإسلام، ويوم فرح لأهل الإسلام، لأن الله يغفر فيه لأهل الذنوب ذنوبهم، ويتجاوز عنهم، ويعتقهم من النار.

سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: (يكفر السنة الماضية والباقية) رواه مسلم.

وإذا دخلت العشر، فلا ينبغي أن يأخذ المسلم الذي يريد أن يضحي من شعره ولا من أظافره شيئًا.

والمضحي هو الذي يدفع القيمة، وأما غيره ممن يضحى عنه كالزوجة والأولاد فلا ينهى عن ذلك.

والأضحية سنّة مؤكدة لا ينبغي تركها لمن يجد ثمنها، وكلما كانت سمينة غالية الثمن كانت أفضل.

وهي سنّة أبينا إبراهيم عليه السلام ويشرّك المسلم المضحي في ثوابها من الأحياء والأموات من يشاء، ما لم تكن الأضحية وصية موصى بها، فإنها تكون على حسب الوصية.

ويجوز أن تكون الأضحية للميت دون الأحياء، وفضل الله واسع.

تقبل الله منا ومنكم ومن جميع المسلمين.

***

أخلاق المصطفى ﷺ

الحمد لله ذي العزة والجبروت، والكبرياءِ والعظمة، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، سبوحٌ قدوس ربُّ الملائكةِ والروح، الكبرياء رداؤه، والعظمة إزاره، فمن نازعه في أحدهما قصمه، وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

أرسل الله -تبارك وتعالى- نبيه محمدًا شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهدى الله به من الضلالة، وعلّم به من الجهالة، وبصّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وكثّر به بعد القلة، وأعزّ به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، واستنقذ به من الهلكة، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، شرح الله له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمره، وأقسم بحياته في الكتاب المبين، وقرن اسمَه باسمه فإذا ذُكِرَ ذُكر معه، كما في الخطب والتشهد والتأذين، فلا يصح لأحد خطْبة ولا تشهد ولا أذان ولا صلاة حتى

يشهد أنه عبده ورسوله شهادةَ اليقين، فصلى الله وملائكتُه وأنبياؤُه ورسلُه وجميع خلقه وسلّم عليه وبارك، وجازاه عنا خير ما يجزي نبيًا عن أمته، ورسولًا عن قومه، لقد زكى الله بصره فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾[النجم: ١٧]، وزكى عقله فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾[النجم: ٢]، وزكى فؤاده فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[النجم: ١١]، وزكى لسانه فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[النجم: ٣]، وزكاه كُلَّهُ فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[القلم: ٤].

إن هذه الكلمة العظيمة (وإنك لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) صادرة من الله الكبير المتعال، وكم كان -صلوات وسلامه عليه- قويًا متواضعًا حينما تلقى هذا المدح العظيم من ربه الكريم !! إنه لم يتعاظمْ نفسه، ولم يتكبرْ على العباد بالرغم من هذا الثناء العجيب، لقد كان -صلوات الله وسلامه عليه- يثني على الرجل من أصحابه، وأعظم به من ثناء؛ لأنه صادر من أفضل إنسان عرفته البشرية، لذلك فإن كيان ذلك الرجل يهتز، ومعه الصحابة أيضًا، هذا الثناء العظيم وهو -صلوات الله وسلامه عليه- بشرٌ، والرجل يعلم أنه بشر، وأصحابه يعلمون أنه بشر، نعم إنه نبي، ولكنه لن يخرج عن دائرة البشرية، فأما هو -صلوات الله وسلامه عليه- فيتلقى هذه الكلمة العظيمة: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: ٤]، يتلقاها من ربه ﷻ، ثم يصبر على أذى المشركين، ويتماسك، ويتلقى الوحي،

ويسير على هدى، إنه أمرٌ فوق كلّ تقدير، وفوق كل تصور؛ ولقد وردت الآية الكريمة في سياق الرد على المشركين الذين اتهموا نبي الله ﷺ بالجنون، وذلك في مكة بعدما دعا إلى الله ﷻ.

ألا ما أحوجنا أن نقف مع هذه الكلمة العجيبة ومع هذه الشهادة العظيمة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

إن هذه الأخلاق العظيمة التي مدح الله - تعالى - بها نبيه ﷺ كثيرة ومتنوعة، فله قصب السبق في كل صفة مدح، فمن الصفات الجليلة والعظيمة التي اتصف بها - صلوات الله وسلامه عليه - ولأمته به أسوة حسنة، وهو - عليه الصلاة والسلام - لهم قدوة، من هذه الصفات، صفة الصدق: لقد كان صادقًا صدوقًا قبل أن يكلف بالرسالة وبعد التكليف، قالت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعدما نزل عليه الوحي وقال لها: (لقد خشيت على نفسي وأخبرها خبره فقالت: كلا !! أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق) رواه البخاري ومسلم.

وقد اتهمه كفار مكة بالجنون والسحر، ولكنهم لم يتهموه بالكذب، وإنما تكذيبهم لما جاء به قال -تعالى-: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ولقد شهد أعداؤه من الكفار بصدقه ففي حديث أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل

إسلامه عند هرقل، وقد سأله هرقل فقال: (وهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: قلت: لا).

إن المنطق والعقل يقضيان بأن يصدق أهل مكة رسول الله ﷺ بما جاء به ولكنهم اختاروا التكذيب لحكمة يعلمها الله.

فواعجباً لقوم كذبوه ألم يكُ بينهم يُدعى الأمينا

ومن يعرف بصدقٍ في صباه يصدّق حين يبلغ أربعينا

ومن صفاته: الشفقة على أمته فلقد كانت شفقة النبي ﷺ على أمته بالمقدار الذي لا يمكن أن يوصف، ولكن يشار إليه إشارة فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: (أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: (اللهم أمتي أمتي) وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل، اذهب إلى محمد ـ وربُّك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل -عليه الصلاة والسلام- فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك) رواه مسلم، وهكذا بكى نبي الرحمة ﷺ شفقة على أمته ورحمة بها؛ ولقد بلغ من فضله - صلوات الله وسلامه عليه - عند ربه

أن سماه باسمين من أسمائه جل وعلا حيث سماه رؤوفًا رحيمًا قال الله -تعالى-: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن صفاته الجليلة: الحلم والعفو والصفح فله القدح المعلى وقصب السبق في ذلك، وحلمه وعفوه لا يوصفان ولا يحاط بهما ولكن يشار إلى ذلك فحسب، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك -يعني أهل مكة- ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ يومَ العقبة، إذ عَرَضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كُلال -وهو من أكابر أهل الطائف- فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي أي انطلق من الطائف متجهًا إلى مكة، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب -وهو قرن المنازل- فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قدسمع قول قومك لله وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئًا) كان هذا اليوم أشدّ على النبي ﷺ من يوم أحد مع شدته

وصعوبته. لقد مر على النبي ﷺ في أحد شدائد تعجز عن حملها الجبال، ولا سيما ما حصل له وللمسلمين فقد أصاب المسلمين ما أصابهم، وجرح وجه النبي ﷺ وكسرت رَباعيته وسقط في حفرة من الحفر واستشهد سبعون من أصحابه رضي الله عنهم وعلى رأسهم عم النبي ﷺ حمزة أسد الله وأسد رسوله ﷺ، فما الذي حصل؟ وما لقيه - صلوات وسلامه عليه - من أهل الطائف حيث سخروا منه وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم، يضربونه بالحجارة حتى خرج من الطائف، عائدًا إلى مكة وأثناء هذه الشدائد، وفي وقت تلك الكروب، يأتيه الملك جبريل ومعه ملك الجبال ليأتمر بأمره، فإن أمره بشيء نفذه، حتى إن شاء أن يطبق على أهل مكة الجبلين المحيطين بها، وإطباقهما يعني دمار مكة بما فيها ولكنه ﷺ يعفو، ويتجاوز آلامه ما يعتلج في نفسه من الأسى، على أمل أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله.. وذلك هو العفو بأجلى صوره والصفح الجميل بأوضح معانيه.

وأما صفة الصبر: فقد أمره الله -تعالى- بها في أكثر من أربع عشرة آية قال -تعالى-: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ [غافر: ٥٥]، إنه -صلوات الله وسلامه- عليه لابد له من الصبر، وهو صبر منوع فمنه الصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر

على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، ومضاضة الإعراض. إلى غير ذلك من أمور كثيرة تحتاج إلى صبر وقد صبر نبينا ﷺ وصابر، وكانت آيات الصبر بمثابة محطات تقوية في درب الدعوة الطويل وكان -صلوات الله وسلامه عليه- متواضعًا عادلًا بل كان يقيد ﷺ من نفسه -يعني يأمر غيره بأن يأخذ حقه منه- وذلك أعلى درجات العدل.

أخرج أبو داود، عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: بينما رجل من الأنصار يحدث القوم، وكان فيه مزاح، بينا يضحكهم، فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود، فقال الرجل: أصبرني، أي: أعطني حقي منك. فقال: (اصطبر). قال الرجل: إن عليك قميصًا وليس عليَّ قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه، فاحتضنه الرجل، وجعل يقبل كشحه، وقال: (إنما أردت هذا يا رسول الله) رواه أبو داود، والكشح هو: ما بين السرة ووسط الظهر.

وكان - صلوات الله وسلامه عليه - يثني على أصحابه ويشجعهم، ويدخل السرور عليهم قال نبينا ﷺ: (أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أمينًا،

وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح) رواه ابن ماجه، وقال لجعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أشبهت خَلْقي وخُلُقي) رواه الإمام أحمد.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يتأثر بشدة لمقتل أصحابه فلم يكن شيءٌ أثقلَ ولا أشدَّ ولا أشقَّ على نفس رسول الله ﷺ من رؤية أصحابه وقد استشهدوا، سواء في معركةٍ مواجهةٍ مع عدو، أو بغدر بعض المشركين بهم.

وكان - عليه الصلاة والسلام - يعامل الشهداء من المسلمين وأهل الفضل والدعوة إلى الله الذين يموتون في سبيل الإسلام بكل تقدير وتعظيم، وبكل تأثر وأسى.

وكان لا ينسى أن يظهر فضلهم وأن يقلدهم أرفع الأوسمة المعنوية، ويشهد لهم بأعلى الدرجات الإيمانية، وهو يودعهم الوداع الأخير في الدنيا. وانظر إليه وهو يبارك استشهاد حنظلة الغسيل، أو وهو يرى جثة عمرو بن الجموح بعد استشهاده، أو وهو يحمل سعد بن معاذ إلى قبره، أو وهو ينقل إليه خبر غدر المشركين بأصحابه يوم بئر معونة، أو وهو يواسي أم حارثة بموت ولدها... انظر إليه في هذه المواطن - وفي غيرها - تجده عظيم الحزن، شديد التأثر، بالغ الاعتزاز، برفع أقدار هؤلاء الرجال الذين فدوا الإسلام، ودافعوا عنه بأرواحهم ودمائهم، قال عن حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن صاحبكم تغسله الملائكه) رواه الحاكم، وقال عن

عمرو بن الجموح رضي الله عنه: (لقد رأيته يخوض الجنة بعرجته) رواه ابن حبان، وقال عن سعد رضي الله عنه: (اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ) رواه البخاري ومسلم.

وقال عن المقتولين غدرًا يوم بئر معونة: (إن إخوانكم قد قتلوا فقالوا: اللهم بلغ عنا نبيك أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا) رواه مسلم، وقال لأم حارثة: (إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى) رواه البخاري.

ولما استشهد في أحد عبد الله بن حرام والد جابر أخذ جابر وعمته يبكونه وهو ممدد على الأرض فقال ﷺ: (أبكوه أو لا تبكوه فإن الملائكة لم تزل تظله حتى رفعتموه) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

كم نحن بمسيس الحاجة إلى معرفة أخلاق نبي الله ﷺ وشمائله لنحبه ولنتأسى به.

إن من أخلاقه الصدق: فهل يليق بالمسلم الذي رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا أن يكذب؟ كلا.

ومن أخلاقه: الوفاء والأمانة في كل شيء في اختيار من يقوم بالعمل وفي الودائع، وفي حفظ السر، وفي المشورة، وفي الإيمان بالله - عز وجل -، وما يترتب عليه من عبادات.

ومن صفاته: الشجاعة و النجدة في القتال وفي غير القتال، ومن صفاته الجود والكرم ومنه الإيثار بل كان يتصف - صلوات وسلامه عليه - بما فوق الإيثار.

ومن صفاته: التواضع، والرحمة، والشفقة، والحلم، والعفو، والصبر، والعدل، والورع، والقناعة، وحسن التصرف إلى غير ذلك من الصفات الحميدة، وكفى بتزكية الله له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

***

وقفات حول خطبة حجة الوداع في عرفات

أيها المسلمون:

لقد امتن الله ﷻ على بعض المسلمين بحج بيت الله الحرام، حيث طاف وسعي، ووقف بعرفات، وبات بمزدلفة، ورمى الجمرات، وحلق رأسه، وذبح هديه، إلى غير ذلك مما يفعله الحاج في تلك الأماكن الطاهرات. لقد حج نبي هذه الأمة ﷺ حجة واحدة، عرفت بحجة الوداع، وخطب بعرفة خطبة مختصرة جامعة شاملة، وسوف نقف هذا اليوم بمشيئة الله مع هذه الخطبة، كان -عليه الصلاة والسلام- حريصًا على هذه الأمة، فلم تطب نفسه -عليه الصلاة والسلام- أن يدع هذا الموقف العظيم، أعني اجتماع الناس في عرفات، دون أن يستغله لتقرير تلك القواعد العظيمة، والأصول الجامعة وهذه القواعد ليست غريبةً على صحابة رسول الله ﷺ و رضي الله عنهم فقد خاطبهم بها مرات ومرات، ولكنه أكد عليها في صعيد عرفات لأهميتها ولأنه قد لا يراهم مرة أخرى بعد عامهم هذا، حيث كان يقول -صلوات الله وسلامه عليه-: (خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا) رواه النسائي. لقد ركب ﷺ ناقته القصواء، والآلاف المؤلفة تنظر إليه، وتشرئب الأعناق إلى حديثه، كلهم شوق إلى سماع خطبته العصماء، إنها درة مضيئة على جبين الزمان، فهي لم تستغرق سوى دقائق، ولكنها أهم

وأعظم من بيان يستغرق بضع ساعات، ولا غرابة ولا عجب في هذا، حيث يقول ﷺ: (بعثت بجوامع الكلم) رواه البخاري، وإليكم نصَّ الخطبة: ورد في صحيح مسلم وغيره أن النبي ﷺ خطب الناس في يوم عرفة فقال: (إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كلَّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماءُ الجاهلية موضوعةٌ، وإن أولَ دم أضعه من دمائنا دمُ ابن ربيعةَ بن الحارث بن عبدالمطلب - كان مسترضِعًا في بني سعد فقتلَته هذيل - وربا الجاهلية موضوعٌ كلُّه، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجَهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكَم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ولهن عليكم رزقُهن، وكسوتُهن بالمعروف؛ وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتابَ الله؛ وأنتم مسؤولون عنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلّغت رسالاتِ ربِّك، وأديتَ، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال بأصبعه السبابةِ يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد، اللهم اشهد).

اشتملت هذه الخطبة العظيمة على دروس كثيرة وفوائد جمة، فمن الدروس والفوائد التي تؤخذ منها:

<u>أولًا</u>: لقد خطب -صلوات الله وسلامه عليه- في جمعٍ كبير جدًا من الصحابة رضي الله عنهم قيل:

إنه يزيد عن مائة ألف حاج، سوى النساء والأطفال، ومع ذلك فقد سمعهُ جميع الحجاج وهذا فيه علامة من علامات نبوته ﷺ فمن الذي جعل هذا الجمعَ العظيمَ يستمع إلى هذه الكلمات العظيمة سوى ربِّ العالمين والله -سبحانه- قادر على كل شيء لا يعجزه شيء.

ثانيًا: أكد -صلوات الله وسلامه عليه- أن كلَّ أمر من أمور الجاهلية فهو موضوع تحت قدميه، يعني أنه مرفوض، فكلُّ أمر لم يقرّه الإسلامُ فهو باطل، وأمور الجاهلية كثيرة ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مائةَ مسألة من المسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ ما عليه أهلُ الجاهلية.

ثالثًا: تأكيدُ النبي ﷺ على صيانة الدماء وحرمتها، وقد كتب القصاص في القتل والجراحات لينزجر المجرمون، فعندما يعلم الإنسان أنه لاقٍ حتمًا المصيرَ الذي يوقعه بغيره في قتل هذا أو جرح ذاك، فإنه يكفّ عن جريمته، ولقد قيل: من أمِنَ العقوبة أساء الأدب، قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

رابعًا: تضمنت الخطبة المباركة التحذيرَ من أكل الربا، وإبطالَ ربا الجاهلية الذي أساسه إمهالُ المعسر، مقابلَ ثمن زائد قليلًا كان أو كثيرًا. إن أفظعَ تعامل أصيبت به الإنسانية، وأبشعَ وضعٍ تواطأ عليه أهلُ الجاهلية، هو الربا فكم له من ضحايا؟! وكم خرّب من بيوت؟! وكم

جلب من مصائبَ وبلايا؟! ولو لم يكن سوى أن آكله يحارب الله ورسوله لكفى، قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لعن رسول الله آكلَ الربا ومُوكلَه وشاهديه وكاتبه).

خامسًا: ولقد أكد النبي -صلوات الله وسلامه عليه - في خطبته تلك حقَّ المرأة، وأنها مثلُ الرجل، لها شأنها في المجتمع فهي تمثل نصف البشرية، ثم هي تلد النصف الآخر فتصير بذلك أمةً كاملة وقد كانت في الجاهلية مهانةً تعيسة ذليلة ممتهنة وجاء الإسلام بإكرامها ورفع منزلتها قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال -تعالى-: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (استوصوا بالنساء خيرًا). إنه لا يجوز للرجل أن يستهينَ بالمرأة، أو يضيع حقوقها، روى الإمام أحمد وأبو داود، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل له: يا رسول الله ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: (أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضربْ الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجر، إلا في البيت).

المرأة في الإسلام معززة مكرمة، سواءً أكانت أمًا أو زوجة أو بنتًا أو قريبة للإنسان، وقد ورد في الحديث الصحيح أن رجلًا جاء إلى النبي

ﷺ فقال: يا رسول الله مَنْ أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك قال: ثم من؟ قال: أمُّك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أبوك) رواه البخاري ومسلم، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول ﷺ: (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله) رواه البخاري ومسلم، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضمّ أصابعه) رواه مسلم.

سادسًا: ولقد أكد نبي الله -صلواته وسلامه عليه- على الاعتصام بكتاب الله، حيث أنزله الله تعالى للعمل به، وتدبره، وتحكيمه، فليس القصد منه منحصرًا في افتتاح الحفلات أو الإذاعات أو قراءته في المناسبات، أو وضعه في السيارات، أو حروزًا على صدور الأطفال، كلا !! فالمقصود العمل والتطبيق، والوصية بالقرآن يدخل معها الوصية بالسنة؛ لأن الله -تعالى- قال في محكم كتابه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣ـ٤].

***

من الشمائل المحمدية

أيها المسلمون:

عندما أرسل الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ أيقظ به الضمائر، ونوّر به البصائر، وطهّر به السرائر، وأزال من النفوس الأحقاد والبغضاء، وعمّر القلوب بالمحبة والصفاء، والحرية والإخاء، ولقد تعرض للأذى من أقربائه وقومه. ذكر ابن هشام رحمه الله في السيرة، أن زوجة أبي لهب كانت تضع القذر والشوك في طريقه وعند بيته، وكان يسكن بجوارها فكان لا يزيد على أن يقول: يا بني عبد مناف أيّ جوار هذا؟! ويزيل الشوك والأذى من أمام بيته، وعندما أنزل الله في أبي لهب وزوجته سورة المسد حملت حجرًا كبيرًا، وجاءت المكان الذي يجلس فيه النبي ﷺ جهة الكعبة المشرفة، فلم تبصر غير أبي بكر مع أنه -عليه الصلاة والسلام- بجواره فقالت: أين محمد؟ يا أبا بكر أيذمني؟ والله لو رأيته لقتلته بحجري هذا، ثم انصرفت فقال -عليه الصلاة والسلام- كان يسترني منها ملك بجناحه. ذكره ابن كثير في تفسيره.

لقد كان -صلوات الله وسلامه عليه- مثالًا للأخلاق والآداب ويكفي أن الله ﷻ امتدحه بالأخلاق ووصفها بالعظمة حيث يقول تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ويقول ﷺ: فيما رواه مالك في

الموطأ وأحمد في المسند: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، ويقول أنس بن مالكَ رضي الله عنه: (فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها، وأمرنا بها، ولم يدع غشًا أو عيبًا إلا وحذرنا منه ونهانا عنه)، وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (كان لا ينتقم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا إلا أن يجاهد في سبيل الله)، ويقول عبدالله بن الحارث رضي الله عنه: (ما رأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله)، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كنا إذا حمي الوطيس، واحمرت الحدق نتقي برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أقربَ إلى العدو منه)، وتقول عائشة رضي الله عنها: (ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: لبيك)، ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (كان إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرف وجهه). إن هذه الأخلاق العظيمة والخصال الحميدة، جعلته يرتقي ويسمو إلى منازل عظيمة عند الله - جل جلاله - وعند الناس.

أيها المسلمون:

ولقد بلغ من فضل النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه أن جعل طاعته طاعة لله،

حيث يقول -تعالى-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، وبلغ من فضيلته أن رفع الله -سبحانه- ذكره عبر الدهور حتى الذين في أقاصي الدنيا، إذا سمع أحدهم ذكر اسمه بكى وصلى عليه قال الله -تعالى-: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: ٤]، وبلغ من فضيلته عند ربه أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوه وهم بين أطباقها يعذبون، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦]، وبلغ من فضيلته عند ربه أن جعل اتّباعه علامةً على محبة الله -سبحانه-: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٣١]، لقد كان حب الصحابة له ﷺ عظيمًا، فقد سئل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كيف كان حبكم لرسول الله؟ قال: كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا، وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ)، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع أحببت، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فما فرحنا بشيء بعد الإسلام فرحًا بمثل قول النبي ﷺ أنت مع من أحببت، فأنا أحب محمدًا وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم) رواه البخاري ومسلم، لقد كان حبهم لرسول الله ﷺ كثيرًا، ويشتد شوقهم إليه، وتدب في حنايا قلوبهم وضلوعهم نار المحبة، كلما تذكروا نبيهم، وكان الواحد منهم إذا اقترب أجله وحان

موته، يفرح ويستبشر لأنه سيلقى حبيبه الكريم فهذا بلال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حينما حضرته الوفاة صاحت امرأته فقال: واطرباه، وافرحتاه، غدًا ألقى الأحبة، محمدًا وصحبَه. وذكر الإمام ابن كثير في تفسيره عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو محزون؟ فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يا فلان مالي أراك محزونًا؟ فقال يا نبي الله شيء فكرت فيه فقال ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدًا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يردَّ عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، فبعث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه فبشَّره، وعن عائشة -رضي الله- عنها قالت: (جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقال يا رسول الله: إنك لأحب الناس إليَّ من نفسي وأحب إليَّ من أهلي وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكُرُك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك] فلم يرد عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزلت عليه (ومن يطع الله والرسول...) إلى آخر الآية، والحديث رواه الطبراني وأبونعيم في الحلية.

***

فتح مكة

الحمد لله رب العالمين، أحمده على جزيل إنعامه وإفضاله، وأشكره على عظيم إحسانه ونواله، له الحمد على أسمائه الحسنى وصفاته العلا، وله الحمد في الآخرة والأولى، يغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشافي مريضًا، ويعافي مبتلى، ويهدي ضالًا، ويرد غائبًا، ويتوب على تائب، ويغفر لمستغفر، ويستر على مذنب، ويتجاوز عن مسيء، ينصر مظلومًا، ويغيث ملهوفًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويفرج كربًا، ويكشف سوءًا، ويزيل همًّا، ويذهب غمًّا، ويردع ظالمًا، ويهزم عدوًّا، يخلق خلقًا، ويهب رزقًا، وينشئ سحابًا، وينزل غيثًا، ويرسل رياحًا، ويطعم جائعًا، ويسقي ضمآنًا، ويكسي ويؤوي، ويؤي شريدًا، يسعد ويشقي، ويضحك ويبكي، ويسر ويحزن، ويعطي ويمنع، يعلم السرائر، ويطلع على الضمائر، ويحيط بالأمور، لا غالب لحكمه، ولا راد لقضائه، لا ملجأ ولا منتجى منه إلا إليه، تقدس الكبير المتعال، تبارك ذو الجلال والإكرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله وأمينه على وحيه، أصدق الناس لهجة، وأبرهم قلبًا، وأشرحهم صدرًا، وأعظمهم حلمًا، وأسدّهم رأيًا، وأقواهم بصيرة، وأحسنهم هديًا، وأجملهم طريقة، وأتقاهم نفسًا، وأنقاهم سريرة، وأبينهم خطابًا، وأثبتهم جنانًا، وأسلمهم

جانبًا، وأرضاهم سجية، وأعدلهم حكمًا، وأوصلهم رحمًا، وأطهرهم عرضًا، وأكرمهم يدًا، وأظهرهم حجة، وأمضاهم عزيمة، وأنبلهم سجية، وأعرقهم نسبًا، وأفضلهم حسبًا، وأوسطهم طريقة، وأوضحهم مذهبًا، وأجلهم قدرًا، وأعزهم فخرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون: في هذا الشهر الكريم فتح الله بلده الأمين على رسوله ﷺ وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ونصر جنده وهزم عدوه.

أيها المسلمون:

لقد صالح رسول الله ﷺ قريشًا وعاهدهم أن لا يحاربوه ولا يحاربوا أتباعه ولقد كان ذلك في صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ولكن المشركين لم يستمروا على الوفاء بهذا العهد سوى سنتين فلقد اعتدوا على قبيلة خزاعة المسلمة فبعثت خزاعة رجلًا يستنجد برسول الله ﷺ ويعلمه عن صنيع قريش وغدرها وكانت إجابة المصطفى ﷺ: (نصرت يا عمرو بن سالم)، ولقد عرفت قريش جرمها، وأحست بخطئها فأرسلت زعيمها أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليؤكد العهد ويزيد في المدة ولما وصل أبو سفيان المدينة قصد منزل ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فلما هم بالجلوس على فراش نبي الله طوته عنه فتعجب من تصرفها وقال: يا بنية أرغبت بي عن الفراش أم

رغبت به عني؟ فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه!! لقد كان جوابها صدمة عنيفة لم يفق منها حتى قال: يا بنية والله لقد أصابك بعدي شر. ذكر القصة ابن حجر في الإصابة، وابن عساكر في التاريخ، وابن سعد في الطبقات، وخرج مغضبًا وكلم رسول الله وأبا بكر في إطالة المدة فلم يجد منهما نتيجة ثم أتى عمر فكلمه فقال له عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! فو الله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به فخرج من عنده، وأتى عليًّا فلم يجد عنده ما طلب فرجع إلى مكة من حيث أتى ودون أن يحقق ما كانت تصبو إليه قريش من الالتزام بالعهد، وإطالة المدة فلقد عزم نبي الله ﷺ على تأديب قريش مع حقن الدماء. لقد خرج في اليوم العاشر من شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة متوجهًا إلى مكة لفتحها وخرجت معه جموع كثيرة يبلغ عددها عشرة آلاف رجل وقال ﷺ: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها). لقد كان -عليه الصلاة والسلام- حريصًا على ألاَّ تسفك الدماء، وأن تفتح مكة من دون إراقة دم، وإزهاق نفس، ولقد خرج العباس عم النبي ﷺ من مكة مسلمًا ومهاجرًا فلقي النبي برابغ أو بالجحفة وأسلم فسر بإسلامه رسول الله ﷺ غاية السرور، كما خرج من مكة أبو سفيان ولقي النبي ﷺ وأسلم بعد تلكأ، ولقد أعجب أبو سفيان بطاعة الصحابة لرسول الله ﷺ حيث

إنه لم يأمرهم بشيء إلا فعلوه فقال له العباس: لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه. لقد قال العباس لرسول الله ﷺ: إن أباسفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا فرأى النبي ﷺ أن يكون هذا الشيء ما يتعلق بحقن الدمـاء، ونشر الأمان، وأن لا يقتصر على أبي سفيان حتى يأمن أكثر عدد من الناس فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ورأى رسول الله أن يوقف أبا سفيان حتى تمر به جنود الله كتائب جيش المسلمين ليرى قوة المسلمين فقال ﷺ لعمّه: (يا عبّاس احبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها فمرت به القبائل على راياتها قبيلة قبيلة، ثم مرّ رسول الله في كتيبته الخضراء يحيط به المهاجرون لا يُرى منهم إلا الحدق، أي: الأعين من الحديد حيث لبسوا عدة الحرب من الدروع والتروس وما شاكلها، وكان يحمل راية المسلمين الزبير بن العوام. فقال أبو سفيان سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال العباس هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل يعني العباس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا، فقال العباس: إنها النبوة. قال: نعم إذًا، لقد رجع أبو سفيان إلى مكة مسرعًا حتى إذا وصلها نادى بأعلا صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ! فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقالوا: وما تغني عنا دارك؟ فقال ومن

أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد إلا من غلبت عليه الحمية وصمم على القتال.

لقد أثرت معاملة النبي ﷺ لأبي سفيان أثرًا كبيرًا فبعد أن كان من أقوى المحاربين ضد الإسلام وأهله أصبح من أعظم المحذرين لقومه من قتال النبي ﷺ وكان في مقدمة الداخلين في دين الله وهو الذي لم يخرج جيش من مكة لحرب رسول الله ﷺ إلا بإشرافه وتوجيهه، يذكر عن أبي سفيان أنه لم يرفع رأسه إلى رسول الله منذ أن أسلم حياءً منه ولقد شهد له نبي الله بالجنة، وكان يحبه وقال: أرجو أن يكون خلفًا من حمزة، ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا علي فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت. ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد.

لقد دخل النبي ﷺ مكة متواضعًا، دخلها وهو راكب ناقته ومطأطئ رأسه حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعًا لله وشكرًا له وتعظيمًا حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح وكان دخوله مكة فاتحًا في صبيحة اليوم الحادي والعشرين من رمضان لقد دخلت كتائب الرحمن مكة من أسفلها ومن أعلاها فلم تلق مقاومة تذكر إلا ما كان من مجموعة لم يرضوا بالاستسلام دون أن تراق الدماء فتعرضوا لجيش خالد بن الوليد ثم تفرقوا بعد أن فقدوا ثلاثة عشر رجلًا ومن هؤلاء الذين غلبت عليهم الحمية حماس بن قيس كان يعد سلاحًا قبل مقدم

كتائب الرحمن. فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ فقال: لمحمد وأصحابه. فقالت: والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء. فقال: والله إني لأرجو أن أخدِّمك بعضهم، فلما شهد الوقعة مع أصحابه وهزموا جاء لاهثًا وهو يقول لامرأته: أغلقي علي بابي. فقالت: فأين ما كنت تقول؟

لقد قصد رسول الله الكعبة المشرفة فطاف بها سبعة أشواط، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا مشدودًا إليها فصار يطعنها - صلوات الله وسلامه عليه - بعود في يده وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١]، فجعلت الأصنام تتهاوى وتسقط إلى غير رجعة وأمر النبي ﷺ بلالًا أن يؤذن فوق الكعبة مما أهاج غيظ المتعصبين من المشركين حتى لقد قال بعضهم: الحمد لله الذي توفى فلانًا قبل أن يرى هذا العبد الأسود على ظهر الكعبة. ووقف رسول الله على باب الكعبة وقد تكاثر الناس في المسجد وأوجس المشركون خيفة، وكادت تغص حلوقهم بقلوبهم من شدة الخوف وصارت أبصارهم مشدودة إلى الرسول الكريم ولكن المظلوم المنتصر أبى إلا أن يضرب لهم مثالًا نادرًا في العفو فقام النبي ﷺ خطيبًا وكان مما قال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال: أقول لكم ما قال

يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء). ألا ما أجمل العفو عند المقدرة ! وما أعظم النفوس التي تسمو على الأحقاد وعلى الانتقام ! بل تسمو على أن تقابل السيئة بالسيئة ولكن تعفو وتصفح والعفو عن من؟ عن قوم طالما عذبوه وأصحابه وحاربوه طوال إحدى وعشرين سنة؛ إن غاية ما يرجى من مظلوم ينتصر أن يقتص من غير إسراف في إراقة الدماء ولكنه ﷺ ضرب بعفوه عن أهل مكة للدنيا كلها وللأجيال المتعاقبة مثلًا في البر والرحمة والعدل والوفاء لم تعرفه الدنيا ولن تعرفه في تاريخها الطويل.

أيها الناس:

وفي عالم اليوم تقف الشحناء والبغضاء سدًا منيعًا يحول بين المسلمين والأخوّة على مستويات عدة فالأفراد بعضهم مع بعض، والأسر فيما بينها، والمجتمعات المسلمة لقد أثرت الشحناء على قلوب المسلمين فكدرت صفوها فهل لنا أن نتأسى بهذا المعلم الجليل فنصفي قلوبنا من أحقادها، ونعلن الصفح والعفو عن كل من أساء إلينا. إن القلوب تحتاج إلى تصفية لكي تثمر المحبة والمودة فهل نستجيب؟ وهل نعمل؟ وهل نتذكر؟

أيها المسلمون:

وبعد الفتح جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة يقوده وقد كف بصره فلما رآه رسول الله ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: (هلّا تركت

الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه)، فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه فأجلسه المصطفى بين يديه ثم مسح صدره وقال: أسلم فأسلم وهنأ رسول الله ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه. وممن أسلم فضالة بن عمير: حدثته نفسه أن يقتل رسول الله وهو يطوف بالبيت بعد ما دخل مكة ودنا منه قال له الرسول ﷺ: أفضاله؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال ﷺ: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء كنت أذكر الله فضحك النبي ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه.

وممن أسلم عكرمة بن أبي جهل وقد حارب المسلمين حتى عند دخولهم مكة؛ كان عدوًّا لدودًا للإسلام وأهله فجعل النبي ﷺ دمه هدرًا مع عدد من المشركين حيث أمر بقتلهم ولو وجدوا بأستار الكعبة لعظم جرائمهم في حق الله - تعالى - وحق رسوله ﷺ ومع ذلك عفا عن بعضهم وقد هرب عكرمة قاصدًا اليمن عند ما علم بإهدار دمه فأخذت له زوجته أمانًا من رسول الله ﷺ وكانت قد أسلمت قبل الفتح فلحقت بزوجها قبل أن يركب البحر وقالت جئتك من عند أبر الناس وخيرهم وإني قد استأمنته لك فرجع معها فلما رآه رسول الله وثب قائمًا فرحًا به وقال: (مرحبًا بمن جاءنا مسلمًا مهاجرًا) لقد أسلم وحسن

إسلامه وكان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ من أبطال الفتوحات الإسلامية. وممن أسلم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وكانت شديدة العداوة على المسلمين لقد اختفت بعد الفتح ثم جاءت إلى النبي ﷺ مسلمة فقالت: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.

لقد أقام النبي ﷺ بمكة بعد الفتح تسعة عشر يومًا، وفي هذه المدة أرسل النبي ﷺ بعض أصحابه رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ للدعوة إلى الإسلام وهدم الأصنام والأوثان، ذكر ابن سعد (في الطبقات) عن عثمان بن طلحة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ﷺ يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلقت دونه ونلت منه فحلم عني ثم قال: (يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدي أضعه حيث شئت فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت فقال: بل عمرت وعزت يومئذ ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعًا ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إلي وقال: (خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف) قال: فلما وليت عنه ناداني فرجعت إليه فقال: (ألم يكن الذي قلت لك) قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة لعلك

سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

أيها المسلمون:

لقد كانت كل غزوة من غزوات رسول الله ﷺ تمثل مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله وكان فتح مكة إيذانًا بدخول الناس أفواجًا في دين الله، ورد في صحيح البخاري: (وكانت العرب تلوح بإسلامهم الفتح ويقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم).

وإذا كانت الحديبية هي الفتح المبين كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١-٣]. فلأن عدد المسلمين كان في الحديبة ألفًا وستمائة تقريبًا فارتفع هذا العدد خلال سنتين إلى عشرة آلاف أيام فتح مكة وبعد الفتح ارتفع عدد المسلمين إلى مائة وعشرين ألفاً حيث حجوا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع. لقد كان فتح مكة إعلامًا للنبي ﷺ بنهاية أيامه في هذه الحياة الدنيا وعند ما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴿٣﴾ ﴾ [النصر: ١ – ٣] قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، إذا جاء نصر الله والفتح: فتح مكة فذلك علامة أجلك: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ﴾ [النصر: ٣]. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

أيها المؤمنون:

وبعد الفتح العظيم يظهر الشعور الكريم من الأنصار شعور الحب لرسول الله ﷺ خشية فراقه بعد أن فتحت بلده التي ولد وبعث فيها فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها؟ يقولون ذلك ورسول الله ﷺ على الصفا رافعًا يديه فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى أخبروه. فقال رسول الله ﷺ: (معاذ الله ! المحيا محياكم، والممات مماتكم) رواه مسلم.

***

الأيام الأخيرة لرسول الله ﷺ.

أيها المسلمون:

في تاريخ كل أمة عظماء تدرس حياتهم، وفي تاريخ الإنسانية عظماء كانت عظمتهم مستمدة من وحي الله - تعالى -، وعلى رأس هؤلاء نبينا محمد ﷺ الذي اختاره الله ليكون إمام الأنبياء وخاتمهم، وليكون نموذجًا للإنسان.

عباد الله: لقد كان بحق سيد ولد آدم، إليه ترجع المكارم، وإليه تنتهي الأخلاق. إن التعرف على سيرة النبي ﷺ أمر مهم للتعرف على الجهد الذي بذله في سبيل إيصال الرسالة إلى الناس لتكون محبتنا له ﷺ عن علم ووعي لا مجرد عاطفة. ولقد جعل الله رسوله ﷺ أسوةً حسنة، وألزم كل مسلم أن يسير على هديه، وأن يقتفي أثره.

المسلم الحق هو الذي لا يرضى لنفسه أن يقف من سيرة نبيه موقف المتفرج المشدوه، أو المعجب الموله ولكنه يتأسى ويقتدي. لقد خاطبنا الله من فوق سبع سماوات: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

أيها المسلمون:

في السنة العاشرة من الهجرة وفي أول شهر ذي القعدة أعلن رسول الله ﷺ عزمه على الحج وأمر الناس بالتجهيز لذلك ولقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع والظاهر أن الذي سماها بذلك رسول الله ﷺ ففي صحيح البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندري ما حجة الوداع. ولقد كانت هذه الحجة هي المعلم الذي يرجع إليه في أحكام الحج حيث كانت التطبيق العملي الواضح لأداء المناسك كما كانت إجابته ﷺ على أسئلة الناس إتمامًا لهذا البيان لقد انتهت أعمال الحج وعاد الرسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة وعاد الناس إلى مواطنهم ولعل القليل هم الذين أدركوا ما تعنيه هذه الحجة من اقتراب أجل النبي ﷺ لقد أقام - صلوات الله وسلامه عليه - في المدينة بقية ذي الحجة والمحرم من السنة الحادية عشرة للهجرة وصفر وفي آخر صفر أرسل ﷺ الناس لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما وانضوى تحت لواء الجيش كبار المهاجرين والأنصار يقودهم فتى يافع وهم لا يرون في ذلك غضاضة أو نزولًا بقدرهم لأنهم يبتغون رضوان الله - تعالى -.إن الطاعة لله وللرسول وأولي الأمر من المسلمين أمر حتمي، فُهم القصد أم لم يفهم

وعرفت الحكمة أم لم تعرف.

بدأ المرض برسول الله ﷺ واشتد به الوجع فقال: (أنفذوا جيش أسامة)، فلما ثقل رسول الله ﷺ توقف الجيش ينتظر ما يؤول إليه أمره - صلوات الله وسلامه عليه -.

لقد كان -صلوات وسلامه عليه- يشعر بدنو أجله قال لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: (يا معاذ عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري) رواه ابن حبان في صحيحه. فبكى معاذ لفراق رسول الله ﷺ. رواه الإمام أحمد، ثم كانت حجة الوداع بعد ذلك فكان يردد -صلوات الله وسلامه عليه- وهو يقوم بأعمال الحج: (خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا) رواه مسلم، وكانت خطبته في الحج تشير إلى ذلك حيث كان يقول ﷺ: (يا أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا) ذكر ذلك ابن إسحاق، ولقد قال لابنته فاطمة: (إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين وما أراه إلا حضر أجلي) رواه البخاري ومسلم، والمعارضة معناها: القراءة عليه، وعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال: (يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام

عليكم يا أهل المقابر ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها الآخرة شر من الأولى ثم أقبل علي فقال: يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقائي ربي والجنة). فقلت: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها؛ ثم الجنة قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة ثم استغفر لأهل البقيع، رواه الإمام أحمد، ثم انصرف فبدأ رسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه)، ودخل النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها فوجدها تشكي صداعًا وتقول: وارأساه فقال: بل أنا يا عائشة وارأساه، ثم قال لها: وما عليك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟ فقالت: لكأني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه بإحدى نسائك قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ثم بدئ بوجعه الذي مات فيه. الحديث حسّنه الألباني في إرواء الغليل.

وأخذ المرض يشتد ورسول الله ﷺ ينتقل بين بيوت أزواجه وكان يسأل في مرضه الذي مات فيه يقول أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ قالت: عائشة لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له فخرج وهو بين رجلين تخط رجلاه في الأرض وكان الرجلان: هما عباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وفي يوم من الأيام زارته ابنته فاطمة فرحب بها وأجلسها بجانبه ثم أسر إليها

شيئًا فبكت، ثم سارها ثانيًا فضحكت فسألتها عائشة عن ذلك فأجابت بأنه سر ثم أخبرت فيما بعد أن النبي ﷺ أعلمها بقرب أجله وأمرها بالتقوى، والصبر فبكت، ثم أخبرها أنها: (أول أهله لحوقًا به، وأنها سيدة نساء أهل الجنة فضحكت) رواه البخاري ومسلم.

واشتد به المرض حتى منعه من الخروج للصلاة فقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)، قالت عائشة قلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثًا فقال: (ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف).

وفي يوم الخميس قبيل وفاة رسول الله ﷺ بأربعة أيام عزم -صلوات الله وسلامه عليه- الخروج إلى الناس كي يوصيهم ويخطبهم وأمر أن يصب عليه الماء لعله أن يخفف وطأة الحمى -بإذن الله- فخرج على الناس وهم يصلون الظهر وهو متكئ على رجلين فلما رآه الصديق أراد أن يتأخر فأومأ إليه أن مكانك ثم جلس إلى جنب الصديق فجعل أبو بكر يصلي بالناس قائمًا والرسول يصلي وهو قاعد وكانت هذه آخر صلاة صلاها رسول الله مع المسلمين ثم صعد المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا وكان مما قال:

(إن عبدًا خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عنده)

رواه ابن حبان. ففهمها أبو بكر فبكى وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا، وأموالنا، وأبنائنا، فعجب الناس لبكائه فكان المخير هو رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمهم بذلك فقال رسول ﷺ: على رسلك يا أبا بكر: أي تمهل في البكاء حتى لا يسترسل الناس في البكاء. ثم قال ﷺ: إن أحسن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلة الإسلام ومودته لا يبقى باب في المسجد إلا سد إلا باب أبي بكر؛ وكان مما قاله: ألا فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليقتد، ومن كنت أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء من قبل رسول الله ﷺ ألا وإن الشحناء ليست من شأني ولا من خلقي وإن أحبكم إليَّ من أخذ حقًا إن كان له علي أو حللني فلقيت الله عز وجل وليس لأحد عندي مظلمة) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

ألا فلتشهد الدنيا إلى أي حدٍ وصل عدل الحاكم مع المحكومين وإلى أي حدٍ بلغت المساواة؟ وبلغ الاعتراف بالجميل لذويه والإقرار بالفضل لأهله؟ وهل بعد هذا يدعي مدع أو يزعم زاعم أن أحدًا أحق بالخلافة من أبي بكر رضي الله عنه.

معشر المسلمين:

ثم اشتدت الحمى برسول الله حتى قال له أبو سعيد الخدري: والله لا أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك فيجيبه: (إنا معشر الأنبياء

يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر) رواه الإمام أحمد.

وفي هذه الشدة كان يقول:(اللهم أعني على سكرات الموت)، وكان كلما أفاق من غشيته قال: (اللهم الرفيق الأعلى)، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلما سمعته يقول ذلك وقد أدركته بحة علمت أنه اختار الآخرة على الدنيا. رواه البخاري.

وفي صبيحة الاثنين والصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بالناس الفجر كشف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستر الحجرة فنظر إليهم وهو قائم على حال حسنة ثم تبسم لما رأى من اجتماعهم على رجل واحد وتآخيهم فرجع أبو بكر على عقبه ظنًا منه أن رسول الله يريد أن يخرج إلى الصلاة وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر فكان هذا آخر عهده بالمسلمين.

لقد كانت هذه الإفاقة هي الصحوة التي تسبق الموت ودخل أسامة بن زيد ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقدر على الكلام فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعرف أنه يدعو له وأخذت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسندته إلى صدرها بين رئتها ونحرها فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده سواك فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إليه فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: آخذه لك فأشار برأسه أن نعم فأخذته من أخيها ثم مضغته ولينته

وناولته إياه فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك وكل ذلك وهو لا ينفك عن قوله: (في الرفيق الأعلى)، والرفيق الأعلى: هم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، وقيل: الملائكة وقيل: غير ذلك.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إن من نعم الله علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، والسحر: الرئة، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته.

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما ثقل النبي ﷺ جعل يغشاه الكرب. فقالت فاطمة: واكرب أبتاه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم فلما مات ﷺ قالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه) رواه البخاري.

فلما اشتد الضحى من يوم الاثنين فاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، وورَّث هداية وإيمانًا وشريعة عامة خالدة، وكانت وفاته في أول ربيع الأول، عن عمرو بن الحارث قال: (ما ترك رسول الله دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة) رواه البخاري، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير) رواه البخاري، وكان عمره

ﷺ يوم وفاته ثلاثًا وستين سنة كما في صحيح البخاري، وفي يوم الثلاثاء غُسل النبي ﷺ وتم تجهيزه وصلى عليه الصحابة أرسالًا حيث لم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد ثم دفن في وسط الليل ليلة الأربعاء في مكان فراشه، روى البخاري أن فاطمة بنت رسول الله قالت لأنس: (يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب)، وروى الإمام أحمد عن أنس قال: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء. لقد حملت رسول الله إلى قبره الأكف المحبة له التي طالما وقفت دونه في حياته مدافعة عنه مؤيدة له، ولكنها الآن تحمله مستسلمة لأمر الله فيه. فهنيئًا ثم هنيئًا لمن رضي الله عنهم ورضوا عنه وسحقًا سحقًا لمن أبغضهم وسبَّهم.

***

غزوة مؤتة دروس وعبر

أيها المسلمون: يقول الله -تعالى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ويقول -تعالى-: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ويقول -تعالى-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وفي الحديث الصحيح: (خير القرون قرني) رواه البخاري ومسلم. حاز صحابة رسول الله ﷺ قصب السبق، وبلغوا في الفضل والمعروف والعلم وجميع خصال الخير ما لم يبلغه أحد فلا مقام بعد مقام النبوة أعظم من قوم ارتضاهم الله لصحبة نبيه ونصرة دينه فكل علم وخير يصل إلى الناس فهو بسببهم فالسعيد من اتبع صراطهم واقتفى آثارهم فلقد نصروا الدين، ووطدوا قواعد الملة، وفتحوا القلوب والأوطان، وجاهدوا في الله حق جهاده، فرضي الله عنهم وأرضاهم وخلدهم التاريخ الموثوق خلد سيرهم وتضحياتهم فهم الرجال الذين تطيب بذكرهم المجالس وتحلو بقصصهم المنتديات. إن الرجال يوزنون وتقدر عظمتهم بمقدار ما يقدمونه للإنسانية من خير ورشاد وهداية وبما يمارسونه في واقع الحياة من مثل وقيم وسلوك:

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره ... هو المسك إن كررته يتضوع

إنه لا يعيبنا معشر المسلمين أن نعود إلى الوراء أكثر من أربعة عشر قرنًا لنستضيء بهذا القبس المشرق وبذلك النور الوهاج ونتعرف على هذه البطولات الخارقة والشجاعات النادرة فإن الكمالات والصفات الكريمة والخلال العظيمة لا تعرف الحدود ولا تغيرها السنوات ولا يعيبها مرور الزمان وإنما العيب يكمن في الإغراق في الشهوات والاشتغال باللذات والغفلة عن المعالي والرضا بالدون. إن أعداء الإسلام حريصون على أن يبعدوا المسلمين عن دينهم وسير أسلافهم وتضحياتهم نعم إنهم حريصون على إبعاد أبناء المسلمين وتزهيدهم في البطولات التي سطرها أسلافهم فكان لزامًا على المربين والمصلحين أن يعنوا بتاريخ أمتهم وأن يقدموا نماذج منيرة للفتيان والفتيات بأساليب جديدة كي يملأوا قلوبهم حبًا لعظماء أمتهم ورغبة في الاقتداء والتأسي بهم.

والله أسأل أن يفتح على أبناء المسلمين في كل مكان وأن يردهم إلى دينهم ردًا جميلًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أيها المسلمون: في هذا اليوم المبارك نقف مع إحدى معارك الإسلام الفاصلة والتي بذل فيها أصحاب رسول الله ﷺ وقتهم وأموالهم ومهجهم رخيصة في سبيل الله، وكان لهذه المعركة أثر عظيم في تاريخ الإسلام إنها معركة مؤتة، وكان حدوث هذه المعركة في شهر جمادى الأول من السنة الثامنة من هجرة النبي المصطفى ﷺ.

ولهذه الغزوة أسباب منها:

أن الرسول ﷺ كان قد أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى بالشام من جهة ملك الروم هرقل وهو الحارث الغساني يدعوه في هذا الكتاب إلى الإسلام وقد بعث -عليه الصلاة والسلام- كتبًا إلى ملوك العالم وأمراء العرب بعد صلح الحديبية فلما وصل الحارث إلى مؤتة قال له أحد الأمراء العرب التابعين لقيصر الروم وهو شرحبيل بن عمرو: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم فأوثقه وضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه الأمر إذ لم يقتل له رسول غيره وكان وقع هذه الإهانة شديدًا على المسلمين فعزموا على الاقتصاص للحارث، وعلى زلزلة الوالي الآثم الذي صنع ما صنع لحساب الروم بالإضافة إلى أن نصارى العرب في الشام قتلوا خمسة وعشرين من دعاة الإسلام الذين دخلوا الشام سلمًا من أجل الدعوة إلى الله والسبب الثالث: أن الأمير الحارث الغساني هدد بغزو المدينة بعد قتل السفير المسلم فهذه الأسباب الثلاثة والله أعلم جعلت نبي الله ﷺ يتخذ هذا القرار.

لقد تجهز المسلمون في جيش بلغت عدته ثلاثة آلاف وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وأمَّر النبي ﷺ عليهم زيد بن حارثة، وأوصاهم إن أصيب زيد فليؤمروا جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فليؤمروا عليهم عبد الله بن رواحة، وكأنه -صلوات الله وسلامه عليه- لديه شعور

وإحساس باستشهادهم وطلب ﷺ من القائد زيد أن يأتي مكان قتل الحارث الأزدي وأن يدعو من هناك من الروم إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فليستعن بالله وليقاتلهم. وفي أثناء وداع الرسول ﷺ وصحبه للجيش بكى ابن رواحة فقيل له ما يبكيك يا ابن رواحة؟ قال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها أي رغبة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرؤ هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، قال ابن رواحة: لست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون صحبكم الله وردكم إلينا صالحين. وتخلف ابن رواحة لصلاة الجمعة فقال له - عليه الصلاة والسلام -: (لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها) رواه البخاري ومسلم، وفي رواية للترمذي: (لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما أدركت غدوتهم صبيحة يوم جمعة)، وانطلق الجيش من المدينة إلى أطراف الشام فلما وصل المسلمون إلى (معان) بلدةٌ في الشام، عرفوا أن في انتظارهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من نصارى العرب؛ لأن أخبار خروج جيش المسلمين وصلت إلى الروم قبل أن يصلهم المسلمون وعلى هذا فإن المسلم الواحد يقابل سبعين من الروم فأقام المسلمون بمعان ليلتين يتشاورون فقال ابن رواحة رضي الله عنه مشجعًا لهم يا قوم: (والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون أي الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين: إما ظهور وإما

شهادة)، وكان لهذه الكلمة أثرها فقرر المسلمون القتال مهما كانت النتائج!!!

عن أبي هريرة ﵁ قال: (شهدت مؤتة فلما دنا المشركون رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب فبرق بصري فقال لي ثابت بن الأرقم ﵁: يا أبا هريرة كأنك ترى جموعًا كثيرة قلت: نعم. فقال له ثابت: إنك لم تشهد بدرًا معنا إنا لم نصر بالكثرة)، والتقى الجمعان في حرب ليست متكافئة لقد قاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى قتل، وتلقف الراية من بعده جعفر بن أبي طالب ﵁ فقاتل حتى قتل، ثم حمل الراية عبد الله بن رواحة، وقد أيقن بالمصير الذي صار إليه صاحباه فقال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ... هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلي فعلهما هديت

وهو يقصد زيدًا وجعفرًا ﵄، ثم تقدم وجاءه ابن عم له بقطعة لحم فناولها إياه وهو يقول: شد بها صلبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فما كاد يقطع منها مضغة حتى سمع الحرب في ناحية الجبهة فقال لنفسه: وأنت في الدنيا ورمى بالطعام من يده ثم أخذ سيفه وتقدم حتى قتل ثم اتفق المسلمون على أن يؤمروا خالد بن الوليد وكانت هذه الغزوة أول معركة يحضرها في الإسلام؛ وما زال يستعمل دهاءه ويغير ترتيب الجيش ويجعل مجموعة تثير صخبًا وضجيجًا

ليتوهم العدو أنها مدد للمسلمين حتى أنقذ الجيش المسلم من الفناء ثم عاد به إلى المدينة بأقل الخسائر؛ وقد أطلق رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد في هذه المعركة: (سيف الله)، روى البخاري رحمه الله عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال: (اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وما ثبت في يدي سوى صفيحة يمانية)، فرضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ الذين بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ونسأل الله، أن يرزقنا حبهم والاقتداء بهم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أيها المسلمون:

لقد اشتملت غزوة مؤتة على دروس عظيمة وعبر؛ فمن تلك الدروس العظيمة في هذه الغزوة: الشجاعة النادرة والثبات العظيم اللذان اتصف بهما المجاهدون لقد تغلغل الإيمان في قلوب هؤلاء المجاهدين فثبتوا ثبوت الجبال وإلا فكيف يصمد هؤلاء القلة أمام زحوف الروم الكثيرة؛ لقد مضى على القتال في مؤتة ستة أيام وأصيب القادة الثلاثة في اليوم السادس وأخذ الراية خالد وأعاد التخطيط في اليوم السابع الذي هو نهاية المعركة فلقد استمرت المعركة سبعة أيام وكان يقابل المجاهد المسلم سبعون رجلًا من الروم، لقد كان كل شيء مادي يوحي أن الهزيمة ستلحق بالمسلمين وأن النصر مضمون للروم فثلاثة آلاف مهما بلغوا من شدة البأس والمراس والشجاعة لا يمكنهم

حسب المقاييس المادية أن يصمدوا أمام مائتي ألف ساعة واحدة فلابد لهم أن يقتلوا أو يؤسروا جمعيًا.

علمًا أن المسلمين غرباء وقد بعدوا عن قيادتهم مئات الكيلو مترات وقد أنهكهم السفر وأضناهم التعب؛ أما الروم فهم مائتا ألف يقاتلون في بلادهم وبالقرب من مركز قيادتهم وإمدادهم؛ لقد أثبت الجيش المسلم أن العامل الأساسي لكسب النصر هو العقيدة الصحيحة السليمة فهل علم المسلمون اليوم ذلك أسأل الله أن يرزق المسلمين الثقة بربهم وبدينهم حتى يكونوا أعزة مهابين؛ لقد استطاع خالد بن الوليد ﭬ أن ينسحب مع جيشه بسلام وانتظام دون أن يخسروا رجلًا واحدًا أثناء الانسحاب ودون أن يجرأ الرومان على ملاحقته وتعقبه مع علمهم أن عاصمة الجيش التي سوف ينسحب إليها تبعد حوالي ثمانمائة كيلًا وهي مزروعة بأناس يعادون هذا الجيش؛ سواء كانوا عربًا وثنيين أو نصارى فالله أكبر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين؛ بل كان جيش الروم فرحًا مسرورًا بهذا الانسحاب.

لقد ذكر المؤرخون أنه لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلًا خلال أيام المعركة السبعة. قال ابن كثير بعد ذكره لأسماء الشهداء: وهذا عظيم جدًا أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين يتبارزون ويتصاولون ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا وقد قتل من المشركين خلق كثير ثم يقول ابن كثير: وهذا مما يدخل في

قوله -تعالى-: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. انتهى.

إن معركة مؤتة معركة عجيبة سماها رسول الله ﷺ فتحًا، ورد في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم الخبر فقال: (أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، قال ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم). لقد واصل الجيش المسلم انسحابه من مؤتة في الشام حتى وصل المدينة دون أن يتعرض لأي مكروه ولكن راجت في المدينة شائعة تقول: إن عسكر الإسلام في مؤتة انهزم وفر وكان - عليه الصلاة والسلام - يدافع عن موقف أصحابه رضي الله عنهم لعلمه بالبطولات النادرة التي تفوق الوصف والتي قام بها جيش الإسلام في مؤتة فلما سمع من يقول عنهم بأنهم الفرار قال ﷺ: (ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله) ذكره ابن إسحاق.

أيها المسلمون: (لقد سمى أهل السير موقعة مؤته غزوة مع أن النبي ﷺ لم يحضرها لأن عدد المسلمين كان كثيرًا بخلاف السرايا التي لم يحضرها الرسول ﷺ فقد كان أفرادها قلائل).

ولقد كانت هذه الغزوة تمثل أول لقاء بين المسلمين والروم كان من أسبابه قتل رسول، رسول الله ﷺ وهو عمل عدائي في جميع الشرائع لهذا جهز النبي ﷺ هذا الجيش ليكون فيه إنذار للروم بقوة الدولة الجديدة واستعدادها للدفاع عن نفسها ولتكون نذيرًا بانتهاء استعبادهم للعرب الساكنين حدود الحجاز مع الشام.

ومن دروس المعركة أنه: عندما ذكر النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم خبر هذه الغزوة وذكر استشهاد القادة الثلاثة وبين المدينة والشام مسافات بعيدة تزيد عن ثمانمائة كيلًا يحتاج المسافر إلى شهر حتى يقطع هذه المسافة فهذا يدل على أن الله عز وجل قد زوى لرسوله ﷺ الأرض فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ما حدث أصحابه رضي الله عنهم به وهذه علامة من علامات نبوته - صلوات الله وسلامه عليه - كما يدل حديثه -عليه الصلاة والسلام- على مدى شفقته على أصحابه رضي الله عنهم وحرصه عليهم فلم يكن شيئًا قليلًا أن يبكي رسول الله ﷺ وهو واقف في أصحابه رضي الله عنهم يحدثهم عن خبر هؤلاء الشهداء مع العلم أن بكاءه لا يتنافى مع الرضا بقضاء الله وقدره فإن العين تدمع والقلب يحزن وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الإنسان عليها. لم يكن المقصود من هذه الغزوة الدخول إلى بلاد الشام وإنما كان الهدف

تأديب هؤلاء المعتدين الذين جاوزوا حدود الأدب في المعاملات الدولية فقتلوا سفيرًا يحمل إليهم رسالة فيها نجاتهم وسعادتهم؛ ولقد كان بوسعهم أن يردوا هذا السفير إلى بلده وكان بوسعهم أن لا يدخل دولتهم ولا يقبلوا منه الكتاب الذي معه أما أن يقتلوه ويفجعوا الدولة في رجل من رجالها من غير ذنب فهنا تكمن المشكلة والخطورة.

لقد كان الروم يعتقدون أن العرب لا يجرؤون على مواجهتهم عسكريًا وأنى لهم ذلك! وهم الضعفاء الفقراء ولكن الإسلام وهب للمسلمين قوة أغنتهم عن متع هذه الحياة وعلمتهم أن السعادة الحقيقة في أن يبذل الإنسان ما في وسعه في سبيل الله.

ولعل الروم بهذه الحشود العظيمة يريدون إرهاب المسلمين حتى لا يعودوا إلى مثل هذه المحاولة أو أنهم جمعوا هذه الجموع خوفًا من المسلمين فقد شاعت الأنباء عن انتصارهم في سائر المعارك التي خاضوا.

إن هزيمة الروم في مؤتة لم تكن هزيمة في جيوشها أو احتلال بلادها ولكنها هزيمة نفسية حطمت معنويات الروم حيث هزموا الفرس في عهد قريب فقد تحطم الفرس عندما هدد الروم عاصمة بلادهم المدائن إن الروم لم يفكروا وهم بهذه القوة أن يأتي جيش تعداده ثلاثة آلاف يحقق هذا النصر العظيم على أكبر دولة في ذلك الزمان وإن هزيمتهم في مؤتة مهدت لهزيمتهم والقضاء على دولتهم بعد ذلك.

***

غزوة حنين دروس وعبر

أيها المسلمون: غزوة حنين من الغزوات الحاسمة والمهمة وسببها: أن قبائل من المشركين شرقت حلوقهم وساءهم أن ينتصر الرسول ﷺ على مشركي مكة فلقد تحطمت الوثنية على صخرة الإسلام بعد عداء مستحكم وقتال مرير استمر إحدى وعشرين سنة انتهى بفتح مكة. لقد كان فتح مكة في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة النبوية الشريفة وكانت قبائل المشركين التي لم تنعم بالإسلام ترقب الموقف على حذر، فلما اكتشفت نهاية قريش واستسلامها للمسلمين عزمت على أن تقاتل رسول الله ﷺ قبل أن يقاتلها وأن تغزوه قبل أن يغزوها، هذا على حد زعمهم وكان على رأس هذه القبائل قبائل كانت تسكن الطائف والبوادي التي حوله وحول مكة وكانوا يعدون العدة خلال سنة تقريبًا، ومن هذه القبائل: هوازن، وثقيف، ومضر، وجشم، وغيرها. لقد اعتقدت هذه القبائل أن بإمكانها التغلب على المسلمين، وإعادة الشرك إلى ربوعه، والأصنام إلى أماكنها كما أرادت هذه القبائل الثأر لقتلى المشركين عبر السنين الطويلة التي حاربهم فيها رسول الإسلام ﷺ وأتباعه لقد أسلمت تلك القبائل المشركة قيادها لمالك بن عوف فأمر المشركين بأن يحملوا أولادهم ونساءهم وأموالهم كي يتحمسوا في الدفاع عنهم إذا ما احتدمت المعركة بين المسلمين والمشركين فكانت رزقًا وغنيمة

ساقها الله للمسلمين كما سيتبين ولما علم النبي ﷺ بما يدبره المشركون أرسل أحد المسلمين إلى جموع المشركين من غير أن يعرفوا حقيقة إسلامه وهو عبد الله بن حدرد الأسلمي وأمره النبي ﷺ أن يدخل في الناس ويقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم فدخل فيهم وأقام عندهم يومين وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب الرسول ﷺ فعاد وأخبر النبي ﷺ بذلك عندئذ أمر النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم بالتحرك لقتال هؤلاء المشركين وكان المسلمون يصل عددهم إلى اثني عشر ألفًا إلا أن من بين صفوفهم أناسًا لم يتمكن الإيمان في قلوبهم ممن أسلموا بعد فتح مكة أو قبلها بقليل فلقد أسلم خلق كثير خلال سنتين بين صلح الحديبية وفتح مكة وعندما تحرك المسلمون أعجب أحدهم بكثرتهم عندما قال: لن نغلب اليوم عن قلة، قال الله -تعالى-: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥]، لقد كان الجيش الإسلامي في غزوة حنين أكثر جيش قاتل فيه رسول الله ﷺ الأعداء وكان خروج النبي ﷺ من مكة بعد فتحها في أوائل شهر شوال من السنة الثامنة وترك عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، وأمره أن يصلي بالناس وهو أول أمير يصلي بمكة جماعة بعد فتحها وكان عمره حوالي عشرين سنة وجعل معه معاذ

بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كي يعلم الناس الفرائض والسنن.

ولقد سبق المشركون المسلمين إلى واد بين مكة والطائف يعرف بوادي حنين فاحتلوا شعابه وكمنوا في مضائقه واستعدوا للمعركة وتهيأوا لها وكان عددهم يصل إلى عشرين ألفًا كما في بعض الروايات فعبأ الرسول ﷺ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وصفهم صفوفًا ولبس هو درعين والمغفر والبيضة وركب بغلة له فلما انحدر المسلمون في الوادي في الصباح الباكر قبل الإسفار مع غيوم وضباب نهض المشركون من أماكنهم وأمطروا المسلمين بوابل من النبال فكر المسلمون راجعين وكانت صدمة عنيفة للمسلمين حيث تحول انسحاب مقدمتهم إلى هزيمة وتقدم النبي ﷺ في نحر العدو وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب، اللهم أنزل نصرك ثم أخذ حصيات فرمى بها وجوه القوم وقال: انهزموا ورب محمد، فانهزموا مدبرين. ثم قال النبي ﷺ للعباس عمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان جهوري الصوت: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة، يا أهل بيعة الرضوان، يا أصحاب سورة البقرة فأجابوا وتجاوبت أرجاء الوادي لبيك لبيك وأشرف النبي ﷺ على المعركة ونظر إلى المقاتلين فقال: (الآن حمي الوطيس)، وهزم الله المشركين وفروا هاربين مذعورين إلى الطائف كقبيلة ثقيف وانسحبت هوازن وغيرها باتجاه وادي أوطاس وأنزل الله سكينته وجنوده مع

المسلمين قال -تعالى-: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٦-٢٧]، وكانت نتيجة المعركة أن استشهد أربعة من المسلمين وقتل من المشركين ما يزيد عن السبعين وغنم المسلمون مغانم كثيرة جدًا بلغت أربعة وعشرين ألف بعير وأربعين ألفًا من الشياه وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وستة آلاف من النساء والأبناء.

لقد كانت معركة حنين هزيمة ساحقة للمشركين الذين فروا بأنفسهم وتركوا أموالهم وأهليهم غنيمة للمسلمين ولم يقسم النبي ﷺ هذه الغنائم مباشرة رجاء أن يعود المشركون مسلمين تائبين فيأخذوا أهليهم وأموالهم؛ وهذا ما حصل من هوزان فقد رجعوا مسلمين فأعاد النبي ﷺ عليهم أهليهم وأموالهم بعد ما استأذن المسلمين، وأما ثقيف فتحصنت بالطائف فتقدم ﷺ إلى الطائف لمحاربتهم بعدما وكلَّ على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري، وبعد أشهر استجاب الله دعاء نبيه ﷺ واستمر حصار الطائف أكثر من عشرين يومًا ثم فك النبي ﷺ الحصار بعدما استشهد من المسلمين اثنا عشر رجلًا، وكان هدف النبي ﷺ أن تأتي ثقيف مسلمة بعد ذلك لأنهم يرون أن الإسلام يضرب أطنابه في

عموم الجزيرة العربية وبعد ما ارتحل النبي ﷺ عن ثقيف قال رجل: يا رسول الله ادع الله عليهم فقد قتلوا أناسًا من المسلمين فقال -عليه الصلاة والسلام-: (اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم)؛ لذلك فلم يطل بقاء ثقيف حيث أرسلوا وفدهم إلى المدينة يخبر النبي ﷺ برغبتهم في الإسلام وهكذا دخلت ثقيف في الإسلام كغيرها من القبائل العربية.

أما الغنائم فقد أخَّر النبي ﷺ قسمتها أكثر من عشرة أيام رجاء أن يعود المشركون تائبين فيأخذوا أموالهم وأهليهم إلا أن رجوعهم لم يتم فأعطى النبي ﷺ كبار قريش وزعماء القبائل أعطيات جزلة تصل إلى مائة من الإبل وأكثر إما رجاء أن يسلموا، أو ليثبت ويقوى إسلامهم، أو ليندفع شرهم بهذه الأعطيات وتسامع الناس بذلك فاجتمعوا على رسول الله حتى ألجاؤه إلى شجرة اختطفت رداءه فقال: (ردوا عليَّ ردائي أيها الناس فو الله لو كان لي بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم ثم ما ألفيتموني بخيلًا، ولا جبانًا، ولا كذابًا) رواه البخاري، وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبه قال: (مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه النبي ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء). رواه البخاري ومسلم.

أيها المسلمون:

لقد قسم -عليه الصلاة والسلام- الغنائم ولكنه لم يعط الأنصار منها شيئًا بل وكلهم إلى إيمانهم فوجد بعضهم في نفسه بعض الشيء فجمعهم النبي ﷺ وخطب فيهم خطبة بليغة أزالت ما علق في نفوس بعضهم ومما جاء في الخطبة: (يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار. قالوا: بما نجيبك يا رسول الله؛ لله ولرسوله المن والفضل. قال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك ومخذولًا فنصرناك وطريدًا فآويناك وعائلًا فآسيناك؛ أوجدتم علي يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا؛ ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؛ والذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعبًا وواديًا؛ وسلك الأنصار شعبًا وواديًا لسلكت شعب الأنصار وواديها؛ الأنصار شعار، والناس دثار؛ اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا) رواه البخاري ومسلم، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

أيها المسلمون:

إن غزوة حنين لها أهمية كبرى ومكانة عالية فهي تشبه غزوة بدر فالملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزوتين والنبي ﷺ رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما وكانت بدر بداية هزيمة الشرك وحنين نهايته. وإذا كان الله نصر المسلمين في بدر على قلتهم فقد أرى الله المسلمين في حنين بعض الهزيمة على كثرتهم ويستفاد من ذلك: أن القلة مع النضج، وقوة الإيمان أحسن من الكثرة مع عدم تغلغل الإيمان في القلوب. وبالمؤمنين الثابتين انتصر المسلمون في حنين، ونزلت السكينة على قلوبهم، وهزم الله عدوهم.

- إن هذه الغزوة تشتمل على دروس عديدة: فمن هذه الدروس العظيمة: أن الجهاد في الإسلام لا يعني الحقد على الكافرين فإن النبي ﷺ لم يدع على ثقيف بعد الحصار ولكنه دعا لهم فقال: (اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم)؛ لذا ينبغي أن يتجه دعاء المسلمين لغيرهم بالهداية والصلاح لمحاولة اعتاق الآخرين من العذاب يوم القيامة. وأما ما ثبت من دعاء النبي ﷺ على بعض المشركين فلما كانوا عليه من عداوة وإيذاء وعناد.
- ومن الدروس: شجاعة النبي ﷺ فقد بقي - صلوات الله وسلامه عليه - في وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو فثبت ثباتًا عجيبًا امتد أثره إلى نفوس أصحابه رضي الله عنهم فعادت إليهم قوة العزيمة ورباطة الجأش. يقول ابن كثير رحمه الله: وهذا في غاية ما يكون من

الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وهو على بغلة ليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا كر ولا لهرب وهو مع هذا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه - صلوات الله وسلامه عليه - وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه وعلمًا بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان.

- ومن الدروس: كرم النبي ﷺ فقد ثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ أعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة. قال صفوان:(ما زال يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه).
- **ومن الدروس**: مشروعية معجزة من معجزاته ﷺ: فإن شيبة بن عثمان عزم على قتل رسول الله بعد فتح مكة يقول: لما اختلط الناس في حنين دنوت منه أريد ما أريد ورفعت سيفي فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يصيبني فوضعت يدي على بصري خوفًا عليه فالتفت إلى رسول الله فناداني: يا شيبة أدن مني.. فدنوت منه فمسح صدري ثم قال: اللهم أعذه من الشيطان. قال: فو الله لهو كان ساعتئذ أحب إلى من سمعي وبصري ونفسي وأذهب الله ما كان في نفسي فتقدمت أمامه أضرب بسيفي الله يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء).
- **ومن الدروس**: محبة النبي ﷺ للأنصار فلقد ألقى عليهم ذلك الخطاب البليغ جوابًا على تلك الوساوس التي وجدت في نفوس

البعض؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ولقد أثر هذا الخطاب في نفوسهم تأثيرًا عجيبًا فما المال والشياه والإبل في جنب حبيبهم رسول الله ﷺ إذ يعودون به ويعود بهم إلى ديارهم ليكون المحيا والممات فيما بينهم. ثم متى كان المال في ميزان رسول الله ﷺ دليلًا على الحب لقد أعطى قريشًا كثيرًا من الأموال فهل خص نفسه بشيء من ذلك، أو جعل نصيبه كنصيب الأنصار لقد قال ﷺ: (أيها الناس والله مالي من فيئكم إلا الخمس والخمس مردود عليكم).

- ومن الدروس: مشروعية اتخاذ الأسباب وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله؛ يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسبباته قدرًا وشرعًا فإنه ﷺ أكمل الخلق توكلًا وقد دخل مكة والبيضة على رأسه ولبس يوم حنين درعين وقد أنزل الله عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، ا. هـ.

إن فعل الأسباب لا ينافي التوكل على الله -تعالى- بل لابد من فعلها والقيام بها.

***

غزوة ذات الرقاع

أيها المسلمون:

إن دراسة السيرة النبوية أو شيئ منها ليس الهدف منه الوقوف على الوقائع التاريخية وسرد مجمل الأحداث والقصص فقط فالغرض من دراسة السيرة أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية متجسدة في حياة النبي ﷺ حيث يجد الإنسان صورة واضحة للمثل الأعلى في كل شؤون الحياة ولذا جعل الله نبيه قدوة للإنسانية كلها حيث يقول -تعالى-: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، إن حياة النبي ﷺ قدمت نماذج سامية منوعة فهو نموذج للشاب المستقيم في سلوكه؛ وهو النموذج الرائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. والنموذج لرئيس الدولة الذي يسوس الأمور بحكمة بالغة؛ ونموذج للزوج المثالي في حسن معاملته، ونموذج للأب في حنو عاطفته، ونموذج للقائد الماهر، ونموذج للسياسي الصادق، وللمسلم الذي يجمع بين التعبد لله والانبساط مع أهله وأصحابه.

أيها المسلمون:

حديثنا هذا اليوم سيكون عن غزوة من الغزوات التي غزاها نبينا - عليه الصلاة والسلام - بنفسه لكي يجيء الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا. لقد كانت حياته ﷺ حياة جهاد ففي شهر جمادى الأول من السنة الرابعة للهجرة النبوية الشريفة خرج النبي ﷺ قاصدًا بعض القبائل

في نجد فقد غدرت بمجموعة من الدعاة حيث قتلت سبعين منهم ولما علم المشركون بتوجه النبي ﷺ ومعه أصحابه رضي الله عنهم قذف الله الرعب في قلوبهم بالرغم من كثرة تلك الجموع فلم يقع أي قتال بل تفرق المشركون؛ ولقد سميت هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع حيث حفيت أقدام الصحابة وسقطت أظافرهم فكانوا يلفون الخرق على أرجلهم ليتقوا بها من الرمضاء والصخور والحجارة.

ويتبين لنا من خلال دراسة هذه الغزوة عدة أمور منها:

أولًا: اتضح في هذه الغزوة فقر الصحابة حيث إن الستة أو السبعة كانوا يتعاقبون ركوب بعير واحد فقد كانوا لا يجدون الظهر الذي يركبونه ومع ذلك فلم يكن الفقر ليعيقهم عن أداء رسالتهم ولم يكن تساقط أظافرهم لاصطدامها بالحجارة والصخور ليثنيهم عن تبليغ دينهم لأنهم تمثلوا قول الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

ثانيًا: شرع الله -تعالى- لنبيه في هذه الغزوة صلاة الخوف حيث صلى رسول الله ﷺ بطائفة من أصحابه، وطائفة تكون تجاه العدو. وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية أداء الصلاة جماعة فلو كان يعفى عن ذلك لعفي عنها في أحلك الظروف وأصعبها ألا وهي ظروف

ملاقاة العدو وتفكيره بالهجوم على المسلمين حيث إن المشركين قالوا فيما بينهم سيقف المسلمون يصلون صلاة هي أحب إليهم من أموالهم وأولادهم فإذا كانوا في الصلاة غدرنا بهم فأوحى الله إلى نبيه ذلك وشرع صلاة الخوف وتفرق المشركون.

وإنه لدرس في أهمية صلاة الجماعة فلا يليق بالمسلم أن يتكاسل أو ينام ولا يستيقظ لهذه الفريضة العظيمة.

ثالثًا: وقعت في هذه الغزوة حادثة غريبة رواها الإمام البخاري عن جابر ﵁ قال: لما قفل رسول الله ﷺ راجعًا وأصحابه أدركتهم القائلة -أي شدة الحر- في وادٍ كثير الشجر فتفرق الناس يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه قال جابر فنمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئنا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا -أي مسلولًا- فقال لي: (من يمنعك مني؟ فقلت له: الله). فها هو ذا جالس) ولم يعاقبه رسول الله ﷺ إن هذه الحادثة تعلمنا مصداق قوله -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، لقد كان من اليسير على هذا المشرك الذي أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ وهو أعزل غارق في نومه أن يهوي به عليه فيقتله؛ وإعجاب هذا المشرك بنفسه

واضح من قوله: من يمنعك مني؟ فما الذي طرأ؟ لقد طرأ ما لم يكن في حساب المشرك وتقديره ألا وهو حفظ الله لرسوله وعنايته به. فقد كانت عناية الله كافية لئن تملأ قلب المشرك بالخوف حتى يسقط السيف من يده ثم يجلس متأدبًا مطرقًا بين يدي رسول الله ﷺ. إن الإيمان القوي يرعب الأعداء ويخوفهم حتى ولو كان المسلمون بعيدين عنهم، يقول ﷺ: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) رواه البخاري.

رابعًا: في هذه الغزوة وقعت حادثة تبين مدى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من التضحية والفداء والجلد والصبر في سبيل الله فعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فلما انصرف رسول الله ﷺ راجعًا حلف أحد المشركين أن يهريق دمًا من أصحاب محمد فخرج يتبع الأثر فنزل النبي ﷺ منزلًا فقال: من رجل يكلؤنا - أي: يحرسنا هذه الليلة – قال: عباد بن بشر، وعمار بن ياسر نحن يا رسول الله. فقال ﷺ: (كونا بفم الشعب)، وكان منزل الرسول ﷺ إلى شعب من الوادي فقال: عباد بن بشر لعمار أي الليل تحب أن أكفيكه أوله أم آخره، قال عمار رضي الله عنه بل اكفني أوله فنام عمار، وقام عباد رضي الله عنه يصلي فأتى المشرك ورآه يصلي فرماه بسهم فنزعه وثبت قائمًا ثم رماه بسهم آخر وثالث ثم ركع وسجد وأيقظ صاحبه قائلًا

اجلس فقد أوتيت يعني: أصبت.

قال: فوثب فلما رآهما الرجل عرف أنه قد اكتشف أمره فهرب فلما رأى عمار الدماء بصاحبه قال سبحان الله أفلا أيقظتني أول ما رماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها. فلما تتابع الرمي آذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أي الصلاة) رواه الإمام أحمد.

***

من كتب النبي ﷺ للملوك في عصره

أيها المسلمون:

يقـــــول الله -تعـــــالى-: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، إن الناس لن يجدوا في العالم كله دقائق حياة إنسان وطريقة معاشه وأسلوب تعامله رجلًا وافق خلقه ما دعا إليه وطابقت سيرته ما آمن به ولم يخالف عمله قوله مثل ما كان عليه نبينا محمد ﷺ. ولن يظفر قارؤوا التاريخ برجل غيرت دعوته في العالم أعظم تغيير وفي أقصر زمن مثل رسول الله حتى شهد المؤرخ الأمريكي صاحب كتاب: المئة الأوائل فجعل صاحب الترتيب الأول محمدًا ﷺ حيث قال: إن المائة الخالدين من قادة البشر العظام أعظمهم جميعًا محمد ﷺ:

شهد الأنام بفضله حتى العدا   والفضل ما شهدت به الأعداء

أيها المسلمون:

ستظل سيرة نبينا محمد ﷺ بحرًا زاخرًا فياضًا بالحكمة والرشاد للقلوب والعقول عبر الأجيال كيف لا! وقد جعله الله المثل الأعلى لأمته بخاصة وللعالمين بعامة فكرمه بإمامة الأنبياء في المسجد الأقصى ليلة الإسراء، وكرمه بإمامة الملائكة في البيت المعمور ليلة المعراج، وربط الله به وبرسالته الرحمة العظمى لهداية الخلق فهو رحمة للمؤمنين

بالعز في الدنيا والنجاة في الآخرة، وهو رحمة للكافرين بإمهالهم وتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة.

أيها المسلمون:

لقد كان -صلوات الله وسلامه عليه- موضع الاهتمام من محبيه ومبغضيه ومن مناصريه ومناؤيه ولقد كتب عنه مئات الكتب.

كانت رسالته ﷺ رسالة عالمية لكل البشر يقول الله -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا [سبأ: ٢٨]، وقال -تعالى-: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [ص: ٦٧] وقد بلغ رسول الله ﷺ الدعوة إلى أنحاء العالم المعاصر له فدعا ملوك عصره عن طريق السفارات التي حملت الرسائل النبوية الكريمة يدعوهم إلى الإسلام، ويبلغهم الدعوة، ويحضهم على ترك ما هم فيه من الكفر والضلال، وكانت الرسائل إشارة نبوية كريمة إلى أسلوب المراسلات، وذلك في بداية السنة السابعة من الهجرة بعد صلح الحديبية حيث أمن الناس بعضهم بعضًا. واتخذ ﷺ خاتمًا من فضة ليختم به الكتب منقوش عليه ثلاث كلمات: (محمد رسول الله)، ونقتصر هذا اليوم على بعض الكتب المرسلة فلقد أرسل -عليه الصلاة والسلام- كتابًا إلى هرقل قيصر الروم مع الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي، وهذا نص الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع

الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم. وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. وإن توليت فعليك إثم الأريسيين -الأتباع من الفلاحين-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] رواه مسلم. لقد وصلت رسالة النبي ﷺ إلى هرقل وهو في نشوة انتصاره على الفرس بعد حروب طاحنة استمرت ثمانية عشر عامًا ثم دعا هرقل كبار بطارقته ومستشاريه فقال لهم: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت لكم ملككم وتتبعون ما قال عيسى ابن مريم؟ فقالوا: وما ذاك أيها الملك؟ قال: تتبعون هذا النبي العربي. قال فحاصوا حيصة حمر الوحش وتناحروا ورفعوا الصليب فلما رأى هرقل ذلك منهم خافهم على نفسه وملكه فسكنهم، وقال: إنما قلت ذلك: لأختبركم وأنظر صلابتكم في دينكم الذي أحب فسجدوا له)، ويكفى أن هذه الرسالة نبهت الروم إلى دين جديد، ورجع دحية مسرورًا بما رأى وسمع.

وكان لموقف هرقل هذا أثره في إطفاء سورة الغضب عند المنذر بن الحارث الغساني الذي ثار لهذه الرسالة وألح على القيصر في تأديب صاحب الرسالة فسكت هذا العربي المتنصر على كره وغضب، كما كان لموقفه أثر في موقف المقوقس القبطي من كتاب رسول الله ﷺ.

ولقد أرسل نبي الله ﷺ كتابًا حمله الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى ملك الفرس جاء في بعض الروايات أن حامل الكتاب إلى الفرس هو شجاع بن وهب الأسدي ولكن الراجح أنه عبد الله بن حذافة السهمي حمل الكتاب إلى كسرى وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس؛ سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين؛ أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس).

أيها المسلمون:

وهناك رسائل كثيرة إلى الملوك المعاصرين لرسول الله ﷺ نتركها لفرصة أخرى والمقصود أن على الدعاة والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمصلحين أن يتأسوا بنبيهم ﷺ وأن يحرصوا على دعوة غيرهم إلى الدين القويم وأن لا يقضوا أوقاتهم ويهدروا جهودهم فيما بينهم والعدو المتربص بهم جميعًا يقف متفرجًا ومشجعًا على الفرقة والتنازع وشامتًا لقد تحدث رجل بغيبة رجل أمام واحد من السلف الصالح فقال له: أجاهدت الفرس؟ قال: لا. قال: أجاهدت الروم؟ قال: لا. قال: أجاهدت السند؟ قال: لا. فقال: أيسلم منك الأعداء ولا يسلم منك أخوك؟

أيها المسلمون:

إن المسلمين وبخاصة أصحاب الدعوة إلى الله ﷻ متفاوتون في المواهب؛ والدعوة إلى الإسلام بحاجة إلى جهودهم جميعًا فالخطاط يفيد الدعوة بخطه، والمهندس بهندسته، والشاعر بقصيدته، والكاتب بمقاله، والفقيه بفقهه، والسياسي بسياسته، والاقتصادي والإعلامي كل فيما يخصه ولذا ليس بغريب أن يوصف بعض الصحابة بصفاتهم المتميزة علمًا أن لهم صفات طيبة أخرى فيقال: سماحة الصديق، وعدالة الفاروق، وحياء عثمان، وشجاعة علي، وفقه ابن مسعود، وتفسير ابن عباس، ورواية أبي هريرة، وقيادة خالد، ودهاء معاوية، إلى غير ذلك. كتب أحدهم إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله يحضه على العمل، والانفراد، والإقلال من العلم فرد عليه قائلًا: (إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق فرب رجلٍ فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد.فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر).

***

عبر وحكم من غزوة أحد

أيها المسلمون:

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (ما خلق الله ولا ذرأ ولا برء نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم الله بحياة أحدٍ إلا بحياة حبيبه محمد فقال: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢].

أيها المسلمون:

لقد كان سلفنا الصالح يتدارسون مغازي المصطفى ﷺ، ويعلمونها أولادهم، ولقد حدثت في شهر شوال من السنة الثالثة من الهجرة معركة مشهورة ألا وهي معركة أحد يقول النبي ﷺ عن ذلك الجبل بعدما قدم من غزوة تبوك: (وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه) رواه مسلم.

فينبغي أن نحبه معشر المسلمين حيث أحبه رسول الله واستند إليه في المعركة واستشهد على سفحه سبعون من الصحابة الأطهار، كما حدثت للجبل معجزة من معجزات النبي ﷺ فلقد اهتز ذات مرة والنبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان يصعدونه فقال -عليه الصلاة والسلام-: (أثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان) رواه الترمذي بسند صحيح، فثبت وسكن، وهذا الجبل يقع شمال المدينة.

عباد الله: لقد ذكر الله هذه الغزوة في كتابه العزيز في ستين آية من سورة آل عمران من الآية الحادية والعشرين بعد المائة من قوله -عز من قائل-:

﴿ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، لقد كان حديث كتاب الله عن هذه الغزوة واضحًا مفصلًا فعندما رجع المنافقون بثلث الجيش قبل بداية المعركة قال -تعالى-: ﴿ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. ووصف هزيمة معسكر الشرك ومخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ لما رأوا الغنائم وانهزام المشركين فقال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وعندما كان ﷺ يمسح الدم عن وجهه من آثار الجراح كان يقول: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله) رواه ابن ماجه، عقب الله على ذلك بعتاب خفيف حيث يقول: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

ويذكر القرآن الكريم الأمم السالفة وأن النصر للمؤمنين في كل زمان ومكان حتى ولو أصيبوا ببعض النكسات: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى

﴿وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٧]. ويذكرهم بأن الجراح لم تكن مقصورة على المؤمنين، وأن الفرق شاسع بين قتلى المعركة فالمؤمنون في جنان الخلد والله يحب أن يختار منهم شهداء في سبيله وأن التمحيص كائن لا محالة: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ويذّكر القرآن العظيم البعض بموقفهم عندما كانوا يرغبون ملاقاة العدو خارج المدينة وعندما التقوا به لم يطابق القول العمل قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾ [آل عمران: ١٤٣]، ويعقب القرآن العظيم على فرية مقتل الرسول ﷺ فقد كانت شديدة على نفوس المؤمنين فقد صرخ الشيطان بأن الرسول قد قتل، ويذكر القرآن المؤمنين بأن عمل محمد ﷺ منحصر في تأدية الرسالة فإذا مضى إلى الدار الآخرة فلا يجوز للمستنير أن يرجع إلى الظلمات بعدما أنقذه الله منها قال -تعالى-: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ويذكر القرآن العظيم حيرة البعض واضطرابهم وفرارهم وأن سبب ذلك

المخالفات قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ويوضح كلام الله أن القتال لا يقصر الحياة فلا داعي للخوف منه فالآجال بيد الله قال -تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ ﴾ [آل عمران: ١٤٥] ويبشر المؤمنين بالحياة السعيدة للشهيد قال -تعالى-: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]، كما يمتدح الله المؤمنين الذين طاردوا العدو بعدما أصيبوا بالجراح الكثيرة لكي يردوا هيبتهم قال -تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

أيها المسلمون:

لقد جاء المشركون بنسائهم لئلا يفروا وليحاموا عنهن يقول الزبير

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصواحباتها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير). وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف بينما كان عدد المسلمين سبعمائة بعد ما رجع المنافقون ومن أطاعهم وهم بحدود ثلاثمائة وقد أجاز - عليه الصلاة والسلام - للمطيقين من شباب الصحابة أجاز لهم المشاركة في المعركة ومنهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لقد انهزم أهل الشرك وولوا هاربين فظن الرماة من المسلمين عدم رجوع المشركين فتركوا مراكزهم فعاد المشركون ثانية وأكرم الله بالشهادة سبعين من الصحابة وخلص المشركون إلى رسول الله فجرحوا وجهه، وكسروا أسنانه، وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة حتى سقط في حفرة من الحفر التي حفرها الأعداء فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه فانتزعهما أبو عبيدة حتى سقطت أسنانه من شدة غوصهما في وجهه وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا وأراد ﷺ أن يعلو صخرة هنالك فلم يستطع لما به من جراح فجلس طلحة تحته حتى صعدها. وشد حنظلة على المشركين فقتل وهو جنب فإنه لما سمع صيحة الحرب ترك فراشه وكان قريب عهد بالزواج واتجه صوب المعركة فأخبر الرسول أصحابه أن الملائكة تغسله ثم قال سلوا أهله؟ ما شأنه؟ فسألوا امرأته فأخبرتهم الخبر.

ولقد سقط حامل لواء المسلمين مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان يعتبر أعطر فتيان مكة وأنعمها لباسًا في الجاهلية سقط لتتلقفه الملائكة وترفعه إلى عليين.

وسقط حمزة بن عبد المطلب عمّ الرسول ﷺ أسد الله وأسد رسوله بعد أن أوهن الكفرة بسيفه. ولقد أبلى طلحة بلاءً حسنًا فقال - عليه الصلاة والسلام – لأصحابه: (عليكم بطلحة عليكم بصاحبكم) فذهبوا إليه فوجدوه تنزف جراحه يقول ﷺ: (من سره أن ينظر إلى رجل قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة)، وكان أبو بكر يقول عندما تذكر له غزوة أحد: (ذاك يوم كله لطلحة)، ولقد مص مالك والد أبي سعيد الخدري جرح رسول الله حتى أنقاه فقال له مجّه فقال: والله لا أمجه أبدًا ثم أدبر فقال النبي ﷺ: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)، وقال عبد الله بن حرام: رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم إلينا في أيام. فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسرح فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال: بلى، ثم أحييت فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هذه الشهادة يا أبا جابر.

أيها المسلمون:

لقد دافع هؤلاء الأصحاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن نبيهم ﷺ بسيوفهم وهي وإن كانت قديمة إلا أنها خير من الأسلحة الكثيرة التي لم تدافع عن سنة

رسول الله ﷺ وأتباعه إنه ليصدق على الواحد من هؤلاء الصحابة الأطهار قول الشاعر:

فتى كان عذْب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرًا أن يقال له كبر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
تردى ثياب الموت حمرًا فما دجى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر
هوى طاهر الأثواب لم تبق روضة ... عذاة ثوى إلا اشتهت أنها قبر
عليك سلام الله وقفًا فإنني ... رأيت الكريم الحر ليس له عمر

أيها المسلمون:

لقد انسحب المشركون بهذا الذي سموه نصرًا فهل انتصرت قريش حقًا على المسلمين؟ وهل هزم المسلمون بقيادة رسول الله؟ اللهم لا فالهزيمة لا تتحقق إلا بتحقق عناصر ثلاثة: تغير المعتقدات والقيم، وخسارة الأرض، وقتل الجيش؛ وكل هذه الأمور الثلاثة منتفية فعقيدة المؤمنين راسخة لم تتغير ولم تتحول، ولم يطأ المشركون أرض المدينة، وما زف إلى الجنة من المسلمين سوى سبعين من سبعمائة.

أيها المؤمنون:

لقد انجلت غزوة أحد وخلفت وراءها دروسًا وعبرًا منها: أن النبي ﷺ أوذي كثيرًا أوذي في جسمه وأهله وأصحابه ولقد وقف عند جثة عمه حمزة رضي الله عنه وكان يحبه كثيرًا فقال: (لن أُصاب بمثلك أبدًا وما وقفت موقفًا قط أغيظ عليَّ من هذا الموقف) ذكره ابن هشام في

السيرة؛ فإذا كان -صلوات الله وسلامه عليه- حصل له ذلك الأذى العظيم فليوطن الدعاة إلى الله نفوسهم على تحمل المشاق والمصاعب.

ومن الدروس: تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية وأنها السبب الأكبر للهزيمة في كل وقت وحين؛ فلقد خالف الرماة وصية رسول الله ﷺ فباء المسلمون عمومًا بفشل وابتلاء وكانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان.

ومن الدروس: أن حكمة الله في الرسل وأتباعهم جرت بأن لا يظهر انتصارهم دائمًا لكي يتبين من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم وقت انتصارهم فحسب وذلك علامة على نبوتهم كما قال هرقل لأبي سفيان لما أخبره عن الحرب بين قريش وبين رسول الله ﷺ وأنها سجال قال: (كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة).

ومن الدروس: أن الشهادة عند الله من أعلى المراتب والشهداء هم المقربون من عباده وهو -سبحانه- يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب الموصلة إليها من تسليط العدو.

***

من وصايا المصطفى لأبي ذر: أحكم السفينة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى جاءه اليقين من ربه زكى الله عقله فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [النجم:٢]، وزكى لسانه فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣]، وزكى بصره فقال: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧]، وزكاه كله فقال -عز من قائل-: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤]، فصلى الله وسلم وبارك عليه ورضي الله عن صحابته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، أما بعد:

فيا أيها المسلمون: اتقوا الله ﷻ وأطيعوه واعلموا أن نبي الله ﷺ كان حريصًا على هداية أمته واستقامتها قال الله -تعالى-: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ويقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى   حريص على أن يستقيموا ويرشدوا

وإن من حرصه -صلوات الله وسلامه عليه- على أمته وصاياه لها بالاستقامة وإعداد الزاد للآخرة فمن ذلك ما ورد في الحديث عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بأربع كلمات هن إلي أحب

من الدنيا وما فيها قال لي يا أبا ذر: (أحكم السفينة فإن البحر عميق، واستكثر الزاد فإن السفر طويل، وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير) رواه الإمام المقدسي.

إنها لوصية عظيمة غالية لمن يريد السعادة والفوز في الدارين وهي نبراس ومشعل وضّاء يجعله المسلم العاقل أمامه ينير له الطريق في سيره إلى الله -سبحانه- حتى يلقاه فلقد اعتبرها أبو ذر ﵁ أحب إليه من الدنيا وما فيها. فجدير بنا أن نقف عند هذه الوصية وقفات لعلها تنبه فينا غافلًا، أو ترد شاردًا، أو تشجع عاملًا فيزداد فقوله ﷺ: (أحكم السفينة فإن البحر عميق). لعل السفينة التي يوصي المصطفى بإحكامها هي العمل الصالح ولعل البحر العميق هي الدنيا.

وورد في وصية لقمان لابنه قوله: (يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله ﷿، وحشوها الإيمان بالله - تعالى -، وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو)، وروى الإمام أحمد ﵀ أن النبي ﷺ قال: (الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له). و ورد أن جبريل ﵇ قال لنوح ﵇: (يا أطول الأنبياء عمرًا كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر).

أيها المسلمون:

لقد اعتبر ﷺ الدنيا مثل البحر الذي لا أمان له ولا استقرار فلابد للمسلم العاقل أن يقف على خطورتها وأن لا تكون شغله الشاغل وغايته القصوى وأمله المنشود بل يجب عليه أن يكون له نظر إلى الأفق البعيد إلى دار الخلد إلى جنات النعيم؛ كما قال ربيعة بن كعب رضي الله عنه للنبي - عليه الصلاة والسلام - وقد أمره أن يختار شيئًا يدعو له به قال: (أسألك يا رسول الله مرافقتك في الجنة). هكذا فالدنيا لم تكن له على بال. وكما قال حارثة رضي الله عنه: (عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها -أي حجارتها- وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يتضاغون فيها) ذكره عبد بن حميد في مسنده، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: (من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى) رواه الإمام أحمد، وقوله -عليه الصلاة والسلام- في الوصية: (واستكثر الزاد فإن السفر طويل) سأل رجل من الأنصار رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله من أكيس الناس وأحزم الناس؟ قال: (أكثرهم ذكرًا للموت، وأكثرهم استعدادًا للموت أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة) رواه ابن ماجه.

إن العمل الصالح هو الزاد الذي ينبغي لكل عاقل أن يتزود به قبل

انتقاله من عالم العمل إلى عالم الحساب وقد ذكر الله ﷻ أن الإنسان المفرط يتمنى عند الموت الرجوع إلى الدنيا لكي يعمل صالحًا يقول الله -تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، إن المسلم العاقل هو الذي يقدم لنفسه من الأعمال الصالحة ما ينفعه في مراحل سفره الطويل وأول هذه المراحل أول لحظة يفارق فيها هذه الحياة الدنيا ويبدأ حياة البرزخ التي تكون بين موته وبعث الناس من قبورهم للجزاء والحساب وقد تمتد حياة البرزخ طويلًا يحتاج الإنسان فيها إلى زاد كاف ينير قبره ويؤنسه في وحدته ويجعله روضة من رياض الجنة، قيل لرجل من السلف لم زهدت في الدنيا فقال لثلاث: (رأيت الطريق طويلًا وليس معي زاد و رأيت القبر موحشًا وليس معي مؤنس و رأيت الجبار قاضيًا وليس معي حجة ولا من يدافع عني).

وقوله ﷺ: (وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود) العقبة: الطريق في الجبل، والكؤود: صعبة المرتقى، الشاقة المصعد، ولعل المراد من هذا التوجيه أن يحرص الإنسان على أن يعطي كل ذي حق حقه قبل رحيله إلى الآخرة حتى لا يتعرض للخيبة التي ذكرها الله ﷻ في محكم تنزيله حيث يقول -عز من قائل-: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه: ١١]، وفي الحديث: عن النبي ﷺ قال: (من كانت

عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) رواه البخاري.

وفي خطبة الوداع يقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: أما بعد:

(أيها الناس: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاهو فمن كنت جلدت له ظهرًا فليستقد مني، ومن كنت آذيت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعي، ولا من شأني ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقًا إن كان له، أو أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس، وقد أرى أن هذا غير مُغنٍ عني حتى أقوم فيكم مرارًا).

قال الفضل بن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا: ثم نزل فصلى الظهر ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها فقام رجل فقال يا رسول الله: (إن لي عندك ثلاثة دراهم). فقال: أعطه يا فضل؛ ثم قال النبي ﷺ: (أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده، ولا يقل فضوح الدنيا ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة).

فقام رجل فقال يا رسول الله: (عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله). قال: ولم غللتها؟ قال: كنت إليها محتاجًا. قال: خذها منه يا فضل، ثم قال أيها الناس: (من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدع الله له). فقام رجل فقال يا رسول الله. إني لكاذب، وإني لفاحش، وإني لنؤوم. فقال

ﷺ: (اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا، وصير أمره إلى خير) رواه الطبراني.

أيها المسلمون:

لنحذر أعراض إخواننا المسلمين فالغيبة والسخرية ونحوهما سبب في إفلاس الإنسان في الآخرة فقد قال النبي ﷺ مرة لأصحابه رضي الله عنهم: (أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام، ويأتي وقد ضرب هذا وسفك دم هذا، وقذف هذا، فيعطى لهذا من حسناته ولهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار) رواه مسلم، والذين لا يتورعون عن أعراض الناس ويستمرئون لحومهم أسوء حالًا من أكلة الربا؛ فقد قال النبي ﷺ: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق) رواه أبو داوود، وروى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن من أكبر الكبائر استطالة الرجل في عرض رجل مسلم بغير حق)، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس).

وقوله ﷺ: (وأخلص العمل فإن الناقد بصير)، فيه إشارة إلى أهمية إخلاص النية قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

[البينة: ٥]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) رواه مسلم.

إن الاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر والفوز. والمجتمع الذي يتكون من أفراد مخلصين يتنزهون عن الدنايا ويترفعون عن الشهوات ويعطون مجتمعهم من جهودهم وأعمالهم تظله المحبة ويعمه الأمن والسلام؛ ولقد كان التحلي بالأخلاق والصدق سببًا في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى ينشدون إقامة الحق والعدل يبتغون وجه الله فمكّن الله لهم في الأرض وجعلهم قادة العالم وسادة الدنيا.

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والاستعداد للحياة الآخرة إنه ولي ذلك والقادر عليه.

***

الرسول ﷺ الرحمة المهداة

أيها المسلمون: إنه لم يحصل لأحد من البشر ما حصل لنبينا محمد ﷺ من الاتصاف بالرحمة والشفقة والرفق حيث لا يقاربه في ذلك أحد ولا يدانيه، لقد كان -صلوات الله وسلامه عليه- رحمة للعالمين جميعًا قال الله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال الله -تعالى- في وصفه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال بعض السلف: من فضله ﷺ أن الله -تعالى- أعطاه اسمين من أسمائه فقال عنه: (بالمؤمنين رؤف رحيم)، ورد أن أعرابيًا جاء يطلب من النبي ﷺ شيئًا فأعطاه، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: الرجل لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون، وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه ﷺ وزاده شيئًا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا. فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال: نعم فلما كان الغد أو العشي جاء فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل

وعشيرة خيرًا. فقال النبي ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفورًا فناداهم صاحبها خلو بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم؛ فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحله واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار) رواه البزار.

لقد كان -صلوات الله وسلامه عليه- مثالًا فذًّا للرحمة تجسدت فيه معانيها وفاضت بها نفسه حتى إنه ليكون في الصلاة فيسمع بكاء الصبي فتأخذه الرحمة بأمه فيوجز في صلاته كما في حديث أنس رضي الله عنه الذي رواه البخاري ومسلم يقول ﷺ: (إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه)، وجاء في الإصابة لابن حجر رحمه الله: أنه ﷺ كان يداعب الحسن والحسين فيمشي على يديه وركبتيه ويتعلقان به من الجانبين فيمشي بهما ويقول: (نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما) أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنف والطبراني في المعجم الكبير، ولم يكن عطفه مقصورًا على أقربائه بل كان يشمل بعنايته البعيد كالقريب قالت عائشة رضي الله عنها: عثر أسامة بن زيد رضي الله عنهما بعتبة الباب فشج في وجهه فقال لي رسول الله ﷺ: أميطي عنه الأذى فقذرته فجعل رسول الله يميط عنه

الأذى بنفسه ويقول: (لو كان أسامة جارية لكسوته حلة) رواه ابن ماجه؛ قال: أسامة كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على فخذه الأخرى ثم يضمنا ويقول: (اللهم إني أرحمهما فارحمهما) رواه ابن حبان، وتمتد رحمته ﷺ إلى الأمة عمومًا فيقول: (لو لا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة) رواه البخاري. كما وسع رسول الله ﷺ دائرة الرحمة في حس المسلم بحيث تشمل الحيوان والطير فضلاً عن الإنسان روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)، ويبلغ رسول الله ﷺ شأو الرحمة العالي إذ نزل منزلًا فجاءت حمرة ترف على رأسه وكأنها تلوذ به شاكية ظلم رجل أخذ بيضها فقال ﷺ: (أيكم فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها) رواه أبو داوود.

ما أروع أيها الإخوة المؤمنون حياة النبي المصطفى ﷺ! إنه قدوة تسعد الإنسانية حين تتخذها منهجًا وسلوكًا فما أجدرنا نحن المسلمين اليوم أن نقتدي برسولنا الرحيم ﷺ، وأن نستلهم من رحمته ما يضئ لنا ظلمات الحياة فيرحم بعضنا بعضًا ويعطف بعضنا على بعض فالجماد يتأثر برسول الله ﷺ: فكيف بالإنسان! عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن

النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: إن شئتم فجعلوا له منبرًا فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي ثم نزل النبي ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن قال: (كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها) رواه البخاري.

أيها المسلمون:

إن المسلم العاقل رحيم تتفجر ينابيع الرحمة من قلبه إذ يدرك أن رحمة العباد في الأرض سبب لرحمة الله ولملائكته يقول ﷺ: (ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء) رواه الطبراني، ويقول ﷺ: (ومن لم يرحم الناس لا يرحمه الله) رواه الطبراني، ويقول ﷺ: (الرحمة لا تنزع إلا من شقي)، أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ويقول ﷺ: (لن تؤمنوا حتى تراحموا. قالوا يا رسول الله: كلنا رحيم. قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة الناس رحمة العامة) رواه الطبراني؛ ورجاله رجال الصحيح.

إنها الرحمة الشاملة رحمة الناس عامة يذكيها الإسلام في قلب المسلم ليغدو مجتمع المسلمين متراحمًا؛ لقد أراد - صلوات الله وسلامه عليه - أن يغرس في حس المسلمين معنى الرحمة الواسع الشامل ليغدو المسلم رحيمًا بطبعه حتى على الحيوان لأن من كان له

قلب يحنو على الحيوان بنية خالصة لله ﷻ فإنه لا يقسو على أخيه الإنسان. وإن من جملة من يرحمون الأطفال ومن طال عمره والعمال والخدم والفقراء والمظلومين والمنكوبين لأن الرحمة التي تتمثل في الرفق بهؤلاء والحنو عليهم والمساهمة الفعالة في تخفيف آلامهم ودفع ما ينزل بهم من ضرر وأذى هو ما فرضه الإسلام وجعله سبيلًا إلى رضوان الله ومحبته وإنما عني الإسلام بشأن هؤلاء لأنهم من بني الإنسان ومن حق الإنسان أن تصان كرامته وأن يأخذ حقه ولأنهم يمثلون الأكثرية في كل مجتمع فالمجتمع الصالح لابد له من رعاية أمثال هؤلاء لأنهم قوة بشرية يمكن الانتفاع بها لو أحسنت رعايتها ولأن رعاية هؤلاء تقي المجتمع من أن يتعرض للهزات التي تؤثر في تماسكه يقول ﷺ: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم) رواه البخاري.

***

غزوة تبوك

أيها المسلمون: في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة حدثت غزوة ذات أهمية بالغة ألا وهي غزوة تبوك فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة في بلاد الشام تريد أن تزحف تجاه المسلمين فحث رسول الله أصحابه رضي الله عنهم على النفقة لتجهيز الجيش الذي سيواجه قوة الروم المجتمعة، فجاء أبو بكر بكامل ماله، وجاء عمر بنصف ماله، وحمل العباس وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عبادة ومحمد بن سلمة أموالًا كثيرة، وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش فكان من أكثرهم نفقة – رضي الله عنهم أجمعين – فقال ﷺ: (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) قالها مرارًا رواه الترمذي، وحتى النساء ألقين في ثوب مبسوط بين يدي رسول الله المعاضد والخلاخل والخواتم، وكذلك الفقراء فقد ساهم كل منهم على قدر استطاعته وإنها مساهمة عامة اشترك فيها الرجال والنساء والأغنياء والفقراء بدافع من القلب سبب ذلك التذكير والتوجيه لا الإجبار ولا الإلزام.

لقد كانت هذه التعبئة أضخم تحرك إسلامي في حياة رسول الله ﷺ لقد سار ومعه ثلاثون ألفًا من المسلمين وعشرة آلاف فرس واثنا عشر ألف بعير؛ لقد كان هذا الجيش يزيد مائة ضعف عن جيش بدر والتي

كانت أول مواجهة واضحة لرسول الله ﷺ مع المشركين.

كان خروج جيش العسرة في فصل الصيف حيث الحرارة شديدة فلقد عانى المسلمون معاناة صعبة وورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن شأن ساعة العسرة فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلًا وأصابنا عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي في كبده. فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيرًا فادع الله لنا. فقال: أو تحب ذلك؟ قال: نعم فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء -أي آذنت بمطر- فأطلت ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر) رواه البيهقي.

وإذا كان المسلمون قد هبوا استجابة لداعي الله فلقد تخلف عنهم نفر من غير شك ولا ارتياب وهم أبو خيثمة وأبو ذر وقد لحقا برسول الله ﷺ وهو في تبوك؛ وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهؤلاء الثلاثة لم يغادروا المدينة ولم يلحقوا بالجيش الغازي مع استطاعتهم ولهم قصة عجيبة.

ولقد كان أناس من المسلمين يريدون الجهاد ولكنهم لا يجدون النفقة ولا الراحلة جاء سبعة نفر سموا فيما بعد بالبكائين وهم يطلبون من رسول الله أن يوفر لهم ما يركبون فقال ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون.

ذكر ابن حجر في كتابه الإصابة أن علبة بن زيد قام فصلى من الليل وبكى وقال: (اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس فقال النبي ﷺ: أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم إليه أحد، ثم قال: أين المتصدق فليقم؟ فقام إليه فأخبره النبي ﷺ: أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة) حديث صحيح أورده ابن حجر في الإصابة.

وعندما وصل جيش العسرة إلى تبوك لم يجد المسلمون فيها كيدًا ولا قتالًا فقد اختفى وتفرق أولئك الذين قد تجمعوا للقتال، ورحم الله المسلمين حيث لم يجمع عليهم القتال مع ما عانوه من الحر والجوع والظمأ فلله الحمد والمنة.

لقد أحدثت هذه الغزوة دويًا قويًا في صفوف الروم حيث تفرقوا ولم يطيقوا المواجهة فأثرها المعنوي عظيم صحيح أنه لم يجر فيها قتال ولكن القوة التي وصفها الله -تعالى- بقوله: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال:٦٠]، قد أدت مفعولها فإذا أمراء النصارى يأتون كي يسالموا رسول الله ﷺ فليست مهمة القوة في الإسلام أن تدمر وتقتل

وتسفك ولكنها قوة رادعة مرهوبة الجانب تمكن الحرية للناس كي يعبدوا ربهم وفي الوقت نفسه تردع المجرمين الذين يريدون فتنة الناس عن دين الله. إن الحق وحده لا يخيف العدو ولا يرهبه فلابد من قوة تحمي الحق وتردع الظالم وترهبه؛ فالحقوق الضائعة لا تسترد بالكلام ولكنها بالفعل الصادق.

أيها المسلمون:

لقد كانت غزوة تبوك آخر غزوة من غزوات الرسول ﷺ والتي بلغت سبعًا وعشرين غزوة؛ وأما بعوثه وسراياه التي لم يحضرها ﷺ فقد بلغت ستين سرية وبعثًا.

أيها المسلمون:

لقد كشفت غزوة تبوك تفاوت المستويات الإيمانية فتلك الأعداد العظيمة ليست على مستوى واحد من الإيمان فالأولى ذكرها الله في قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

الطبقة الثانية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

الطبقة الثالثة: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٦].

كما كشفت هذه الغزوة رغبة صحابة رسول الله ﷺ العظيمة في المثوبة والأجر بالإضافة إلى زهدهم في الدنيا وحرصهم على التقلل منها.

أيها المسلمون: إن الحديث عن غزوة تبوك ورد في كتاب الله في نصف سورة التوبة وكان للمنافقين فيها مواقف شائنة-.

أسأل الله ﷻ أن يهدينا وإياكم إلى سواء السبيل.

***

من دعاء الرسول ﷺ

أيها المسلمون: تقول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كان النبي ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء، ويدع ما بين ذلك) رواه أبو داود، والمعنى أنه - عليه الصلاة والسلام - يختار الأدعية القصيرة المشتملة على المعاني الكثيرة.

وفي هذا اليوم نقف على واحد من أدعيته -صلوات الله وسلامه عليه- لعلنا نقوم بحفظه ونعمل به حيث أمرنا -عليه الصلاة والسلام- بذلك يقول ﷺ: (اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي، وترحمني، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يبلغني حبك، ثم قال - عليه الصلاة والسلام -: (تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الدعاء شأنه عظيم حيث يقول ﷺ في شأنه: (الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض) رواه الحاكم، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته؛ وإما أن يدخرها في الآخرة؛ وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها)؛

قالوا: إذن نكثر فقال -عليه الصلاة والسلام-: (الله أكثر) رواه الإمام أحمد وأبو يعلي.

قوله ﷺ في الحديث المتقدم: (أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات): يتضمن طلب كل خير وترك كل شر فإن الخيرات تجمع كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الواجبة والمستحبة، والمنكرات تشمل كل ما يكرهه الله -تعالى- من الأقوال والأعمال فمن حصل له ذلك حصل له خير الدنيا والآخرة.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: (وحب المساكين) هذا من جملة فعل الخيرات وإنما ذكر لوحده لشرفه وأهميته، يقول أبو ذر رضي الله عنه: (أوصاني رسول الله ﷺ أن أحب المساكين وأن أدنو منهم) رواه الإمام أحمد.

وخرّج الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: (يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة)، ولم يزل السلف الصالح يوصون بذلك كتب سفيان الثوري إلى بعض إخوانه: (عليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم فإن رسول الله ﷺ يسأل ربه حب المساكين: وحبهم يوجب الإحسان إليهم).

وكانت زينب بنت خزيمة إحدى أمهات المؤمنين تسمى أم المساكين لكثرة إحسانها إليهم، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: (من أراد عز الآخرة فليكن مجلسه مع المساكين)، والمساكين لهم فضائل

منها: أنهم أكثر أهل الجنة كما قال ﷺ: (قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين) رواه البخاري، وهم أتباع المرسلين كما أخبر الله عن نوح أن قومه عيروه باتباع الضعفاء له قال - تعالى - عنهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

اعلموا معاشر المسلمين أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة منها: أنها توجب صلاح القلب وخشوعه ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له: (إن أحببت أن يلين قلبك فأطعم المساكين، وامسح رأس اليتيم) رواه الإمام أحمد رحمه الله.

ومنها: أن مجالسهم توجب رضى من يجالسهم برزق الله عز وجل، وتعظم عنده نعمة الله بنظره في الدنيا إلى من دونه قال النبي ﷺ: (انظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) رواه البخاري، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (أوصاني رسول الله ﷺ: (أن أنظر إلى من دوني، ولا أنظر إلى من فوقي وأوصاني أن أحب المساكين وأن أدنو منهم).

وقول النبي ﷺ: (وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون). المقصود من هذا الدعاء: سلامة العبد من فتن الدنيا مدة حياته فإن قدر الله عز وجل على عباده فتنة قبض عبده إليه قبل وقوعها؛ وهذا من أهم

الأدعية فإن المؤمن إذا عاش سليمًا من الفتن كان ذلك نجاة له من الشر كله، وكان -عليه الصلاة والسلام- يخص بعض الفتن الكبيرة بالذكر فقد روى البخاري أنه ﷺ كان يقول: (أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال). لقد كان - صلوات الله وسلامه عليه - راضيًا بذهاب روحه من جسده ليتخلص من فتنة قد تكون سببًا للعذاب فلقد بلغت خشيته لربه أن يختار الموت على عيشة ممزوجة بالفتنة كما حثّ -عليه الصلاة والسلام- المسلمين أن يبادروا بالأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتراكمة يقول ﷺ: (بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا) رواه الترمذي، وهذه الفتن تقل وتكثر في المجتمعات ليست على درجة واحدة؛ وإن من أعظم الفتن النساء والأموال ففي الحديث الصحيح: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) رواه البخاري ومسلم، وفي الحديث الصحيح الآخر: (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) رواه البخاري، وفي صحيح مسلم: (اتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)،

روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال).

أيها المسلمون: اعلموا أن الإنسان لا يخلو من فتنة قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (لا يقل أحدكم أعوذ بالله من الفتن ولكن ليقل: أعوذ بالله من مضلات الفتن ثم تلا قوله الله -تعالى-: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥]، يشير إلى أنه لا يستعاذ من المال والولد وهما فتنة، واعلموا أن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر فهو فتنة له قال الله -تعالى-: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالمؤمن إذا حصل له الخير شكر وإذا أصيب بضر صبر.وهناك فتن صغار يبتلى بها المرء في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الطاعات من الصلاة والصيام والصدقة. سأل حذيفة رضي الله عنه النبي ﷺ قال: (إن في لساني ذربًا - أي شدة وحدة - وإن عامة ذلك على أهلي فقال له: أين أنت من الاستغفار؟!) رواه البزار، وأما الفتن المعضلة التي يخشى منها فساد الدين فهي التي يستعاذ بالله منها فإذا مات الإنسان قبل وقوعه في شيء منها فقد حفظه الله -تعالى- وحماه؛ روى الإمام أحمد في مسنده عن محمود بن لبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (اثنان يكرهما ابن آدم يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن؛ ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب).

وقوله ﷺ: (وأسألك حبك، وحب من يحبك وحب العمل الذي يبلغني حبك) محبة الله ﷻ على درجتين:

إحداهما واجبة وهي المحبة التي توجب للعبد محبة ما يحبه الله من الواجبات وكراهة ما يكرهه من المحرمات فإذا أخل الإنسان بشيء من الواجبات أو ارتكب شيئًا من المحرمات فمحبته لربه تكون غير تامة فالواجب عليه أن يبادر بالتوبة وهذا معنى قول النبي ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) رواه البخاري.

الدرجة الثانية من المحبة درجة المقربين وهي محبة النوافل والاجتهاد فيها، وكراهة المكروهات والرضاء بالقضاء والقدر المؤلم للنفس لصدوره عن المحبوب؛ كما قال بعضهم: أحببت الله حبًّا هوّن عليّ كل مصيبة ورضاني بكل بلية فلا أبالي مع حبي إياه على ما أصبحت ولا على ما أمسيت، وقال عمر بن عبد العزيز لما مات ولده الصالح: (إن الله أحب قبضه وإني أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور يخالف محبة الله).

ولما كانت محبة الله تستوجب محبة ما يحب فقد سأل رسول الله ﷺ محبة أمرين: محبة من يحب الله -تعالى- فإن من أحب الله أحب أحبابه وأبغض أعداءه. كما قال النبي ﷺ: (ثلاث من كن فيه وجد بهن

حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ... الخ الحديث) رواه البخاري.

الأمر الثاني: محبة ما يحبه الله -تعالى- من الأعمال والأقوال ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: (ما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه) رواه البزار، وقال بعض التابعين: علامة حب الله ﷻ كثرة ذكره فإنك لن تحب شيئًا إلا أكثرت ذكره. ألا فلنحرص يا عباد الله على ما يزيد في ميزان حسناتنا ولنتزود ليوم معادنا ولنتعلم الأدعية الجامعة التي كان رسول الله ﷺ يدعو بها ويعلمها لأصحابه ويأمر من بعدهم بتعليمها.

جعلنا الله وإياكم هداة مهتدين.

***

من جوامع الكلم

أيها المسلمون:

يقول رسول الله ﷺ: (بعثت بجوامع الكلم) رواه مسلم، والمعنى: أنه يقول اللفظ القصير الذي تندرج تحته المعاني الكثيرة وتنطق الحكمة من جوانبه وعليه نور النبوة فتحيي هدايته ميت النفوس التي أراد الله لها حياة.

أيها المسلمون:

في هذا اليوم المبارك نقف وقفات قليلة مع حديث من أحاديث المصطفى ﷺ نسأل الله أن يوقظ قلوبنا من الغفلة وأن يرزقنا الانتباه وقت المهلة يقول الإمام أحمد رحمه الله: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير؛ احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم. لقد بين - صلوات الله وسلامه عليه - لأمته في هذا الحديث الشريف أن المؤمنين على نوعين : نوع قوي متمكن ثابت الإيمان يسعى بكل قواه لنفع إخوانه وإيصال الخير لهم يفرح لفرحهم ويتألم لألمهم ويسعى لبذل المعروف وإدخال السرور وكف الأذى عن إخوانه.

النوع الآخر: مؤمن ضعيف اكتفى بنفسه وترك إخوانه وفي كل من

النوعين خير إلا أن النوع الأول هو المطلوب وهو الذي أمر الله به حيث يقول الله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالأمة لا يبنيها إلا الأقوياء ولا تشيد الأمجاد إلا سواعد الفتية؛ إن الأمة المؤمنة هي تلكم الأمة التي تفيء إلى ربها وتتمسك بكتابه وهي أمة تستروح روائح الإيمان وقد آن لها أن تقف على قدميها بعد أن حاول الأعداء طمس عزها ومجدها وفخارها.

إن رسول الله ﷺ لم يحدد نوع القوة المطلوبة في المؤمن فهي لا تخص قوة الإيمان فحسب بل تعني كل قوة إذ المؤمن القوي هو الذي يكون قويًا في إيمانه، قويًا في جسمه، قويًا في عمله وفكره ونفسه وقلبه وهذه القوى تنتقل إلى الآخرين فيكون المجتمع صالحًا متماسكًا. يقول النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) رواه البخاري؛ ولقد ضرب لنا -صلوات الله وسلامه عليه- خير مثل في قوة إيمانه وشدة بأسه حين فر الناس يوم حنين ولم يبق معه سوى نفر قليل فكان ﷺ يخترق صفوف العدو وهو راكب بغلته ويقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب) رواه البخاري ومسلم؛ قال علي رضي الله عنه: (كنا إذا احمر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه) رواه النسائي. وقال البراء رضي الله عنه: (كنا والله إذا حمى الوطيس نتقي به، أي: برسول الله ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به) رواه مسلم.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم متأسين بنبيهم في قوته وشجاعته يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما ورد في السيرة: (احرص على الموت توهب لك الحياة)، ويقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: (لقد اندقت في يدي يوم مؤته تسعة أسياف وما ثبت في يدي سوى صفيحة يمانية) رواه البخاري، ويقول أحد الصحابة بعدما طعن: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

أيها المسلمون:

إن من القوة المطلوبة أن يكون قلب المؤمن قويًا كبيرًا وأفقه واسعًا مستعدًا لقضايا الإسلام، وهمه أن يرفع الإسلام، وأن يغيظ أعداءه والمتربصين لا أن ينشغل بعيوب إخوانه المسلمين ويتصيد أخطاءهم ليصدر الأحكام عليهم ويحتقرهم فقد قال رسول الله ﷺ: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) رواه مسلم أي: يكفيه شرًا وسوءًا، وفي الأثر: (لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك) رواه الترمذي.

إن شأن المؤمن القوي: أن يسعى لتقوية إيمان إخوانه، وستر عيوبهم وإيصال النفع إلى كل أحد أما المؤمن الضعيف فخيره مقصور على نفسه ولا يتجاوزه حتى يصل إلى الآخرين، وأسوء من ذلك من غرس في طبعه الشر وكمن في غريزته السوء واستولى على توجيه عقله وعواطفه البغي فلو التمس الناس له طريقًا من الخير لأعجزه السير فيه وإن مضى فيه قليلًا ضلع ثم سقط فكم من حادثة سوء كان يمكن أن

تطفأ أوقد نارها رجل شر حتى اشتعلت فالتهمت القريب والبعيد وأتلفت كل شيء أتت عليه؛ ورد عن رسول الله ﷺ قوله: (إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه) رواه ابن ماجه.

أيها المسلمون:

يشير -صلوات الله وسلامه عليه- إلى بعض الجوانب التي تقوي الإيمان وتجعله ثابتًا فيقول: (احرص على ما ينفعك): وهو أمر بجميع ما ينفع في أمر الدين والدنيا فالدنيا مزرعة الآخرة والمؤمن يعمل على كسب حياتين الدنيا والآخرة يقول الإمام علي بن أبي طالب رحمه الله: (ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا) ومن هذا قول الله -تعالى-: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [القصص: ٧٧]، إن المؤمن الحريص على ما ينفعه لا يستغني عن مدد الله وعونه لأنه -سبحانه- هو الذي يقدر الأقدار ويهيئ الأسباب ويقرر الأجل والكتاب لذا فهو يتوكل على ربه ويستعين به دون كسل أو قنوط لأن نهاية الأمور في كل الأحوال خير له. عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له؛ وإن

أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له) رواه مسلم. وفي الحديث الشريف إشارة إلى صفات عظيمة ألا وهي التوكل والصبر والرضا فالتوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده وهو الله -سبحانه وتعالى- فمن يتوكل على الله فإنه محفوظ لا يضيع كما قال الله -تعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، لو أن الإنسان تفكر في رزقه قليلًا وتفكر في رزق المخلوقات والعباد وكيف أن أصغر مخلوق يسخر الله له رزقه؛ وأن الكفار والملاحدة على الرغم من كفرهم وشرهم فإن الله يرزقهم لو تفكر في ذلك لرأى العجب العجاب:

والله قسم بين الخلق رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقًا يضيعه

يقول النبي ﷺ:(لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا) رواه الترمذي، فالمسلم يبذل الأسباب ولا يعتمد إلا على ربه وخالقه ليس اعتماده على المخلوقين؛ وليس التوكل على الله النطق باللسان فحسب إذا قام الإنسان من مجلسه أو اشترى أو باع أو جلس ولكن التوكل فعل الأوامر واجتناب النواهي.

وأما الصبر والرضا فقد خلق الله الدنيا فجعلها دار امتحان وبلاء وخلق الآخرة وجعلها دار خلود وبقاء ورغب المؤمنين بالصبر على البلاء في الدنيا ووعدهم بأعلى الدرجات في الآخرة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، وقد حدد الله لكل فعل من أفعال الخير أجرًا وأما الصبر فقد ترك ثوابه بلا تحديد فقال:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠]، إن المؤمن القوي يصبر على ما يكره ولا يشتكي لأحد غير الله ويرضى بما هو فيه لأنه يؤمن بأن النفع والضر من عند الله؛ وفي الحديث قال النبي ﷺ : (وتعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك)، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا) رواه الإمام أحمد.

والرضا بالقضاء يخفف من جزع المؤمن إذا نزلت به النوائب، ويثبت قلبه عند ملاقاة المصاعب فلا تذهب نفسه حسرات إذا أصابه الشر، ولا يطير شدة من الفرح إذا ناله الخير فما دام الذي قدره الله -سبحانه- سيقع لا محالة شئنا أم أبينا فلماذا نسمح للهموم أن تخالط نفوسنا، وللأحزان أن تملأ قلوبنا؟ وما الذي نستطيع أن نفعله تجاه القدر؟ إن الإنسان خلق ضعيفًا عاجزًا عن الخروج عن دائرة القضاء والقدر فمن الخير له أن يعوّد نفسه على تقبل ما كتب عليه من غير تذمر ولا تضجر وقد قيل: (لأن تصبر وأنت مأجور خير من أن تصبر وأنت مأزور).

ومن دعاء الرسول ﷺ: (اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء) رواه الترمذي، ومن دعاء عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت).

***

من مشكاة النبوة

الحمد لله اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك اللهم إنا نسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول. اللهم إنا نسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين؛ غير خزايا ولا مفتونين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً وتسليمًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها المسلمون:

يقول النبي ﷺ (إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال) رواه البخاري ومسلم.

هناك أمور يكرهها الله، ومن شأنها أن تفوّت على المسلمين مصالحهم، وتحول بينهم وبين التقدم والرقي وقد ذكر -صلوات الله

وسلامه عليه- في هذا الحديث ثلاث خصال منهي عنها:

الخصلة الأولى: (قيل وقال)، و ذلك يعني انعدام الثقة بين الأفراد بعضهم ببعض، ومن مظاهر ذلك: اختلاق الاشاعات، ونقل الحديث، وقذف الأبرياء بالتهم إلى غير ذلك من الأمور التي تصرف الناس إلى الجدل وإلى الهزل وتقطع أوقاتهم فيما لا فائدة فيه ولا طائل تحته ولقد جاء الهدي النبوي الكريم في التحذير من الظن ورجم الناس بالغيب بعيداً عن اليقين والحقيقة حيث يقول النبي ﷺ: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) رواه البخاري ومسلم. لقد عد - صلوات الله وسلامه عليه - الظن أكذب الحديث. والمسلم العاقل لا يجري على لسانه حديثًا فيه رائحة الكذب فكيف يقع في أكذب الحديث.

إنه ليس من أخلاق المسلم أن يكشف أسرار الناس ويغوص في خصوصياتهم فالسرائر يحاسب عليها الله الذي يعلم السر وأخفى ولقد اشتد رسول الله ﷺ في تنبيه المسلمين إلى خطورة الولوغ في أعراض الناس والتنقيب عن عوراتهم مهددًا من يستهين بذلك بهتك الستر عنه وفضحه في جوف بيته فقال ﷺ: (لا تؤذوا عباد الله، ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم فإن من تطلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته) رواه الإمام أحمد.

أيها المسلمون:

إن معالجة الضعف البشري لا تكون بالبحث عن عورات الناس وعيوبهم وفضحهم والتشهير بهم وإنما تكون بحسن عرض الحق عليهم وتزيين الطاعة لهم وتكريه المعصية إليهم دونما مجابهة أو غلظة فباللين والرفق تنفتح مغاليق القلوب وتخشع الجوارح وتلين النفوس ولذلك نهى الإسلام عن التجسس قال الله -تعالى-: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

وذلك أن تتبع عورات المسلمين والتجسس عليهم والتنقيب عن لحظات ضعفهم وتقصيرهم والتشهير بهم يؤذي المسلمين المشهر بهم ويؤذي المجتمع الذي يعيشون فيه فما شاعت الأقاويل في مجتمع إلا انتشرت في أوساطه البغضاء وسرى الكيد واستكنت الضغينة وعم الفساد وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: (إنك إن تتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم) رواه الإمام أحمد.

أيها المسلمون:

إن المتتبع لبعض ما يدور في بعض مجالسنا يجد الأحاديث الفارغة، والأقوال الساقطة التي تدور على الألسنة من غير فائدة مرجوة؛ والمسلم العاقل لا يتحدث إلا فيما ينفعه ولا يحضر المجالس إلا المجالس التي تزيده علمًا وتكسبه نفعًا في أمور الدين أو مصالح الدنيا؛ وعلى المسلم أن يختار الموضوعات النافعة عندما يتحدث كأن يذكر قصة طريفة، أو خبرًا مفيدًا من أخبار التاريخ، أو رأيًا من الآراء العلمية

أو الأدبية المفيدة، وإن كان لا يحسن شيئًا من ذلك أو شبهه كان السكوت خيرًا له.

- الخصلة الثانية: (كثرة السؤال) فإن المجتمع المسلم الذي يريده الإسلام لا مجال فيه للتدخل في شؤون الناس الخاصة؛ لأن أفراده مشغولون بنشر ما يفيد المجتمع وما يأخذ بيده إلى سواحل الأمان، والمجتمع الذي ينهض بهذه الأعمال الجسام لا يجد وقتًا للخوض فيما لا يعني، وقد روى الترمذي الحديث الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، وقال عمر بن عبد العزيز: (من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه)، وقال عمرو بن قيس: مرّ رجل بلقمان والناس عنده. فقال له: ألست عبد بني فلان؟ قال: بلى. قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا. قال: بلى. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: (صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني).

الخصلة الثالثة: (إضاعة المال) إن الإسلام يأمر أتباعه في حياتهم الخاصة بالاعتدال من غير إسراف ولا تقتير قال الله -تعالى-: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأما في الحياة الاجتماعية وصلة الناس بعضهم بعض فليس في الجود بذلك سرف ولا تبذير إنه الميدان الذي تزداد فيه مكانة المنفق عند الله بمقدار ما أنفق من ماله. إن المسلم

المنفق للمال يحوز على دعاء الملائكة حيث ورد في الحديث قول النبي ﷺ: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا) رواه البخاري ومسلم. لقد كان رسول الله ﷺ يبذل كل ما تصل إليه يده فيوزعه على الناس لا يدخر منه شيئًا لنفسه يؤصل في النفوس صفة الكرم ويفتح مغاليق القلوب الغافلة بضربه المثل الأعلى فيه. يحدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: (يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها) رواه مسلم.

أيها المسلمون: وإذا كانت الصدقة وكان الإنفاق والسخاء من الأمور المحمودة التي أمر بها الإسلام وحث عليها فلقد نهى عن الإسراف والتبذير فإن ذلك من إضاعة المال وله أشكال كثيرة فمن ذلك: من يستدين ليتفاخر في تشييد القصور، أو ليشتري سيارة جديدة ذات قيمة عالية، وقد قال لقمان لابنه: (إياك والدين فإنه همّ بالليل ذل بالنهار) ومن ذلك الولائم الكبيرة والضيافات التي من ورائها المباهاة والفخر ولا يؤكل منها إلا القليل. إن المبالغة في إظهار الكرم لا تليق

بالمسلم العاقل وهو يعرف أن عشرات الآلاف من المسلمين يموتون من الجوع وهم بحاجة إلى من يطعمهم وينفق عليهم فلا يجدون من يلتفت إليهم.

إن السخاء والكرم من الصفات المحمودة ولكن ليحذر المسلم المباهاة وليعلم علم اليقين أن له إخوة يتضورون من الجوع هم بمسيس الحاجة إلى كسرة الخبز وقطعة القماش؛ وهاهنا ملاحظة وهي أن البعض ينظر إلى الآخرين فهو يريد قصرًا مشيدًا كالأغنياء وسيارة فارهة ومزارع واسعة إلى غير ذلك وقد يستدين الديون الكثيرة وإن كانت مقسطة إلا أن الدين شاق.

المسلم العاقل لابد أن يفكر في عواقب الأمور فقد يستدين مئات الآلاف ليس لحاجة ولا لضرورة وهو لا يستطيع سدادها وقد تزل قدمه فيشقى بها من بعده؛ فرحم الله امرءًا فكر في مستقبله وجعل الموت نصب عينيه واستعد للآخرة ولم يهمل دنياه قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

***

ما ذئبان جائعان

أيها المسلمون:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم، وفي رواية: (ما ذئبان ضاريان جائعان في زريبة غنم أغفلها أهلها يفترسان ويأكلان بأسرع فيها فسادًا من حب المال والشرف في دين المرء المسلم).

إن حب المال غريزة لدى الناس كما قال -تعالى-: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال -تعالى-: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨] فالخير هنا المال، وحب المال المنهي عنه هو ذلك الحب الذي يوصل إلى التفريط بحقوق الله ويجعل حب المال مقدمًا على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله. إن حب المال يدعو إلى ارتكاب ما حرم الله عز وجل كالغش والاختلاس والتزوير والاحتيال وشهادة الزور والسرقات والرشوة وأكل الربا واغتصاب أراضي الناس وطرقاتهم وإهمال الواجب؛ إن ذلك كله ناتج عن الحرص على المال وحبه بل إن جريمة عظيمة كالقتل مثلًا تحصل نتيجة للحرص على المال. إن البغضاء التي توجد لدى البعض والكذب والحلف الكاذب والغش والغيبة والنميمة والكيد كل هذه الأمور ونحوها قد تكون بسبب

الحرص على المال.

أيها المسلمون:

لقد وجه الشرع المسلم أن يقف من الدنيا موقفًا سديدًا لا يحيد عنه ولا يميل قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص: ٧٧].

المسلم لا يعزف عن الدنيا لأنه لو فعل ذلك لكان عالة على الآخرين ومدَّ يده إلى الناس ليطعم نفسه ومن يعول ولا شك أن الاكتساب لإعفاف النفس والأولاد نوع من العبادة يؤجر العبد ويثاب عليها، عن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة) رواه ابن ماجه. والمسلم أيضًا لا يجعل الدنيا غايته التي يعيش من أجلها وهدفه الذي يسعى إليه؛ فالبعض من المسلمين اختلت عنده النظرة إلى الدنيا فتراه مشغولًا فيها لا يفكر إلا بها ولا يحب ولا يبغض إلا من أجلها.

أيها المسلمون:

في الحديث السابق يذكر النبي ﷺ أمرين يفسدان الدين إفسادًا كبيرًا هما: الحرص على المال والحصول عليه بأي وسيلة، والأمر الآخر:

التطلع إلى الوجاهة والمنصب والشرف، ولقد ضرب -عليه الصلاة والسلام- مثالًا بليغًا فهذا قطيع من الغنم يرعى في أرض خصبة غفل عنه الرعاة وغاب الحارس فهجم عليه فجأة ذئبان جائعان ضاريان مضى عليهما زمن طويل لم يجدا الطعام فعاثا فسادًا وافتراسًا وقتلًا لأعداد كثيرة من هذا القطيع، إن فتك هذين الذئبين بالأغنام فتك كبير فهما جائعان وهما قويان ولم يجدا مقاومة تصدهما من أصحاب الأغنام وحراسها وهكذا فالحرص على الدنيا وطلب الوجاهة ذئبان ولكن من نوع آخر إنهما لا يفتكان بالأغنام ولكن يفتكان بأعز ما يملك الإنسان ألا وهو الدين. والخطورة تكمن في أن أثر هذين الأمرين لا يراه إلا قليل من الناس ممن عرف الحق وفتح الله بصيرته فالكثير من الناس يتعرضون لفتك هذين الذئبين ولا يدرون يمضون لاهين فرحين لا يحسون بأن كارثة تحل في دينهم.

الحرص على المال على نوعين أحدهما: شدة حبه والمبالغة في طلبه ولكن من أمور مباحة إلا أنه لابد من العلم بأن حب المال يجب أن يوظف في خدمة الإسلام وفي سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية:

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها   سرور محب أو هداية تائه

رأس مال المسلم عمره فلا يليق بالعاقل أن يضيع رأس ماله في جمع المال وتكديسه ولو كان من وجوه مباحة، الحرص على المال يفوّت على المسلم فرص الخير فيجمع الكثير الكثير من الأموال التي

لن يحتاج إليها، قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالًا. قال: فهل جمع أيامًا ينفعه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئًا ولقد قيل: يا ابن آدم إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتى تطلب الآخرة. الحريص على المال لا يجد الوقت الذي يرعى فيه أولاده ويتفقد أحوالهم بل إنه لا يجد الوقت الذي يلتفت فيه إلى نفسه وصحته ودينه فلا هو في أمور الدنيا سعيد ومسرور ولا هو مقبل على ما ينفعه في آخرته ليكون من الفائزين ولقد قيل:

إن الحـريص لمـشغول بثروتـه   عن السرور بما يحوي من المال

وقال آخر:

يـا جـامع المـال أيامًـا تفرقـه   جمعت مالًا ففكر هل جمعت له

مـا المـال مالـك إلا يـوم تنفقـه   المـال عنـدك مخـزون لوارثـه

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصًا على الدنيا، أما بعد:

فإنك أصبحت حريصًا على الدنيا تخدمها وهي تخبرك عن نفسها بالأعراض والأمراض والآفات والعلل كأنك لم تر حريصًا محرومًا وزاهدًا مرزوقًا.

النوع الثاني من الحرص على المال: أن يحرص على طلب المال من الوجوه المحرمة ويحمله هذا الحرص على الامتناع عن أداء الحقوق الواجبة؛ روى مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح

أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)، المؤمن لا يقع في الحرام من أجل تحصيل المال فإن حدثته نفسه الأمارة بالسوء زجرها وذكرها ما أعد الله لمن عصاه من العذاب الأليم قال -تعالى-: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤]، وفي حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: (أنذرتكم النار أنذرتكم النار) أخرجه الإمام أحمد.

أيها المسلمون:

والحرص الآخر الذي يضر بالدين الحرص على المكانة والمنصب والجاه فإنه أشد إهلاكًا لصاحبه من الحرص على المال، إن المنصب في الإسلام مسؤولية عظمى وتكليف لا تشريف من قصّر في أداء واجبه فيه خاب وخسر ومن قام بحقه فاز ونجا. صاحب المنصب مكلف بتنفيذ أوامر الله وإقامة الشرع ومكلف بدعوة الناس إلى عبادة الله وحده؛ الرجل الصالح عندما يتولى منصبًا يشرف المنصب به ويرى أن الفضل لله إذا أجرى الخير على يديه فلا يحب أن يحمد هو بل الحمد لله والثناء عليه.

صاحب المنصب عليه مسؤولية كبرى فلابد أن يكون أمينًا في تفكيره وتقديره واختياره للعاملين معه تنفيذًا لأمر الله ورسوله ﷺ. فقد روى الحاكم من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من ولي من أمر المسلمين شيئًا فأمّر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله

لا يقبل الله منه عدلًا ولا صرفًا حتى يدخله جهنم)، وفي رواية: (من استعمل رجلًا من عصابة وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه فقد خان الله وخان رسوله ﷺ وخان المؤمنين). الموظف الصالح يأخذ من بيت المال أجره الدنيوي العاجل وعند الله ﷻ الأجر الأخروي الباقي.

قال محمد بن كعب القرضي لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: [كن لصغير المسلمين أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثل منهم أخًا]. ودخل أبو مسلم الخولاني على أحد الأمراء فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقالوا: قل: السلام عليكم أيها الأمير. فقال: السلام عليك أيها الأجير، فكأنهم همّوا به فقال الأمير: دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول. فقال أبو مسلم: إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها فإن أنت هنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها وافاك سيدنا أجرك وإذا أنت لم تهن جرباها ولم تداو مرضاها، ولم تحبس أولاها على أخراها عاقبك سيدنا. إن المنصب مسؤولية وأمانة يقول النبي ﷺ: (من ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره يوم القيامة) رواه أبو داود.

***

غزوة بني المصطلق

أيها المسلمون: في اليوم الثاني من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة النبوية جرت أحداث غزوة عرفت في السيرة والتاريخ باسم غزوة بني المصطلق أو المريسيع وهو مورد ماء كان مسرحًا للقاء بين المسلمين وقبيلة بني المصطلق ومن انضم إليها من العرب حيث يسكنون بين مكة والمدينة. وكان سبب هذه الغزوة أن الرسول ﷺ بلغه أن زعيم بني المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن تابعه من غيرهم يريدون حرب رسول **الله** ﷺ فبعث - عليه الصلاة والسلام - بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه يستكشف حقيقة الأمر فاستطاع بذكائه أن يتعرف على حقيقة ما يخططون وهو الحرب وذلك بعدما التقى بزعيمهم وتحدث معه عن هدفهم ولم يعرف عن الصحابي شيئًا فأمر - عليه الصلاة والسلام - المسلمين بالخروج إليهم وجعل على المدينة أميرًا زيد بن حارثة، أو أبا ذر الغفاري رضي الله عنهما واجتمع مع الرسول ﷺ ألف رجل فخرج بهم في فصل الشتاء؛ وفي أثناء سيرهم وجد المسلمون جاسوسًا لبني المصطلق يتجسس لهم الأخبار عن المسلمين فأخذه المسلمون وسألوه عن المشركين وتجمعاتهم فأبى أن يذكر شيئًا عنهم أو يتحدث عن شأن من شؤونهم فعرض عليه النبي ﷺ

الإسلام فأبى أن يسلم وعندئذ أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يضرب عنقه. ولما بلغ الحارث زعيم المصطلق ومن معه من الجموع التي جمعها لحرب رسول الله الخبر وأنه أي الرسول قتل جاسوسه الذي بعثه ليتجسس الأخبار تملكه الخوف والذعر ورعب رعبًا شديدًا وعم جموعه الفزع فتفرقوا عنه وتركوه مع قومه؛ وعندما وصل المسلمون إلى مورد ماء يقال له المريسيع واقتربوا من بني المصطلق أرسل -عليه الصلاة والسلام- إليهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمره أن ينادي بني المصطلق أن يقولوا: لا إله إلا الله ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم فأبوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام وبدأوا الحرب فرمى رجل منهم كتائب المجاهدين بسهامه؛ ولما رأى - عليه الصلاة والسلام - رفضهم للإسلام وبدأهم بالحرب أراد ﷺ أن يعطي العرب المشركين درسًا لا ينسونه فأمر المسلمين بأن يهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد حتى ينهوا المعركة لصالحهم وبوقت قصير وسرعان ما هزم المشركون وقتل منهم حوالي عشرة أشخاص ووقعوا جميعًا في الأسر ويقدر عددهم بنحو سبعمائة شخص ولم يصب من المسلمين سوى رجل واحد عن طريق الخطأ حيث قتله أحد المسلمين ظنًا منه أنه من المشركين وغنم المسلمون أموالهم ومنها ألفا بعير وخمسة آلاف شاة واسترق المسلمون النساء وكان من ضمن النساء جويرية بنت الحارث زعيم بني

المصطلق ولقد تزوج بها رسول الله على ما يأتي بيانه -بإذن الله-.

أيها المسلمون: إن هذا النصر العظيم الذي أحرزه المسلمون على بني المصطلق في ذلك الوقت القصير وبدون أي خسائر خالطه من أعمال المنافقين ما عكر صفوه وأنسى المسلمين حلاوته فإن خادماً لعمر بن الخطاب ازدحم مع مولى لواحد من الأنصار على مورد الماء فصاح الأول يا للمهاجرين وصاح الآخر يا للأنصار واستمع إلى ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين ومعه من هم على شاكلته من المنافقين فكانت فرصة سانحة لهؤلاء الأنذال لكي يفرقوا الصف المسلم ويحيوا ما أماته الإسلام من نعرات الجاهلية فقال زعيم المنافقين ابن أبي: أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا يقصد المهاجرين وعلى رأسهم الرسول أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني أنه الأعز والرسول الأذل ثم أقبل على قومه من الأنصار يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول وصحبه فذهب زيد بن الأرقم إلى النبي ﷺ يقص عليه الخبر وأسرع ابن أبي إلى رسول الله يبرئ نفسه وينفي ما قاله على عادته في الكذب والالتواء. لقد أحزن هذا العمل رسول الله ﷺ ووجد خير علاج له إشغال الناس حتى لا يجدوا فرصة للتجمع فيما بينهم فيتحدثون بما حصل لهم ولا سيما أهل النفاق الذين يهمهم تفرقة الصف فأمر النبي

بالمسير في وقت لا يسير فيه وسار بالناس طيلة اليوم والليل وأول اليوم الثاني ثم أمر بهم فنزلوا وما إن استقروا على الأرض حتى غطوا في سبات عميق حيث ناموا لتعبهم في مواصلة السير وبعد ذلك تابع رسول الله ﷺ سيره باتجاه المدينة النبوية ونزلت سورة المنافقون وفيها تصديق ما قال الصحابي الشاب زيد بن الأرقم رضي الله عنه قال الله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

أيها المسلمون: ولم يكتف المنافقون بهذا الكلام الدنيء بل تجرأوا على عرض النبي ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

إنه لم يفكر أحد من المسلمين أن هذا الرجوع السريع بعد النصر المؤزر سوف ينتج عنه أكذوبة دنيئة يحيك أطرافها زعيم المنافقين ثم يرمي بها بين الناس فتسير في مجالسهم سير الوباء الفاتك لقد كان رسول الله يقابل زعيم المنافقين بالتسامح والعفو ولكن عدو الله لم يزدد إلا خسة ودناءة؛ لقد كان أبو جهل خصمًا لدودًا للرسول ولكل من دخل الإسلام وكان يحمل سلاحه ضد الإسلام وما زال يقاتل به حتى صرع؛ وأما ابن أبيّ فقد اختفى كالعقرب يلسع الغافلين بإشاعاته المريبة ونزل في ذلك إلى الحضيض حتى إن أشرف البيوت بيت رسول الله ﷺ لم يسلم منه ففي عودة الرسول من غزوة بني المصطلق إلى المدينة

نبت حديث الإفك وشاع واجتهد خصوم الإسلام في ترويجه وبثه قاصدين النيل من بيت الرسول وإسقاط مكانة أقرب الناس إليه وأن يعم الأسى والغم مجتمع المسلمين وللوصول إلى هذه الغاية الدنيئة استباح ابن أبي لنفسه أن يرمي بالفحشاء فتاة عفيفة محصنة لم تزل في مرحلة الطفولة البريئة لا تعرف الشر ولا تهم بمنكر وهي التي تربت في حجر الصديق وأعدت لصحبة النبي في الدنيا والآخرة وكان حديثًا غريبًا جدًا تلقفته بعض الألسنة وهم لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله.

لقد وردت قصة الإفك في صحيح البخاري على لسان عائشة وذكرها الله ﷻ في سورة النور من الآية الحادية عشرة فما بعدها.

معشر المسلمين: لقد تضمنت هذه الغزوة دروسًا مفيدة منها:

- انتهاج الأسلوب الهجومي في رد كيد الأعداء فإنه عليه الصلاة والسلام لم ينتظر جموع المشركين حتى يصلوا إلى المدينة ثم يواجههم بل خرج بالمسلمين لملاقاتهم مما أفزع المشركين وبالتالي هزموا ولم يحصل تهديد لأمن المدينة ولا لأمن الموجودين فيها.
- ومن الدروس: عرض الإسلام على الأعداء ومحاولة تجنب القتال حيث بعث -عليه الصلاة والسلام- عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعرض الإسلام على الأعداء المحتشدين ليحقنوا بإسلامهم دماءهم وتسلم لهم أموالهم ولكنهم أصروا على متابعة العداء مما جعل المسلمين

يشنون عليهم هجومًا خاطفًا حقق النصر إن هذا الأسلوب الذي تبعه رسول الله ﷺ هو ما يعرف الآن بإنسانية الحرب ومحاولة حل النزاعات بالطرق السليمة.

- ومن الدروس: الحرص على وحدة الصف فبعد الفتنة التي أثارها زعيم المنافقين أراد -عليه الصلاة والسلام- أن ينساها المسلمون وأن لا يتحدثوا بما حصل؛ إن الانشغال بما يهم هو المهم أما التفرغ للحديث عن أمور تضر ولا تنفع وتفرق ولا تجمع فليس من الإسلام في شيء وقد كان -عليه الصلاة والسلام- ينهى عن قيل وقال.
- ومن الدروس: حسن المعاملة كفيل باستجابة الناس للدين فإن أسرى بني المصطلق أسلموا لما رأوا حسن معاملة المسلمين لهم بعتقهم وإكرامهم وذلك بعد زواج الرسول بابنة سيدهم أكرمهم المسلمون فاعتقوهم من الرق وصاروا أحرارًا.

واعلموا معشر المسلمين أن الإسلام يأمر بأن يعامل الناس على حسب ظواهرهم وأما ضمائرهم وسرائرهم فتوكل إلى الله ﷻ فإن زعيم المنافقين بالرغم من ثبوت ما حصل منه إلا أنه -عليه الصلاة والسلام- اعتبره في عداد المسلمين وذلك حسب الظاهر ولذا لما طلب بعض الصحابة من الرسول ﷺ أن يأمر بقتله قال: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا وهذا بطبيعة الحال مع أخذ الحيطة والحذر كما قال الله - تعالى - عن

المنافقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون:٤]، ولقد قال -عليه الصلاة والسلام- لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه) ولقد كان نتيجة هذه الحكمة أن ابتعد عن ابن أبيّ قومه وأخذوا يفضحونه. ولقد تبرأوا منه لا سيما بعد دنائته بترويج حديث الإفك الذي آلم نبي الله ﷺ والمسلمين كثيرًا وأقلق راحتهم.

أيها الإخوة: في زواج النبي ﷺ بجويرية عظة وعبرة فقد يطمح الإنسان إلى شيء فيوفقه الله إلى شيء أعظم منه؛ فقد وقعت جويرية بنت الحارث من نصيب ثابت بن قيس بن شماس فلم تصبر على الرق بعد أن كانت ابنة سيد قوم فطلبت من ثابت أن يعتقها فطلب منها تسديد تسع أواق من ذهب وهو مبلغ عظيم جدًا إلا أنها وافقت على أمل الحرية فذهبت إلى رسول الله ﷺ وطلبت منه أن يعينها وأخبرته بخبرها فقالت: (يا رسول الله إني امرأة مسلمة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وكان من أمري ما لا يخفى عليك فقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس فكاتبني على ما لا طاقة لي به ولا يدان لي ولا قدرة عليه وهو تسع أواق من الذهب وما أكرهني على ذلك إلا إني رجوتك صلى الله وسلم عليك وجئتك أسألك في كتابي) لقد كانت تتوق إلى الحرية وأن تعود إلى خدرها في بني المصطلق وأن يتزوجها أحد فتيانهم هذا أقصى ما كانت

تتمناه ولكن الله ﷻ منحها فوق ما تتمناه أرادها الله أن تكون أمًّا للمؤمنين وحليلة لسيد الأولين والآخرين؛ وذلك أمر مبرم من قبل أن يخلق الناس وقبل أن تأتي جويرية إلى الحياة فليأخذها محمد ﷺ ولترتفع في الدنيا وفي الآخرة لقد قال لها - عليه الصلاة والسلام-: (هل لك في خير من ذلك؟ فقالت: وما هو يا رسول الله؟ فقال لها: أؤدي عنك كتابك وأتزوجك) رواه أبو داود.

لقد كانت وهي تكلم رسول الله وتسمع كلامه مليئة القلب بالأمل المرجى تتكلم وتسمع وهي ثابتة القلب فأجابت رسول الله دون تلعثم ولا تردد قائلة: نعم يا رسول الله قد فعلت لقد دخلت جويرية إلى خدرها أمًّا للمؤمنين وزوجًا لسيد المرسلين وخرج النبأ العظيم إلى الناس وتعالموه فأرسلوا كلهم ما في أيديهم من السبي يعني أعتقوهم لله وقالوا: هم أصهار رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: (فما رأينا امرأة أعظم بركة على قومها منها).

***

من وصايا المصطفى ﷺ

أيها المسلمون:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) رواه البخاري ومسلم. هذا الحديث وصية نافعة تدل على الحث على شكر الله بالاعتراف بنعمه والتحدث بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وشكره فإن شكر الله هو رأس العبادة فإن ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة خاصة أو عامة إلا من الله وهو الذي يأتي بالخير والحسنات ويدفع السوء والسيئات قال الله -تعالى-: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقد أرشد النبي ﷺ إلى دواء عجيب وهو أن يلحظ الإنسان في كل وقت من هو دونه في العقل، والنسب والمال والصحة وأصناف النعم فمتى داوم على ذلك دعاه إلى شكر ربه والثناء عليه فإنه لا يزال يرى خلقًا كثيرًا دونه بدرجات ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أعطيه من عافية، ومال، وخلق فيحمد الله على ذلك حمدًا كثيرًا ويقول: الحمد الذي أنعم علي وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلًا. ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم فيحمد ربه على كمال العقل ويشاهد عالمًا كثيرًا ليس لهم قوت يدخرونه ولا مساكن يؤون إليها وهو مطمئن في سكنه موسع عليه في رزقه، ويرى خلقًا كثيرًا قد ابتلوا بأنواع الأمراض وأصناف الأسقام وهو معافى من

ذلك يرفل في ثياب الصحة. وفي الحديث الصحيح قال النبي ﷺ: (من أصبح منكم آمنًا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) رواه البخاري ومعنى آمنا في سربه: يعني بين أهله، وفي الحديث الآخر قال النبي ﷺ : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ)رواه البخاري.

كما يلحظ أناسًا كثيرين قد استولى عليهم الهم وملكهم الحزن والوسواس وضيق الصدر ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء وراحة قلبه حتى ربما كان فقيرًا يفوق بهذه النعمة كثيرًا من الأغنياء، ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالمًا كثيرًا أعظم منه وأشد مصيبة فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

أيها المسلمون:

إن المسلم ليشاهد خلقًا كثيرًا قد ابتلوا ببلاء أفظع من الفقر والمرض وأشد ألا وهو الوقوع في أوحال المعاصي والله سبحانه قد حفظه منها أو من كثير منها وما أحسن ما قيل:

وكل كسر فإن الدين جابره ‏ ‏ ‏ ‏ وما لكسر قناة الدين جبران

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما ابتليت ببلاء إلا كان لله فيه أربع نعم: إذا لم يكن في ديني، وإذا لم يكن أعظم؛ وإذا لم أحرم الرضا به، وإذا أرجو الثواب عليه).

أيها المسلمون:

إن من ينظر إلى من دونه يبتعد عن احتقار الناس وازدرائهم ولا يكلف نفسه عيشة الأغنياء والمترفين بل يقنع بما قسم الله له ويرضى بقدره.

وكان عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا ما يقول: (اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت). إن من ينظر إلى من دونه يجد ويجتهد في طلب الرزق واكتساب المعالي فإذا أدرك مراده قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات)، وإذا فاته الطلب ولم يبلغ مقصوده التفت إلى من وراءه فشكر الله عَزَّ وَجَلَّ وقال: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤]. قال بعض الحكماء: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحدًا أكثر مني همًّا لأني أرى ثيابًا أحسن من ثيابي ودابةً أحسن من دابتي ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت وما أحسن ما قيل:

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل حزينًا على الدنيا رهين غبونها

إذا شئت أن تحيا سعيدًا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

إن من وفق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يزل يشكره في قوة ونمو وزيادة ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال وما يتبع ذلك فإنه لابد أن يزدري نعمة الله ويحتقرها ويفقد شكر

الله ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضا بالله ربّا ومدبرًا، وذلك ضرر في الدين والدنيا، وخسران مبين.

أيها المسلمون: إن نعمة واحدة من نعم الله ﷻ لا يستطيع الإنسان أن يحصي ما فيها من المنافع والفوائد فكيف بالنعم الكثيرة الظاهرة والباطنة. والشكر مدار الخير وعنوانه.

قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (والله إني لأحبك ثم أوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: ربِ اجعلني لك شكارًا، لك ذكارًا) رواه النسائي والترمذي. وقد اعترف أعظم الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله فقال النبي ﷺ: (لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك) رواه مسلم. يذكر عن بعضهم أنه شكا فقره إلى بعض العلماء وأظهر شدة اغتمامه بذلك فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا؛ قال أيسرك أنك مقطوع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفًا؟ قال: لا؛ قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا؛ قال: أما أن تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفًا.

أيها المسلمون:

رسول الله ﷺ في هذه الوصية العظيمة يرشدنا إلى أن ننظر إلى من هو أسفل منا في شؤون الدنيا والعافية، وما شاكل ذلك. وأما في شؤون

الآخرة، وطاعة الله ﷻ فإن المسلم مأمور أن ينظر إلى من هو فوقه ولا يقنع بالدون بل ينافس في طاعة الله ﷻ كما قال -عز من قائل-: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال -تعالى-: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وقال -تعالى-: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١].

***

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التوحيد	٥
فضل كلمة التوحيد وما ينقضها أو ينقصها	٧
لا إله إلا الله فضلها، معناها، شروطها	١١
من أركان الإيمان: الإيمان بالرسل	١٥
من أركان الإيمان: الإيمان بالقدر	٢٣
من وسائل تقوية الإيمان	٣١
أكبر الكبائر	٣٩
السحر وشؤمه	٤٤
التشاؤم من بقايا الجاهلية	٥٢
استشعار عظمة الله عند بعض المخلوقات	٥٨
التفكير في عظيم قدرة الله - تعالى -	٦٤
الهدف من خلق الإنسان	٧١
والحياء شعبة من الإيمان	٧٦
علامات صحة القلب وعلامات مرضه	٨٢
الإحسان وأنوعه	٨٨
ولا تؤمنوا حتى تحابوا	٩٤

الموضوع	الصفحة
من مشاهد القيامة	٩٩
حديث: عن دار السلام	١٠٥
كلام أهل الجنة ومخاصمة أهل النار	١١١
الحوض المورود	١١٨
الصــلاة	١٢٥
صلوا كما رأيتموني أصلي	١٢٧
فضل يوم الجمعة وصلاتها	١٣٤
وقد خاب من حمل ظلمًا	١٣٩
الــزكاة	١٤٥
من أركان الإسلام: الزكاة	١٤٧
الصــوم	١٥٧
استغلال شهر رمضان بالطاعات	١٥٩
الحث على العمل الصالح في رمضان	١٦٤
رمضان شهر التوبة	١٧٠
خطبة عيد الفطر المبارك	١٧٨
الحــج	١٨٣
فضل الأيام المعلومات	١٨٥
دروس من الحج	١٩٤

الموضوع	الصفحة
دروس من الحج	١٩٧
من آثار الحج ودروسه	٢٠٢
عبر ودروس من الحج	٢٠٧
تضحية إبراهيم الخليل عليه السلام	٢١٣
ألا بذكر الله تطمئن القلوب	٢١٨
خطبة عيد النحر	٢٢٥
التفسير	٢٣٣
وقفات مع فاتحة الكتاب	٢٣٥
تفسير سورة الضحى	٢٤٢
وقفة مع سورة التكاثر	٢٤٧
عبر من قصة أصحاب الفيل	٢٥٢
من قصص داود وسليمان عليهما السلام	٢٥٥
السيرة	٢٦١
بنيت بالعفو مجدًا	٢٦٣
بعثت بالحنفية السمحة	٢٧٢
ويوم الوشاح من أعاجيب ربنا	٢٨١
علامات محبة الرسول ﷺ	٢٨٩
معاملة النبي ﷺ مع الصغار	٢٩٧

الموضوع	الصفحة
ولد الهدى فالكائنات ضياء	٣٠٤
ليلة من ليالي نبي الله ﷺ	٣٠٨
قصة زواج عجيبة	٣١١
اللهم إني أسألك الثبات في الأمر	٣٢٢
التربية النبوية.. إبداع وتألق	٣٣٠
عجائب من حجة المصطفى ﷺ	٣٤٠
أخلاق المصطفى ﷺ	٣٤٥
وقفات حول خطبة حجة الوداع في عرفات	٣٥٥
من الشمائل المحمدية	٣٦٠
فتح مكة	٣٦٤
الأيام الأخيرة لرسول الله ﷺ.	٣٧٥
غزوة مؤتة دورس وعبر	٣٨٤
غزوة حنين دروس وعبر	٣٩٤
غزوة ذات الرقاع	٤٠٣
من كتب النبي ﷺ للملوك في عصره	٤٠٨
عبر وحكم من غزوة أحد	٤١٣
من وصايا المصطفى لأبي ذر: أحكم السفينة	٤٢١

الموضوع	الصفحة
الرسول ﷺ الرحمة المهداة	٤٢٨
غزوة تبوك	٤٣٣
من دعاء الرسول ﷺ	٤٣٨
من جوامع الكلم	٤٤٥
من مشكاة النبوة	٤٥١
ما ذئبان جائعان	٤٥٧
غزوة بني المصطلق	٤٦٣
من وصايا المصطفى ﷺ	٤٧١
الفهرس	٤٧٧

***